© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات
رئيس مجلس الادارة: د. ناصر القدوة

رئيس التحرير: يحيى يخلف
مدير التحرير: غسان زقطان
مستشار التحرير: فيصل دراج

شارك في التحرير: فيصل حوراني
عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

الهيئة الاستشارية: حلمي النمنم
كمال عبد اللطيف
محسن بوعزيزي
كريم مروة

ادارة: رفيف الأسمر
وليد زبيدي

تصميم الغلاف: زهير ابو شايب
التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٨» شتاء ٢٠١٥

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000000090904802525 10

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ في إحياء الذكرى واستذكار عرفات
د. ناصر القدوة

أوراق فلسطينية

١٠ قرى الكراسي في فلسطين
د. سعاد العامري

٢٩ في الذكرى العاشرة لرحيل الزعيم: فتح في سنواتها الأولى
يحيى يخلف

٤٣ الهوية .. جذور ومسار
عبد الفتاح القلقيلي

٦١ بعد العدوان على غزة
عبد الغني سلامة

أوراق عربية

٧٥ ثقافة التسامح والتعايش مع الآخر: الثقافة بين التنوير والتكفير
أ.د. صالح خليل أبوأصبع

أوراق ثقافية

٩٩ سبل الابداع أثناء اعادة الكتابة
حسين عيد

١١٥ خطاب موديانو، درس في الرواية
تقديم وترجمة: أحمد المديني

١٢٩ منديل الموت في جيبي
متين فندقجي

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

١٤٩ "جان جينيه" العاشق الأسير للتمرد وأقصى مداه
إدريس علوش

١٥٥ سميح القاسم: شاعر المقاومة في الزمن الجميل
كريم مروة

١٦١ قراءة في نثر سميح القاسم
يحيى يخلف

مراجعات

١٧٣ اثقل من رضوى: مقاطع من سيرة ذاتية لرضوى عاشور
عبد الفتاح القلقيلي

أوراق المؤسسة

١٨٣ فعاليات مؤسسة ياسر عرفات لاحياء الذكرى السنوية العاشرة لاستشهاد الرئيس

في إحياء الذكرى واستذكار ياسر عرفات

د. ناصر القدوة*

أُحييكم باسم مُؤسسةِ ياسر عرفات، باسم رَئيسها الفخري، السيد الرئيس محمود عباس، ورئيسِ مَجلسِ أمنائِها السيد عمرو موسى وباسم أعضاءِ مجلس الأمناءِ ومجلس الإدارة.

عشر سنوات كاملة مرت على استشهاد القائد المؤسس. لم نصل خلالها بعد إلى فلسطين المستقلة. بل زادت التحديات وكبرت العقبات على الطريق نحن نريد أن نستمد العون من إرث ياسر عرفات ومنهجه خاصة في مواجهتنا مع إسرائيل وفي مواجهتنا لأوضاعنا الداخلية.

إسرائيل اغتالت ياسر عرفات باستخدام البولونيوم ٢١٠، ولعلنا نؤكد هنا على أن نذهب بالنقاش نحو ما يجب عمله للاقتصاص من الجناة والمجرمين. وإسرائيل وإعلامها الغربي حاولت حثيثاً تشويه صورة عرفات قبل وبعد اغتياله. جاء اغتيال اسرائيل لعرفات ليس فقط في سياق التخلص من الرئيس المنتخب للشعب الفلسطيني وإنما في سياق ضرب المشروع الوطني ككل. ليس فقط لمنع قيام دولة فلسطينية وإنما لضرب الهوية الوطنية الموحدة وتقسيم الوطن جغرافياً وسياسياً.

كان يفترض هنا أن يغيب عرفات جسدياً وأن يغيب أيضاً عن الذاكرة الجمعية للشعب الفلسطيني، لم يحدث هذا، بل حدث عكسه واقترب ياسر عرفات من شعبه واقترب الشعب منه أكثر فأكثر مع

* رئيس مجلس إدارة مؤسسة عرفات

مرور كل يوم منذ غيابه ومع ازدياد المخاطر التي تحيط بشعبنا وازدياد التحديات التي تواجهه. المسألة تتلخص في الحاجة إلى الرمز، والتمسك بالهوية الوطنية والإصرار على إنجاز حقوقنا.

من المفيد هنا وطنياً الاستمرار في طرح السيرة والتمسك بالإرث وهذا ما نفعله نحن في المؤسسة وهذا ما يفعله شعبنا.

في إحياء الذكرى و استذكار عرفات هناك ربما الحنين العاطفي و مشاعر الوفاء لمناضل قاد مسيرة الثورة ثم مسيرة بناء الدولة دون أن يحيد أو ينكسر.

لكن هناك أيضا مسألة استلهام التجربة وتتبع سماتها وقواعد عملها، ثم هناك انطلاقا من هذا تأكيد العهد و الالتزام بالمضي قدما في نضالنا نحو الاستقلال والسيادة .

يعني هذا، العمل بإصرار على انجاز حقوقنا الوطنية، يعني مجابهة الاستعمار الاستيطاني لبلادنا، يعني الاستماتة في الدفاع عن القدس، يعني العمل بإصرار على استعادة الوحدة جغرافياً و سياسياً و تعزيز هذه الوحدة، ويعني التمسك بقيمنا الوطنية والديمقراطية، ويعني العمل من اجل تحقيق ظروف معاشية افضل لشعبنا باتجاه بناء اقتصاد قابل للحياة، ويعني ايضا تعزيز عمقنا العربي وعلاقاتنا الدولية وتطوير الشرعية الدولية لصالح أهدافنا الوطنية.

نحاول العمل من أجل ذلك. وتحاول القيادة بجدية كاملة، بقيادة الرئيس محمود عباس، وتحاول القوى السياسية وعلينا الاستمرار بكل العزيمة.. و قد يعيننا تراث ياسر عرفات.

اما بالنسبة لعرفات والشأن الداخلي. تزداد عواطفنا لأن الأمر متعلق بنا وبأهلنا وتزداد رغبتنا في التماهي مع ما اختطه لنا.

علمنا عرفات مثلا أن مصلحة الوطن فوق مصلحة التنظيم، وأن مصلحة الشعب قبل مصلحة اعضائنا. لم يكن هذا موقفا أخلاقيا فحسب، بل هو موقف سياسي يعكس قيما وطنية أصيلة. وهو الفارق الأساسي بيننا وبين بعض الآخرين أصحاب الموقف الأيديولوجي الذي يضع الأمير فوق التنظيم، ويضع التنظيم فوق الشعب. مصلحة التنظيم فوق مصلحة الوطن.

علمنا عرفات أن نقبل بالتعددية وتعزيزها وأن نقبل بالديمقراطية والانتخابات وتداول السلطة، وأن لا نلجأ للعنف لحل خلافاتنا وتناقضاتنا الداخلية. وهو مرة اخرى ما يميزنا عن بعض الآخرين

الذين يرون لأنفسهم حقوقا إلهية لا تنسجم مع الشراكة أو التداول.

علمنا عرفات أن نقبل ونعزز الحريات الفردية والمساواة والعدالة. وهو مرة ثالثة ما يميزنا عن بعض الآخرين الذين لا يترددون في إلغاء حريات الفرد والمساواة لمصلحة الغيبية وفتاوى الأمراء.

كان من المأمول أن تكون ذروة إحياء الذكرى العاشرة لرحيل الزعيم عرفات مهرجاناً مركزياً في أرض الكتيبة في غزة الحبيبة، تأكيدا على وحدة الوطن وعلى حب عرفات لغزة وحبها له.

الصدمة المحزنة كانت إلغاء هذا المهرجان المركزي بالمتفجرات ثم بالتهديد من قبل حماس. هذا عدوان على تراث عرفات وعلى القيم الوطنية والديمقراطية وعلى محاولات استعادة الوحدة وعلى مشروعنا الوطني، وعلى حقوق اهلنا في غزة، وتعريض مصالحهم للخطر.

كيف نخرج من هذا المأزق؟ بوضوح وصراحة على حماس ان تقوم بكل ما يجب عليها لإنهاء هذا الوضع وهو ليس بالقليل. من جانبنا وفي كل الأحوال لن نتخلى عن شعبنا في غزة و سنصر على إعادة الإعمار وعلى كل ما يلزم لذلك وفي المقدمة حكومة الوفاق الوطني.

منذ أمد قصير احتفلنا في تجمع رسمي برعاية الرئيس محمود عباس بانتهاء الأعمال الإنشائية للمتحف المقام في فضاء ياسر عرفات وبإنجاز تجديد الضريح والمسجد. هذا إنجاز جيد بالرغم من أن افتتاح المتحف سيتطلب عدة أشهر أخرى. نعتذر لكم عن هذا وبالمقابل نؤكد لكم القيمة الوطنية الثقافية الفريدة التي سيكون عليها المتحف مع افتتاحه. شكرنا هنا للرئيس ولرئيس الحكومة والحكومة على دعمهم المتواصل للمتحف.

لقد شاركنا جميعا في التجمع الشعبي بمناسبة الذكرى العاشرة، الذي دعت إليه حركة فتح وفصائل منظمة التحرير ومؤسسة ياسر عرفات وقد استمعنا مباشرة للرئيس محمود عباس مخاطبا شعبنا الفلسطيني في كل مكان.

واحتفل أهلنا في غزة بإحياء الذكرى بكل الاشكال التي رأوها مناسبة.

رحم الله ابو عمار، رحم الله قادتنا الكبار و كل شهدائنا.. المجد و الخلود للشهداء والحرية لأسرانا البواسل.

نواحي وقرى كراسي وعائلات شيوخ ريف فلسطين

د. سعاد العامري*

شكلت الناحية، وتدعى أيضاً المشيخة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وحدة إدارية ضريبية مستقلة. وقد تمتع المشايخ حتى منتصف القرن التاسع عشر، بقوة سياسية عالية ونفوذ وثروات

باحثة وكاتبة فلسطينية.

الدراسة فصل من كتابها بنفس العنوان، والصور من أرشيف "رواق".

وفيرة نسبياً، وذلك من خلال النظام الضرائبي المعروف باسم الالتزام.

كان لكل مشيخة مركز إداري يدعى قرية الناحية أو قرية الكرسي. وهي عادة مقر إدارة لشيخ الناحية، ومكان سكنه، ويمكننا التعميم بالقول أن قرى الكراسي تميزت بمواقعها المحصنة نسبياً. وعند التمحيص نجد أن نسبة قرى الكراسي الواقعة على قمم الجبال قد بلغ ثمانين بالمائة ٨٠٪، وباستثناء صانور قرية كرسي آل جرار التي كانت محصنة بأسوار عالية، لم تكن هناك أسوار تحيط القرى الفلسطينية سواء كانت قرية كرسي أو غيرها. وبشكل عام، فقد اعتمدت القرى لحماية نفسها على نفوذ وقوة جيش شيخ الناحية.

أما حجم المشيخة وعدد قراها فقد اختلف كثيراً، فبينما بلغ عدد قرى ناحية جمّاعين خمساً وأربعين قرية، لم تتعدّ مشيخة بني سالم وبني مرة الست قرى. وكما هو الحال بالنسبة لاختلاف المشيخات نتيجة انقسامها أو تجمعها اختلف عدد القرى التابعة لهذه المشيخة أو تلك. وكثيراً ما حصل خلاف حول تبعية قرية ما كما حصل عندما اختلف آل الريان وال القاسم (عندما أعيد تقسيم الجماعينات إلى غربية وشرقية على تبعية قرية الزاوية، حيث كان العدد الإجمالي خمساً وأربعين قرية، وتم تقسيمها مناصفة وبقيت قرية الزاوية متنازعاً عليها( ).

تقسيمات النواحي:

ودون الدخول في كثير من التفاصيل والتغيرات التي حصلت في عدد النواحي وقرى كراسيها في فترات تاريخية مختلفة، يمكننا القول إن النواحي الرئيسية في جبل نابلس والقدس والخليل كانت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على النحو التالي:

جبل نابلس:

انقسم جبل نابلس عملياً إلى سبع نواحٍ هي:

ناحية اللجون، وتدعى أيضاً ناحية جنين وكان مركزها قرية اللجون، ثم أصبح مدينة جنين، سيطر على هذه الناحية في الأساس آل جرار، ثم حكام عكا وحكام نابلس.

مشاريق الجرار ومركزها صانور بزعامة آل جرار، وبلغ عدد قراها ثلاثاً وعشرين قرية.

الشعراوية الغربية ومركزها عرّابة بزعامة آل عبد الهادي وبلغ عدد قراها أربع عشر قرية.

جماعين الشرقية ومركزها بيت وزن بزعامة آل قاسم، وتدعى أيضاً جورة عمرة، وبلغ عدد قراها خمس عشر قرية.

جماعين الغربية ومركزها جماعين ودير استيا بزعامة آل الريان وأبو حجلة، وقد بلغ عدد قراها ثلاثين قرية.

وادي الشعير ومركزها برقة وسبسطية بزعامة آل سيف وآل كايد، وعدد قراها عشرون قرية.

مشاريق البيتاوي، مركزها بيتا وجالود بزعامة آل دويكات وآل منصور، وبلغ عدد قراها اثنتين وعشرين قرية، وتدعى مشاريق نابلس أيضاً.

جبل القدس:

وكذلك منطقة جبل القدس، فقد بلغ عدد النواحي فيها سبعاً.

النواحي الغربية عددها أربع وهي:

بني حسن، ومركزها الولجة، بزعامة آل درويش، وبلغ عدد قراها إحدى عشرة.

بني مالك، ومركزها قرية العنب، بزعامة آل أبو غوش، وبلغ عدد قراها اثنتين وعشرين.

بني حارث، ومركزها رأس ابن سمحان، بزعامة آل سمحان، وبلغ عدد قراها ثماني عشر.

بني زيد، ومركزها دير غسانة، بزعامة آل البرغوثي، وبلغ عدد قراها عشرين.

أما النواحي الشرقية فثلاث وهي:

جبل القدس، ويضم أبو ديس وبيت إكسا، وبيتونيا، والبيرة، ودير دبوان.

بني سالم، ومركزها كفر مالك، وعدد قراها خمس.

بني مرة، ومركزها المزرعة الشرقية، وعدد قراها ست.

جبل الخليل:

أما مشيخات جبل الخليل فهي ثلاثة:

العرقوب ومركزها بيت عطاب، بزعامة آل اللحام، وعدد قراها أربع وعشرين.

القيسية التحتا ومركزها دورا، بزعامة آل عمرو، وعدد قراها خمس عشر.

القيسية الفوقا ومركزه بيت جبرين بزعامة آل العزة، وتشمل أيضاً مناطق آل العملة في بيت أولا، وبلغ عدد قراها سبع عشر.

وبذلك يكون العدد الإجمالي سبع عشر مشيخة، وهذا على الأغلب الحال كما كان قبل حملة إبراهيم باشا إلى فلسطين. وقد تفاوت عدد المشيخات وكذلك عدد قرى الكراسي خلال الفترات المختلفة، وذلك نتيجة للصراعات حول السيطرة والنفوذ على مناطق المشيخات المختلفة. ومن المرجح أن يكون عدد النواحي وعدد قرى الكراسي قد بلغ أوجه خلال فترة حكم إبراهيم باشا حيث عمل على إضعاف نفوذ النواحي مما نتج عنه وجود قريتي كرسي في الناحية الواحدة أو أكثر( ). لذا نجد أن أعداد النواحي وقرى الكراسي تتراوح من فترة لأخرى ومن مصدر لآخر. أما في "بعثة استشكاف فلسطين" عام ١٨٧٨ فقد تم ذكر أربع وعشرين قرية كرسي، حيث ذكرت أسماء قريتي كرسي لمشيخة واحدة، كما هو الحال في ناحية بني زيد حيث ذكرت عبوين ودير غسانة، كذلك الحال بالنسبة لدير إبزيع ونعلين في بلاد حارثة القبلية وجماعين ودير استيا لناحية جماعين الشرقية، وقريتي برقة وجالود في ناحية مشاريق البيتاوي. أما السبب الآخر للتفاوت في عدد المشيخات فهو ناتج عن الصراعات المستمرة بين شيوخ النواحي التي نتج عنها، في حالات كثيرة، تقسيم الناحية إلى شرقية وغربية أو كما هو الحال في بني حارث القبلية والشمالية. وكذلك الخال بالنسبة لما يسمى بالجماعينات، التي كانت لفترة طويلة مقسمة إلى جمّاعين الغربية، تحت سلطة آل الريان، وجمّاعين الشرقية تحت سلطة آل القاسم. أما ناحية الشعراوية فقد قسمت إلى الشعراوية الغربية بزعامة آل عبد الهادي في عرّابة، والشعراوية الشرقية بزعامة آل جرار. أما ناحية بني حارث، فقد قسمت إلى بني حارث الشمالية والقبلية وتدعى أيضاً بني حمار. وقد نتج عن تغير الاسم أو الأصح تعدد الأسماء لنفس الناحية أخطاء في عدد النواحي. وبذلك نجد أن عدد النواحي وقراها قد تراوح بين سبعة عشر ما قبل حملة إبراهيم باشا ليصل إلى سبعة وعشرين خلال حكمه. (يوجد جدول)

ونتيجة للصراعات المستمرة بين شيوخ النواحي وأعيان المدن ووالي عكا ودمشق نجد أنه في حالات كثيرة قام شيخ الناحية أو حاكم المدينة بإقناع الوالي بأن يصبح متسلماً لمناطق شيوخ نواحي آخرين، كما كان الحال بالنسبة لناحية اللجون (جنين) أو ناحية بني صعب لآل الجيوسي في كور اللتين سيطر عليهما كل من آل عبد الهادي وآل طوقان.

شيوخ ريف فلسطين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

المقصود بالريف الجبلي الفلسطيني هنا مناطق سلسلة الجبال الوسطى من فلسطين (من جنين حتى الخليل). فبينما كان نفوذ والي عكا ووالي غزة يمتد على القرى والمدن الساحلية من فلسطين، كان نفوذ شيوخ النواحي يمتد على منطقة الجبال الوسطى، أي جبال نابلس والقدس والخليل.

أما العشار البدوية في فلسطين فقد بسطت نفوذها على مناطقها التي كان أهمها صحراء النقب، ووادي الأردن ومنحدراته الشرقية، ومنطقة سهول مرج ابن عامر وسهل الحولة بالإضافة إلى بعض مناطق السهول الساحلية مثل أبو كشك في يافا وغزة وعرب الشبلي في منطقة الجليل.

كانت المناطق الجبلية الوسطى من فلسطين تحت سيطرة وزعامة شيوخ النواحي. وقد تعزز هذا النفوذ وضعف مرات عديدة خلال الحكم العثماني لفلسطين. وكان نفوذ شيوخ نواحي ريف فلسطين في أوجه عندما تميزت الحكومة العثمانية باللامركزية أو في فترات ضعف الإمبراطورية. وقد اكتسب شيوخ النواحي سطوة ونفوذاً كبيرين، لأن الحكومة العثمانية اللامركزية أعطت أو اعترفت لشيوخ النواحي بدورهم "كملتزمين"، اي الالتزام بجمع الضرائب من قرى نواحيهم. كما كان لشيوخ النواحي مسؤولية حفظ الأمن في مناطقهم، ومن ثم تنظيم الجيوش المحلية، بالإضافة إلى مسؤولياتهم بتنظيم وحماية موكب الحج السنوي إلى مكة. وقد استطاع الكثير من شيوخ النواحي، ونتيجة لنظام الالتزام العشري، جمع أموال طائلة من فلاحي القرى التي كانت تحت سيطرتهم. ويسمى نظام الضريبة الالتزام العشري نسبة إلى السماح لشيوخ النواحي بمجمع عشر المحصول لصالح الدولة العثمانية. وفي كل الحالات تجاوزت الحصة التي كانت تُجمع من قبل شيوخ النواحي العشر لتصل أحياناً إلى النصف. وقد كان هناك علاقة عكسية فكلما ضعف الحكم العثماني (كما كان الحال في أواخر القرن الثامن عشر) وسع شيوخ النواحي نفوذهم في المناطق المجاورة، ووقعت بسبب ذلك عدة مناوشات وصراعات ومعارك بين شيوخ النواحي، أدت إلى نقل مسؤولية التزام المناطق من مشيخة إلى أخرى. ومما لا شك فيه، أنه نتيجة نظام الالتزام والتحالفات المختلفة فيما بينهم، أو مع السلطة العثمانية، برز مشايخ وعائلات شبه إقطاعية استمر نفوذها في التوسع، ولم يتم تقويضه فعلياً إلا في نهاية القرن التاسع عشر.

أما نفوذ وصلاحيات وامتيازات شيوخ النواحي فقد اختلفت من منطقة إلى أخرى، ومن فترة إلى

أخرى، وبشكل عام يمكن القول، أن سطوة وعزوة شيوخ نواحي مدينة وجبل نابلس، وهم طوقان، وآغا النمر، وجرار، وعبد الهادي، والقاسم، والجيوسي، كانت أقوى بكثير مما كان عليه حال شيوخ النواحي في منطقة جبل القدس والخليل. وذلك لخصوبة منطقة جبل نابلس، وكثرة قراها، وغنى وسطوة تجار مدينة نابلس، وقد امتد نفوذ شيوخ ريف جبل نابلس، كما سنرى لاحقاً إلى السيطرة على معظم مدن فلسطين لتصل إلى جنين ونابلس، القدس ونواحيها، وصيدا وعكا ويافا وغزة، كما كان الحال بالنسبة لآل عبد الهادي والقاسم (انظر عرّابة وبيت وزن). وقد كان آل جرار أكثر شيوخ نواحي جبل نابلس نفوذاً، وفي فترة لاحقة، آل عبد الهادي في عرّابة، والقاسم في بيت وزن، ومن ثم جيايسة كور وريان جمّاعين.

أما زعماء شيوخ جبل القدس، فهم آل أبو غوش، زعماء حزب اليمن، وآل الخواجا في نعلين، وآل سمحان شيوخ قرية ابن سمحان زعماء حزب قيس. ومن زعماء جبل القدس أيضاً براغثة دير غسانة وآل سحويل في عبوين.

أما في علاقة الريف بالمدينة، أو بمعنى آخر علاقة قرى شيوخ النواحي بالمدن الرئيسية بالجبل أي نابلس والقدس والخليل، فيلخصها المؤرخ بشارة دوماني بالقول: "إن مدينة الخليل كانت امتداداً بينما كانت القدس بمعزل عن ريفها، واتسمت نابلس بعلاقة حيوية مع ريفها. ولا شك في أن هناك مصادر كثيرة تصف العلاقات الحيوية التي ربطت نابلس بمحيطها، وأهمها على الإطلاق، كتاب المؤرخ دوماني إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس ١٧٠٠- ١٩٠٠. ولكن للأسف ليس لدينا دراسات مفصلة توضح علاقة شيوخ نواحي القدس والخليل بمدنها كما هو الحال في نابلس. ولا شك أن نابلس لعبت دوراً اقتصادياً وسياسياً هاماً، وشكلت محوراً رئيسياً في تشكيلات وتحالفات شيوخ النواحي فيما بينهم، أو في تحالفاتهم مع ولاة عكا ودمشق، ومن ثم الحكومة المركزية. ولم يقتصر تأثير نابلس على جبل نابلس فقط، بل تعداه إلى مناطق نفوذ جبل القدس كآل أبو غوش في قرية العنب وآل سمحان في رأس ابن سمحان.

أما عن جبل القدس فيقول الكسندر شولش: "بينما كانت مشاحنات الزعماء المحليين في جبل نابلس تتجاوز الكفاح من أجل السيطرة على قرى ومناطق منفردة لتشمل السيطرة على نابلس أو منصب الحاكم فيها، فإن عاملاً كهذا لم يكن له دور في المنطقة الجبلية المحيطة بالقدس". ويضيف واصفاً أبناء الفئة العليا في القدس: "كانت مراكزهم تستند بالدرجة الأولى إلى تولي الوظائف الدينية

والأوقاف الواسعة النطاق، وإلى عضوية الهيئات الإدارية في القدس". ويضيف: "أي أن القضية بالنسبة لوجهاء القدس لم تكن قضية الحكم المباشر على الأراضي المحيطة بل قضية رعاية".

نفوذ شيوخ نواحي فلسطين

لفترة من الزمن، أبقى العثمانيون التقسيمات الإدارية التي كانوا قد ورثوها عن المماليك، والتي شكلت فلسطين فيها الجزء الجنوبي من بلاد الشام، حيث لم تشكل فلسطين بحدودها الانتدابية، وحتى نهاية الحكم العثماني عام ١٩١٧، وحدة إدارية واحدة منفصلة. وبشكل عام، كانت ألوية فلسطين تابعة لولايتي دمشق وصيدا، ثم لولاية بيروت، بحيث تبعت المناطق الداخلية إلى إيالة دمشق، بينما تبع ساحل فلسطين إلى إيالة صيدا.

وفي معظم الأحيان قسمت فلسطين إلى خمسة أو ستة ألوية هي: صفد، وجنين، ونابلس والقدس ويافا وغزة. فالتقسيمات الإدارية العثمانية للجزء الجنوبي من بلاد الشام (فلسطين) كانت عرضية بحسب ما أرساه الرومان، حيث امتد قضاء اللجون (جنين) من البحر جنوب الطنطورة ماراً بسهل مرج ابن عامر ونزولاً إلى غور الأردن ثم إلى جبال البلقاء في الأردن. وكذلك الحال بالنسبة لقضاء نابلس، الذي امتدت نواحيه من الشعراوية الغربية، وبني صعب من البحر المتوسط متجهاً شرقاً، عبر أراضي مشاريق جرار ومشاريق نابلس إلى نهر الأردن شرقاً.

اختلفت هذه التقسيمات الإدارية والتبعية السياسية من فترة لأخرى، وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بصراعات ومناطق نفوذ القوى التي دارت بين دمشق ومصر وعكا ونابلس. ولاحقاً، (منذ منتصف القرن التاسع عشر) القدس.

لعبت مدن فلسطين الرئيسية صفد، عكا، نابلس، القدس، يافا وغزة أدواراً اقتصادية وسياسية مختلفة في فترات مختلفة. فيمكننا التعميم بالقول إن صفد وغزة لعبتا دوراً اقتصادياً وسياسياً هاماً، خلال القرن السادس عشر، بينما تمتعت كل من عكا خاصة ونابلس بدور اقتصادي وسياسي في غاية الأهمية خلال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث كانت عكا وحكامها يشكلون المركز والثقل الحقيقي المتحدي وشبه المستقل عن الحكومة العثمانية المركزية، وخاصة خلال حكم والي عكا ظاهر العمر (١٧٣٠-١٧٧٥) وبعده الجزار.

أما القدس فقد تمتعت بأهمية دينية وقضائية أكثر منها اقتصادية وسياسية، فقد كانت مركزاً قضائياً

رئيسياً وتساوت مكانتها القضائية مع كل من دمشق والرملة والمدينة المنورة. كما اكتسبت القدس مكانة إدارية وسياسية في النصف الثاني من القرن التاسعر عشر حين فقدت عكا مكانتها، وفصلت القدس عام ١٨٧٤ عن بقية سناجق بلاد الشام، لتصبح سنجقاً مستقلاً تابعاً مباشرة للباب العالي في استانبول. وتم أيضاً إلحاق ألوية يافا ونابلس والخليل وغزة بسنجق القدس، بذلك أصبحت مدينة القدس مركز السلطة بدلاً من عكا ونابلس.

ومن الجدير بالذكر، أن هذه المناطق الإدارية لم تخضع للحكومة العثمانية المركزية، بقدر خضوعها للحكام المحليين في فلسطين. فقد انتقل النفوذ على هذه المناطق، وتم تناقله بين حكام عكا، وحكام نابلس، وشيوخ نواحي الجبل، فها هو لواء اللجون (جنين) ينضم تحت سيطرة آل جرار، لينتقل إلى مناطق نفوذ حكام عكا، ومن ثم إلى حكام مدينة نابلس ويستمر الصراع عليه قرابة قرن من الزمن.

ألحقت مناطق شيوخ النواحي (جنين، نابلس، القدس، والخليل) إدارياً بولاية دمشق. حيث كان والي دمشق عملياً هو مفتاح الوصول للسلطات العثمانية المركزية، وهو المسؤول رسمياً عن التعيينات السياسية، وأساس الشرعية الرسمية. وقد كان من صلاحيات والي دمشق تعيين متسلم أو شيخ الناحية وعملياً كان يتم التعيين سنوياً ولدورة واحدة. ولكن فعلياً أصبح شيخ الناحية منصباً شبه وراثي، وحتى في الحالات التي يتم فيها فصل شيخ الناحية. فكثيراص ما يتم تعيين ابنه أو ابن عمه أو قريبه في هذا المنصب. وجرت العادة أنه عندما يقوم الوالي، أو باشا الدورة( )، بتعيين متسلم على ناحية يلبسه عباءة، وتدعى أيضاً فروة) ويقوم المتسلم من طرفه بتقديم له، فالبرغم من التبعية الرسمية لمناطق جبل شيوخ النواحي إلى والي دمشق. يمكننا القول أنه، وخلال ما يقارب القرن (١٨٣١-١٧٣٠) كان لا ولاة عكا المتعاقبون هم الحكام الحقيقيين والمتنفذين والمؤثرين على نفوذ شيوخ نواحي فلسطين، بالرغم من تبعيتهم الرسمية لأيالة دمشق. وفي الأساس يعود ذلك لإنشغال ولاة دمشق بصراعات داخلية مستمرة، ولإنشغال الحكومة العثمانية المركزية بحروب خارجية عديدة (روسيا، فرنسا، ومصر) وفي كثير من الأحيان قام والي عكا بتحدي الحكومة المركزية ووالي دمشق، وذلك بتعيينه متسلمين جدداً، مناهضين للمتسلمين الذين تم تعيينهم من قبل الحكومة المركزية بواسطة والي دمشق. ويصف إحسان النمر في كتابة تاريخ جبل نابلس والبلقاء الوفد الذي جاء إلى نابلس مبعوثاً من طرف ظاهر العمر، بقوله: "اجتمعوا بأمراء نابلس ووجهائها وعرضوا عليهم شروط الظاهر وهي تسليم جميع السلاح وخروج مصطفى بك وأحمد

بك (طوقان) إلى الظاهر كي يلبسهما الأول متسلماً والثاني متسلماً، على القدس بدلاً، من آل النمر متسلمي والي الشام". ويضيف: "أي أنه يريد ارغامهما على عصيان الدولة والانقياد له".

أما التحالفات الرئيسية، التي سعى شيوخ النواحي من خلالها إلى الحصول على امتيازات ومكاسب إضافية، فيمكن تلخيصها بما يلي:

١. علاقة شيوخ النواحي بالحكومة العثمانية المركزية، ممثلة بوالي أيالة دمشق، ووالي أيالة صيدا، وهما المسؤولان الرسميان، ومصدر الشرعية.

٢. علاقة شيوخ النواحي بحكام المدن، وخاصة ولاة عكا (ظاهر العمر والجزار) المصدر الحقيقي للامتيازات، وكذلك علاقة شيوخ النواحي بعائلات وبكوات نابلس والقدس.

٣. علاقة شيوخ النواحي والتحالفات فيما بينهم (قيس ويمن).

٤. علاقة شيوخ النواحي وتحالفاتهم خلال الأحداث الهامة والرئيسية التي عصفت بفلسطين، وبالتحديد حملة نابليون في نهاية القرن الثامن عشر، وحملة باشا على فلسطين (١٨٤٠-١٨٣١).

٥. وأخيراً فترات اللامركزية والمركزية للحكومة العثمانية، وعلاقة الأخيرة مع القوى المسيطرة في أوروبا وهي أساساً فرنسا وبريطانيا وروسيا.

لقد شكلت الصراعات والتحالفات المستمرة بين عائلات مدينة نابلس الرئيسية (طوقان وآغا النمر) مع حكام مدينة عكا (ظاهر العمر والجزار وعبد الله باشا) وأقوياء شيوخ الريف (جرار ولاحقاً عبد الهادي والقاسم) المحاور الرئيسية للأحداث، ونتج عنها نقلات نوعية من حيث الامتيازات والمصالح الاقتصادية والنفوذ السياسي. وقد ألقت هذه العلاقة الثلاثية بظلالها الثقيلة ليس فقط على جبل نابلس، بل تعدتها لتصل إلى جبل القدس والخليل.

ومن الجدير بالذكر أن بعض هذه العائلات وبالتحديد، طوقان وآغا النمر، كانت قد أحضرت إلى فلسطين، في منتصف القرن السابع عشر، من قبل الحكومة العثمانية، من حلب وحماة. وكان الهدف الرئيسي من إحضارهم هو تركيز سلطة الدولة تحديداً بأعيان المدن ونزعها من شيوخ نواحيها المحليين. وقد أعطت الحكومة المركزية لهؤلاء اقطاعات كبيرة (تيمارات) ( ) ليصبحوا فيما بعد القوى والزعامات المحلية الشبه مستقلة والمتحدية الرئيسية لسلطة ونفوذ الحكومة المركزية.

أما آل جرار فقد قدموا من بلقاء الأردن إلى سنجق اللجون (جنين) وذلك في منتصف القرن السابع

عشر. وأصبحوا أقوى شيوخ نواحي المنطقة بلا منازع ولذا لقبوا بـِ"أمراء الريف" وباستثناء ثورة الفلاحين التي تزعمها شيخ بيت وزن قاسم الأحمد عام ١٨٤٣، كان شيوخ آل جرار، وخلال أكثر من مائة عام، الزعماء الرئيسيين للمنطقة، وقد كانت تحالفاتهم مع أو ضد حكام عكا أو نابلس ترجح كفة طرف على آخر.

أما سطوة آل جرار فقد كانت بالأساس ناتجة عن سيطرتهم على أرض شاسعة، فبالإضافة إلى سيطرتهم على مشيخة مشاريق الجرار (جمّاعين الشرقية) والتي كان مركزها قرية الكرسي صاتور، فقد سيطر آل جرار على قضاء اللجون (جنين)، والممتد كما ذكر سابقاً من قرية اللجون ومرج ابن عامر إلى البلقاء سابقاً. وقد شكلت الأراضي الخصبة مكاناً هاماً لزراعة القطن والحبوب والتبغ. كما سيطرت على طريق التجارة العام الواصل بين دمشق ومصر. بالإضافة إلى طريق الحج. وقد شكلت ناحية اللجون السبب الرئيسي لنزاعات آل جرار مع حكام عكا وحكام مدينة نابلس. فقد نجح ظاهر العمر في توسيع رقعة الأراضي الواقعة تحت سيطرته بانتزاع اللجون وضمها لملكيته، بعد أن قتل شيخ آل جرار عبد الله عام ١٧٣٥. كما نجح حسين بيك عبد الهادي أيضاً، في انتزاع ناحية اللجون من آل جرار. كما شهدت ناحية بني صعب، الممتدة غرباً إلى البحر، ومركزها كور آل الجيوشي، صراعات دامت عشرات السنين. حيث نجح مصطفى بيك طوقان، بإقناع والي دمشق، بتعيين شيخاً على بني صعب لينشأ النزاع على مشيخة بني صعب بنين آل طوقان وآل الجيوسي. وبذلك سيطرت عائلات مدينة عكا ونابلس على مناطق نفوذ أقوى شيوخ ريف فلسطين، وبهذا نرى أن الصراعات قد تجاوزت شيوخ النواحي فيما بينهم من أجل حماية امتيازاتهم ومصالحهم الاقتصادية وعزوتهم السياسية.

شيوخ النواحي وتحالفات قيس ويمن

شكل التحزب إلى فريقي قيس ويمن، السمة الرئيسية للتحالفات التي سادت فلسطين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد تعددت الروايات الشفوية، وكذلك المصادر المكتوبة حول أصول وتاريخ قيس ويمن. ففي كتابة تاريخ جبل نابلس والبلقاء، يُرجع إحسان النمر أصول قيس ويمن إلى الغرب "الأصليين" قحطان وعدنان. فعدنان، أصوله حجازية (شمالية) بينما أصول قحطان يمنية (جنوبية). ويُرجع الخلافات إلى الصراع على الخلافة بين علي ومعاوية، حيث قام اليمنيون بمساندة علي، بينما ساندت قبيلة قيس المضرية (العدنانيون) معاوية. ويضيف إحسان النمر أن الملك الناصر بن قلاوون، قسم أراض فلسطينية حيث أقطع القسم الشمالي لليمنيين، والقسم الجنوبي للقيسيين،

وجعل وادي نابلس أصلاً، بينهما، وبالرغم من أن هذا الفصل، إن كان صحيحاً لفترة ما، فإنه لم يستمر طويلاً، إلا أنه قد يفسر تواجد أغلبية للقيسيين في جبل الخليل والقدس، وأكثرية لليمنيين في مناطق نابلس.

أما ماكالتسر ستيوارت وماسترمان، فيذكران أن قيس ويمن كانا أخوين لكل منهما عائلة ممتدة كبيرة، وقد ساد العداء بينهما إلى حد تشكيل تحالفين سميا باسميهما، واستمر تأثيره قروناً عديدة. ومهما كانت أصول وتاريخ قيس ويمن، فقد كانت النزاعات والتحالفات، المرتبطة بالمصالح الاقتصادية والسياسية، تقوم في حالات كثيرة بناء عليها. وقد تزامنت ظاهرة قيس بها ارتباطاً وثيقاً. ولم تقتصر هذه الظاهرة على مناطق الجبال الوسطى أي مناطق الفلاحين فقط، بل تعدتها لتضم قبائل البدو في مناطق نفوذهم: النقب، وادي الأردن، مرج ابن عامر، يافا، غزة، وكثيراً شكلت قيس أسساً لتحالفات اشترك فيها الفلاحون والبدو والمدنيون.

وكذلك الحال بالنسبة لعائلات بعض مدن فلسطين، ففي مدينة نابلس كانت عائلة آغا النمر تترأس القيسيين بينما ترأس آل طوقان اليمن أما عائلة عبد الهادي فقد كانت هي أيضاً قيس.

ومما لا شك فيه، أن تحالفات قيس ويمن، قد لعبت دوراً أقل أهمية في المدن، حيث سادت علاقات العائلات الاقطاعية، كما كان الحال في مدينة نابلس والقدس. أما حاكم يافا محمد آغا أبو نبوت، فقد استطاع عام (١٨٠٧) أن يسيطر على جبل القدس والخليل من خلال تحالفاته مع أبو غوش والخواجا في نعلين، بضم حزب اليمن له.

أما في جبل الخليل والقدس، فقد شكل القيسيون القسم الأكبر حيث سمي جبل الخليل، جنوب مدينة الخليل، بالقيسية الفوقا ومركزها دورا بزعامة آل عمرو، بينما سمي جبل الخليل، غرب مدينة الخليل، القيسية التحتا، ومركزها بيت جبرين بزعامة آل العزة. وقد كانت كل من بيت لحم، بيت جالا ورام الله من القيس أيضاً. وهذا يفسر الهجرة المبكرة (أوائل القرن العشرين) لأهالي جبل الخليل، إلى هذه المناطق، ومن هنا جاء الاسم الدارج حالياً قيسية للإشارة إلى سكان جبل الخليل القاطنين منذ أكثر من مائة عام في رام الله وبيت لحم وبيت جالا.

أما جبل القدس، فقد كان أيضاً ذا أغلبية قيسية، فكثيراً ما وجد شيوخ أبو غوش وشيوخ الخواجا في نعلين أنفسهم محاطين بالقيسيين، فقد تزعم آل سمحان، من رأس ابن سمحان قيسية جبل القدس،

بينما تزعم أبو غوش( ) يمنية المنطقة (بنو حارث)، وانضمت إليهم قرى بني زيد.

ومن الجدير بالذكر، أنه وفي كثير من الأحيان، كانت القرية الواحدة مقسمة، فبعض الحمائل تبعت يمن، بينما تبعت الحمايل الأخرى قيس. كما كان الحال في بلدة رام الله، التي كانت ست من حمائلها قيس باستثناء حمولة الشقرة فقد كانت يمن، مما نتج عنه تحالف الأخيرة مع بيتونيا وأبو غوش. وكان هناك حالات غيرت فيها الحمولة أو القرية بأكملها انتماءها من قيس إلى يمن أو العكس. ومثال على ذلك، حادثة مطالبة أهالي رام الله (تحت زعامة يوسف حرب وعيسى جغب من أتباع قيس)، الشيخ مصطفى أبو غوش (زعيم يمن) أن يكونوا تحت جناح وحماية الشيخ عبد الله الكسواني زعيم حزب اليمن في حينها. ولكن الأخير كان دائماً يمايز بين اليمنيين الأصليين والجدد مما اضطر أهالي رام الله والبيرة إلى العودة إلى تحالفاتهم الأصلية مع قيس.

أما في منطقة نابلس فقد شكلت عائلة آغا النمر، من مدينة نابلس، تحالفات قيسية مع كل من عبد الهادي عرّابة، قاسم بيت وزن، وجيوسي كور، وبالمقابل شكلت عائلة طوقان، زعامة يمن بمساندة آل جرار في صانور وآل سيف في برقة وريان جمّاعين وآل كايد في سبسطية، ولكن هذا لم يمنع الصراعات الدموية والتي استمرت سنوات عديدة بين آل جرار وآل الريان، وكلاهما يمن. وكذلك آل عبد الهادي وجيايسة كور وكلاهما قيس مما يؤكد أن المصالح الذاتية والسعي وراء الامتيازات أدت إلى تحالفات وصراعات خارجة عن نطاق قيس ويمن.

وبذلك نرى أن تحالفات قيس ويمن امتدت عبر مناطق نفوذ عائلات المدن وشيوخ نواحي الريف ومناطق نفوذ عشائر البد. فقد تحالف آل سحويل مع آغا النمر بينما تحالف البراغثة (منافسو آل سحويل) مع آل القاسم، وقد ساد هذا النمط من تحالفات المتنافسين على نفس الناحية فكثيراً ما لجأ طرف لمناصرة العائلات الاقطاعية في نابلس (طوقان وآغا النمر) أو شيوخ النواحي الأقوياء (جرار وعبد الهادي وآل القاسم والجيايسة).

وأخيراً من الملفت للإنتباه أن تحالفات قيس ويمن لم تكن مبنية على خلافات عقائدية وفكرية، فليس هناك أية أيديولوجية فكرية لأي منهما، مما يؤكد أنها شكلت فقط قاعدة سهلت التحالفات والصراعات المبنية على المصالح الاقتصادية.

وقد شكل اللون الأحمر شعار القيس، بينما شكل اللون الأبيض شعار اليمن. وفي حالات كثيرة،

كما هو الحال في قلعة ابن سمحان في رأس كركر، استعمل الصحن الصيني الأحمر في قمة القبة أو العقد رمزاً لقيس، وكذلك استعملت الحنة كصبغة حمراء لتلوين النقوش الحجرية فوق قوس المداخل والبوابات.

محطات رئيسية في حياة شيوخ النواحي:

يمكننا هنا الحديث عن ثلاث حقب شكلت محطات رئيسية تم فيها تحدي، ومن ثم زعزعة. وأخيراً أفول نفوذ عائلات شيوخ النواحي:

١. فترة حكم ظاهر العمر الزيداني (حكم ١٧٧٥-١٧٣٠) ومن بعده أحمد باشا الجزار (عاش ١٨٠٤-١٧٣٥) وقد هاجم ظاهر العمر قرى الكراسي خلال حملته مع أمير لبنان عام ١٧٦٤.

٢. حملة إبراهيم باشا على فلسطين (١٨٤٠-١٨٣١).

٣. سياسات التحديث والتنظيمات العثمانية والمتمثلة بقانوني الأراضي عام ١٨٥٦-١٨٥٨، وقانون الولايات لعام ١٨٦٤، وقانون الأراضي لعام ١٨٧٨.

وكانت أهم الأحداث التي وقعت في تلك الحقب على الإطلاق، محاولة إبراهيم باشا (١٨٤٠-١٨٣١) كسر نفوذ شيوخ النواحي، وما نتج عن ذلك من "ثورة الفلاحين" عام ١٨٣٤، بهدف التصدي لمحاولاته مسر شوكتهم، والتي بدورها سهلت مهمة الدولة العثمانية فيما بعد، وأدت إلى نقل مركز الثقل والسلطة من الريف إلى المدينة.

حملة إبراهيم باشا على فلسطين وثورة شيوخ النواحي (١٨٣٤)

كان لمحاولة محمد علي الكبير، والي مصر، ووالد إبراهيم باشا، أثر كبير على نفوذ وصلاحيات شيوخ مناطق فلسطين. فخلال عملية تحديث اقتصاد مصر وإدارتها، قام محمد علي الكبير بالانفتاح على الدول الأوروبية والتحالف معها، خاصة فرنسا، في محاولة منه لإضعاف سلطة الدولة العثمانية في استانبول والاستقلال عنها. ومن أجل زيادة فائض المدخول من التجارة الدولية، وخاصة تجارة القطن والحبوب، ولزيادة الإيرادات الناتجة من الأسواق العالمية، قام محمد علي الكبير بتوسيع رقعة دولته. وكجزء من حملاته، أرسل محمد علي باشا ابنه إبراهيم ليبسط نفوذه على فلسطين عام ١٨٣١. وقد شكلت هذه الحملة خطراً وتهديداً كبيراً على مصالح الزعماء المحليين وعلى رأسهم إبراهيم باشا والي إيالة صيدا في حينها، ووالي عكا وزعامات وحكام مدينة نابلس طوقان وآغا النمر. وشكلت حملة إبراهيم باشا أيضاً

خطراً حقيقياً على معظم شيوخ نواحي جبل نابلس والقدس والخليل، وخاصة آل جرار وآل القاسم. حيث عمد إبراهيم باشا، كما سنرى، إلى إضعاف نفوذهم من خلال تحالفاته العديدة مع أعيان المدن، الذين عمل جاهداً لتركيز السلطة والصلاحيات بأيديهم، ونزعها من الريف وشيوخ الريف.

وفي البداية، وفي محاولة من إبراهيم باشا لتحييد شيوخ النواحي، وخاصة الأقوياء والمتنفذين منهم، (قاسم الأحمد وعبد الله جرار)، قام بالعمل على تثبيتهم واستمرار نفوذهم، وذلك من خلال مرسوم أرسل إلى نابلس وجاء فيه: "وأما بلاد جبل نابلس جميعها فإننا أبقيناها بعهدة مفاخر المشايخ الشيخ محمود عبد الهادي والشيخ يوسف بن قاسم الأحمد، والشيخ عبد الله الجرار والشيخ يوسف والشيخ عبد الوهاب الجيوسي يتعاطوا أمور الأحكام وجباية الأموال. وقد فعل ذلك في البداية ليتحاشى فتح جبهات عديدة، وفي خطوة لاحقة قام إبراهيم باشا بتركيز الصلاحيات والسلطة بكل من آل عبد الهادي من عرّابة، والشيخ قاسم الأحمد أقوى شيوخ نواحي المنطقة في حينها. وعليه، قام بتعيين الشيخ حسين عبد الهادي والياً على أيالة صيدا بدلاً من إبراهيم باشا، وعين أخاه الشيخ محمود عبد الهادي متسلماً على يافا، وابنه الشيخ سليمان متسلماً على جنين. هذا بالإضافة إلى سيطرة آل عبد الهادي وإقطاعهم في عرابة (الشعراوية الشرقية) وأم الفحم. كما قام إبراهيم باشا بتعيين الشيخ قاسم الأحمد متسلماً لمدينة القدس، وابنه الشيخ يوسف متسلماً لمدينة نابلس. وبذلك تم تركيز السلطة عملياً بشخصين اثنين أولهما من المدينة (أصل ريفي) وثانيهما من زعامات الريف. لقد أعطى هذا التقسيم المتساوي في السلطة قراراً لإبراهيم باشا دام ثلاث سنوات. إلا أن إبراهيم باشا عمل على إضعاف شيوخ النواحي لصالح أعيان المدينة. فقام بتنحية الشيخ قاسم الأحمد عن متسلمية القدس وتعيين ابنه مكانه، ومن ثم إعطاء متسلمية نابلس إلى سليمان ابن الشيخ حسين عبد الهادي كان لإضعاف شيوخ نواحي الجبل ممثلين بالشيخ قاسم الأحمد الأثر الكبير على تجنيدهم وتحريكهم ضد إبراهيم باشا فيما يعرف بثورة شيوخ النواحي وتعرف أيضاً بثورة الفلاحين. وكما هو متوقع، فقد تزعم هذه الثورة الشيخ قاسم الأحمد، الذي قام خلال موسم الحج، بالاتفاق مع شيوخ المنطقة على إعلان التمرد على إبراهيم باشا، ورفض دعمه وتقديم الجنود له، وخلال اجتماع في بيت وزن حضرة الشيخ عبد الله الجرار، والشيخ ناصر المنصور من جالود، والشيخ إسماعيل ابن سمحان، وشيوخ كل من برقة ودير غسانة أعلن العصيان على إبراهيم باشا، ورفض دفع الضرائب له، لأكثر من عام احتجاجاً على تقليص دورهم لصالح حسين بيك عبد الهادي. ونتيجة لذلك أعلن إبراهيم باشا الحرب ضدهم وأسماهم "بالأشقياء".

قام إبراهيم باشا عام ١٨٣٤ بتهديد "الأشقياء" وكل من يقدم المساندة إليهم. وقد نجح كل من أحمد آغا النمر، وحسين عبد الهادي خاصة، بالعمل على تحييد الكثير من شيوخ نواحي نابلس، مما نتج عنه محاصرة وأضعاف أنصار ثورة الفلاحين قاسم الأحمد، وعبد الله الجرار، مما اضطرهم إلى محاربة إبراهيم باشا في جبل القدس، الذي كان الشيخ قاسم الأحمد متسلماً له. ولكن عندما هزموا في منطقة القدس، في ما يسمى بموقعة قرية الدير، انسحب جزء منهم إلى جبل نابلس حيث تابعت جيوش إبراهيم باشا محاربتهم قدمرت قلعة صانور وقتلت شيخها عبد الله الجرار. مما اضطر الشيخ قاسم الأحمد، وولديه الشيخ يوسف والشيخ محمود، إلى الهروب إلى الخليل، ومن ثم اللجوء إلى أعوانهم آل العدوان وبني عنزة شرق نهر الأردن. لحقت جيوش إبراهيم باشا بهم، لتحاصرهم في مدينة الكرك، حيث تم تدمير الكرك، والقرى والمناطق المحيطة بها عن بكرة أبيها. وتم سجن وقتل الشيخ قاسم الأحمد وأبنائه في دمشق، وبذلك أخمدت ثورة شيوخ الفلاحين، وتم إخضاعهم من قبل إبراهيم باشا.

ونتيجة لهذه التحالفات، قام إبراهيم باشا بإعادة توزيع مناطق نفوذ شيوخ النواحي، فقام بمكافأة أبو غوش وعين الشيخ جبر أبو غوش حاكماً. للواء القدس (١٨٣٥-١٨٣٤) رغم أنه لم تجرِ العادة بتعيين مشايخ الريف حكاماً على القدس، فضمت مناطق جماعين الشرقية التابعة لآل جرار، إلى مناطق جماعين الغربية تحت إمرة آل الريان، ونصب شيوخ آل سحويل، من عبوين ملتزمين لناحية بني زيد بدلاً من شيوخ براغثة دير غسانة. وضمت مناطق نفوذ آل سمحان في راس ابن سمحان، إلى مناطق نفوذ أبو غوش. وكذلك الحال بالنسبة لناحية بني مرة، حيث قسمت إلى ناحيتين، وعين شيخ جديد من عائلة مبارك من سلواد، وهكذا. إلى أن انتهت فترة حكم إبراهيم باشا وخروجه من فلسطين عام ١٨٤٠ نتيجة لمحاربة السلطان العثماني، عبد المجيد، لإبراهيم باشا والمشروع التوسعي لوالده محمد علي الكبير بدعم وإيعاز من الدول الأوروبية.

الضربة الأخيرة لشيوخ النواحي من قبل الحكومة العثمانية المركزية (١٨٥٠-١٩٠٠)

قامت الحكومة العثمانية بكسب كل من فرنسا وبريطانيا، الداعمين الأساسيين لمحمد علي الكبير وإبراهيم باشا، وذلك بإعطائهم امتيازات خاصة نتج عنها مساعدة الإنجليز العثمانيين بطرد إبراهيم باشا من فلسطين. وبذلك بدأت مرحلة جديدة اتصفت بمركزية الحكومة العثمانية، حيث اتبعت معظم مناطق فلسطين مباشرة إلى استنابول. وقد عملت الحكومة العثمانية على إصدار مجموعة

من التنظيمات والإصلاحات التي كان هدفها، تركيز السلطة بأعيان المدن ومن ثم ضرب النفوذ المتبقي لشيوخ نواحي جبل نابلس والقدس والخليل، ومن أهم هذه الإصلاحات نقل مركز القوة من نابلس إلى القدس، حيث أعلنت الحكومة العثمانية عام ١٨٧٤ القدس سنجقاً، تتبع له كل من نابلس والخليل ويافا، وفيما بعد غزة وبئر السبع، وبذلك أصبح سنجق القدس، المستقل عن والي دمشق، يتصل مباشرة مع استنابول، وعاصمة حقيقية لفلسطين.

قامت الحكومة العثمانية بتوجيه الضربات القاضية لكل ما تبقى من نفوذ شيوخ النواحي، ووجهت سهامها إلى سائر العائلات الشبه إقطاعية كآل جرار وعبد الهادي. ففي ربيع عام ١٨٥٨، دمرت جيوش الحكومة العثمانية قرية عرابة وهدمت أجزاء كبيرة منها، وكررت ذلك مع آل جرار، أمراء ريف فلسطين، وغيرهم، حيث طوت وإلى الأبد تاريخ قرنين من نفوذ وصلاحيات وامتيازات شيوخ ريف فلسطين. وبقيت قصورهم وقلاعهم شاهداً ليومنا على هذا التاريخ المثير.

أوراق فلسطينية

في الذكرى العاشرة لرحيل الزعيم

فتح في سنواتها الأولى

يحيى يخلف

عشر سنوات تمر على رحيل الزعيم ياسر عرفات،سنوات صعبة طال فيها أمد عذابات الشعب الفلسطيني، وتواصل بها العدوان الإسرائيلي بأشكاله كافة، وتراجعت خلاله احتمالات السلام العادل، ورغم حرب شارون ومحاصرته للمقاطعة في عملية السور الواقي مستهدفا الزعيم والقائد والرمز ياسر عرفات فإنّ هذاالاجتياح العسكري لم يتحول الى هزيمة سياسية، وانما وطّد ثقافة الصمود والمقاومة الشعبية، وعزّز حركة المقاطعة الاقتصادية والأكاديمية لإسرائيل ومستوطناتها، بل وبلور تحركا سياسيا وقانونيا مثّل معركة دبلوماسية ميدانها الأمم المتحدة وهيئاتها ومنظماتها،حققت مكاسب هامة تمثلت بالاعتراف بعضوية فلسطين كدولة بصفة مراقب،والتقدم لمجلس الأمن بتحديد جدول زمني لجلاء الاحتلال،وكذلك الانضمام إلى منظمات وهيئات تابعة للأمم المتحدة أبرزها الحصول على العضوية الكاملة في منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)، والانضمام إلى محكمة الجنايات الدولية.

صمود كان امتدادا لمسيرة ملايين الأميال التي قطعها الكفاح الفلسطيني في مسيرة طويلة الأمد(حرب التحرير الشعبية) منذ انطلاقة حركة فتح والثورة الفلسطينيةالعام١٩٦٥ ،وامتدادا لانخراط الشعب بأكمله في النضال بالوسائل المتاحة منذ اندلاع الانتفاضة في العام ١٩٨٧ ،ونجاحات استندت إلى إنجازات حققتها منظمة التحرير بقيادة ياسرعرفات في مراحل سابقة عندما اعترف

العالم بها كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني، واعتراف الأمم المتحدة بها بصفة مراقب، وذهاب ياسرعرفات إلى الأمم المتحدة وإلقاء خطابه الشهير حين رفع غصن الزيتون بيده، وأطلق صرخته أمام المجتمع الدولي قائلا: لا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي،فضلا عن إنجازات عديدة في إطار حضور ومشاركات في لقاءات ومؤتمرات وهيئات عربية وإسلامية وإفريقية وأميركية لاتينية ، ومجموعة دول عدم الانحياز والاشتراكية الدولية،انجازات كرست الاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني غير القابلة للتصرف،حقه في دولة مستقلة على حدود الرابع من حزيران، وحقه في تقرير المصير، وحق اللاجئين في العودة.،ووضعت قضية فلسطين في صدارة المشهد الدولي.

وعلى الرغم من انتهاء صلاحية اتفاقيات المبادىءالتي عرفت باتفاقيات أوسلو، فقد اعتبرت مؤسسات منظمة التحرير أنّ تأسيس وقيام السلطة الوطنية الفلسطينية انجاز على طريق قيام الدولة.

غاب الزعيم عرفات،لكن إرثه الكفاحي والتاريخي لم يغب، ولم تغب عن الذاكرة الجمعية مكانته وهيبته وسجاياه ودوره في نقل القضية الفلسطينية من قضية لاجئين الى قضية شعب له حقوق مشروعة يناضل من أجل نيلها ويصنّف كشعب يكافح من أجل الحرية،وتصنّف حركته الوطنية في مقدمة حركات التحرر الوطني في العالم.

خرج هذا الزعيم من صفوف الفقراء والبسطاء ،خرج من جرح النكبة والكارثة عندما تم الاقتلاع والنفي والتهجير، وتوزعت غالبية عظمى من أبناء الشعب الفلسطيني على المنافي والمهاجر،وأُلحقت الضفة الغربية كوديعة تحت حكم المملكة الأردنية الهاشمية، فيما ألحق قطاع غزة تحت الإدارة العسكرية المصرية، وهكذا فقدت الهوية تماسكها،ولم يعد لها من مرجعية سوى مؤسسة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين(الأونروا).

لم تعد هناك مرجعيات سياسية فلسطينية تعيد للهوية الوطنية تماسكها،لم تعد هناك حركة وطنية تعيد الاعتبار للشخصية الوطنية الفلسطينية،ولم يعد هناك من سبيل أمام الشباب الفلسطيني سوى الانخراط في أحزاب قومية ترفع شعارات الوحدة العربية،أو أحزاب إسلامية دعوية تسعى لإعادة الخلافة ،أو احزاب يسارية أممية تعنى بقضايا العمال وتسعى لنشر الاشتراكية.

كانت القضية الفلسطينية في برامج هذه الأحزاب مؤجلّة الى حين تحقق الوحدة العربية أو تحقق قيام الخلافة،أو الى حين انتصار الاشتراكية.

في هذا الواقع الذي غابت فيه مرجعية سياسية فلسطينية، وعاش فيه الشعب الفلسطيني في مخيمات وتجمعات معزولا عن بعضه البعض، وعاش في مساحة النفي والإلحاق بدأت تظهر في تلك التجمعات كوكبة من الشباب الطليعي تنادي باعادة تأسيس حركة وطنية تعيد الاعتبار للهوية الفلسطينية وتأخذ زمام المبادرة لتمثيل شعبها ومعالجة قضيته والبحث عن عناصر القوة فيه من أجل تحرير وطنه.

لم تكن الفرصة متاحة ، ولم تكن الطريق ممهدة، بل إن كل الطرق كانت مغلقة، وكان يتعيّن على النخب الطليعية أن تشق طريقا بنفسها،كانت هذه النويّات تتواجد في غزّة، سورية ،لبنان ،الأردن ،مصر،الكويت ،قطر،السعودية،وفي دول اوروبية مثل ألمانيا والنمسا وفي أوساط الطلبة والعمال في بعض دول أوروبا، ولم يكن هناك تواصل بينها بسبب الشروط الأمنية المسلطة على الفلسطينيين، والتي اضطرت هذه المجموعات الى انتهاج السرية في العمل مما حد من قدرتها على الحشد والتنظيم.

كانت تلك مرحلة إرهاصات امتدت منذ النكبة حتى أواخر خمسينات القرن العشرين، واتيح للنخبة أو للمجموعة التي قادها ياسر عرفات عبر أمكنة ومواقع وظروف مختلفة أن تعلّق الجرس، وأن تحوّل الأحلام المستحيلة إلى حقيقة، بل إلى ثورة أطلق عليها في وقت من الأوقات ثورة المستحيل.

* * *

عندما حدثت النكبة عام ١٩٤٨كان ياسر عرفات ما زال فتى يتلقى دراسته في مصر، ولم يمنعه صغر سنه من الانخراط في العمل الوطني،حيث تؤكد المصادر التحاقه للعمل في جمع الاسلحة للثوار الفلسطينيين أثناء حرب ١٩٤٧، والتحاقه ايضا الى جانب الفدائيين الذين واجهوا الانجليز على ضفاف قناة السويس، لكن شخصيته المبادرة برزت حين أعاد تأسيس رابطة الطلبة الفلسطينيين في دولة مصر، ونجح هو ونخبة من رفاقه المستقلين في الانتخابات وصار رئيسا لها وكان معه طلبة آخرون أصبحوا فيما بعد من القادة التاريخيين المؤسسين لحركة فتح والثورة الفلسطينية، منهم صلاح خلف (أبو اياد)، وفاروق القدومي (أبو اللطف) وسليم الزعنون (أبو الأديب).

وفي تسجيل موثق صوتا وصورة أجريته مع السيد سليم الزعنون، أدلى بشهادة عن تلك الفترة

قائلا:(عام١٩٥٢ ذهبت ضمن دفعة من الطلاب للدراسة في مصر، ومن الطريف أنّ والد زميلي ماجد المزيني الذي ذهب معي وكان تاجرا ومن المجاهدين القدامى الذين كانوا يذهبون الى مصر لجمع السلاح للمقاومين الفلسطينيين قال لابنه ماجد: أنتم لا تعرفون القاهرة ولا تعرفون كيف تتدبرون أمركم، خذوا هذا الكتاب مني الى شاب اسمه ياسر عرفات، هذا الشاب كان يرافقنا سنة ١٩٤٧ الى الصعيد والصحراء الغربية من أجل شراء السلاح، وكان أصغرنا سنّا لكنه يمتلك قدرات مميزة لا يمتلكها أحد. وصلنا القاهرة وسكنّا واتصلنا بياسر عرفات الذي سارع الى زيارتنا عارضا مساعدته لنا، وسألني: كم عدد الطلاب الذين جاءوا معك؟ أجبته٥٤ طالبا.

قال: اذن كسبنا ٥٤ صوتا، أنا الآن في معركة مع بعض الحزبيين الذين استولوا على رابطة الطلاب الفلسطينيين والانتخابات بعد شهر من الآن، وأنا مصر على أن تعمل الرابطة من أجل فلسطين لا من أجل الأحزاب.

قلت له: اذا كان الأمر كذلك فإني أعرف طالبا يدرس في الأزهر الشريف وهو شخصيّة جذابة اسمه صلاح خلف.

وذهبنا الى الأزهر، وهناك قابل صلاح خلف لأول مرة وتعرف عليه، ثمّ سأله: كم لديك من الطلاب في الأزهر؟

أجابه صلاح خلف: ١٥٠طالبا، فردعليه: يجب ان نضمن ١٥٠ صوتا. فقال صلاح خلف: لكن يا ابوعمار هؤلاء الطلاب عميان. فأجابه: العميان أهم من المبصرين لأني سأحضر لهم من يرافقهم الى الانتخابات وبذلك نضمنهم)

ويضيف السيد سليم الزعنون في شهادته الموثّقة:(خضنا معركة الرابطة، ونجح ياسر عرفات كرئيس للرابطة،وانا السكرتير العام بعده،ونجح في الهيئة الإدارية أيضا صلاح خلف،وعبد الفتاح حمود،وزهير العلمي، وكان هذا أول تجمّع يقوم على فكرة الوطنية الفلسطينية لا الحزبية، واستطاعت الرابطة أن تحل محل حكومة عموم فلسطين التي كانت تتلاشى بالتدريج واصبحت في حالة شلل، ولكننا للأمانة لم نتنكر لمن قبلنا وكانت تلك نظرة ياسر عرفات إذ قال لنا فور انتهاء الانتخابات: يجب أن نذهب لزيارة الحاج أمين الحسيني ونقول له: إنّ مكانتك لا تزال موجودة ونحن أبناؤك الصغار)

ويحدثنا السيد سليم الزعنون عن ممارسات طريفة لياسر عرفات في قيادته للرابطة تكشف لنا النزعة المبكرة للزعامة في شخصيته، فقد كان يأخذ لوحده ثلاثة أرباع جدول الأعمال ، ويترك الربع الباقي لبقية أعضاء الهيئة الادارية.

ومن ذلك أيضا أنه طبع بطاقة وكتب عليها صفته كرئيس لرابطة طلبة فلسطين، فاعترض على ذلك سليم الزعنون في أحد الاجتماعات، وقال له: هذا حب للظهور، فغضب عرفات، وكان المطروح على جدول الأعمال قضية الرسوم الإضافية المفروضة على الطلبة الفلسطينيين، والتي كان عرفات يغطيها عن طريق الحصول على مساعدات من الجامعة العربية. وقبل انتهاء الجلسة انسحب من الجلسة، وقال لهم: اذهبوا أنتم الى الجامعة العربية، واعتبروني في إجازة.

قرّر سليم الزعنون الذهاب، مع بعض الطلبة الى الجامعة العربية، وعند الباب أوقفهم الشرطي، قال له الزعنون: أنا فلان السكرتير العام لرابطة طلبة فلسطين.

قال له الشرطي: نحن لا نعرف غير ياسر عرفات، فلم يستطيعوا الدخول وعادوا من حيث أتوا.

وعرفوا في ما بعد، ان عرفات الذي يسكن في مصر الجديدة، يركب الترام الى وسط البلد لأنه لا يملك أجرة التاكسي، وعندما يصبح على بعد كيلومترين يركب التاكسي ويطلب من السائق أن ينزله أمام باب الجامعة العربية حيث يراه شرطي الحراسة، وينزل حاملا البطاقة، وينقد الشرطي خمسة قروش فيدخل معززا مكرما.

ويسرد لنا قصة أخرى طريفة حول البطاقة أو الكرت إذ يقول)حين أردنا أن نستأجر مقرا للرابطة ذهبت الى وكيل الشقة التي نريد أن نستأجرها وهو طبيب مشهور، فرفض وقال: أنتم طلاب وستخربون المصعد. عدنا خائبين، ولما عرف ياسر عرفات قال: تعالوا معي.

عدنا الى عيادة الطبيب، فأخرج أبو عمار كرتا من جيبه، وارسله مع الممرضة فاذا بالطبيب يأتينا مندفعا ويهجم على ياسر عرفات ويقبّله ويشير اليه بالدخول، ودخلنا بمعيته، وقال الطبيب : طلبكم مقبول، ووقع العقد بسهولة، وقبل أن نخرج قال له الطبيب: أخ ياسر يبدو انك نسيت فأعطيتني هذا الكرت بدلا من كرتك، وتبين لنا أنه تعمّد ذلك واعطاه كرت يعود للسيد زكريا محي الدين عضو مجلس قيادة الثورة المصرية، وبالطبع أهتم الطبيب لهذا السبب، فاعتذر عرفات وأعطاه كرتاً آخر)

واعتبر سليم الزعنون كل ذلك دلالة على عبقرية وحضور بديهة طبعت أساليب عرفات في شق الطرق المغلقة.

* * *

كانت تجربة رابطة الطلاب الوعاء الذي نضجت فيه فكرة الوطنية الفلسطينية، وكانت العنصر الممهد لالتقاء التجمعات والتيارات الاستقلالية، أو الشخصيات الحزبية التي اقتنعت بفكرة التحرر الوطني والتحقت بالركب حاملة معها أفكارها التي اتسمت بالتنوع وتفاعلت مع بعضها البعض، وانصهرت في برنامج الحد الأدنى، وتم ذلك كله في سيرورة كفاحية للفكر الوطني.

لعلّ أولى المحاولات التي مثلت الارهاصات الأولى لفكرة التحرر الوطني بوسيلة الكفاح المسلح هي تلك التي ظهرت في قطاع غزة، والتي كان المبادر لخوضها الشاب خليل الوزير الذي كان آنذاك ما زال طالبا في المرحلة الثانوية، وبالتحديد في العام ١٩٥٤،في تلك الفترة كان الشباب الفلسطيني ينخرط في الأحزاب التي تنشط في قطاع غزة، ابتداء من حركة الإخوان المسلمين وانتهاء بالحزب الشيوعي، وكان خليل الوزير منخرطا في ذلك الحين في صفوف التنظيم الإخواني، وقد أتيح له أن يشارك في دورة عسكرية تدريبية عقدتها حركة الإخوان لشبيبتها في مدينة العريش المصرية، ولقد أيقظت تلك الدورة عنصر القوة في عقل ذلك الشاب، وبلور فكرة مع عدد من رفاقه على شكل مشروع عمل فدائي يقوم بعمليات فدائية على تخوم وعمق قطاع غزة، وعرض المشروع على قيادة الإخوان ،لكنهم رفضوه، فقرر الاستقالة من هذا التنظيم، وشرع في العمل وكان على صلة مع الشباب الوطني في القطاع ومن بينهم كمال عدوان وسعيد المزيّن وأحمد وافي وأبو الأديب ومحمد الإفرنجي وغيرهم ، لكنّه بدأ العمل مع عدد من رفاقه المقرّبين في أضيق الحدود ضمانا للسرية، ومنهم حمد العايدي، ومحمد الإفرنجي، وبالإمكانيات البسيطة والبدائية صنعوا العبوات وتسللوا الى المستوطنات الاسرائيلية والمواقع والطرق العسكرية المتاخمة للقطاع وزرعوا تلك العبوات، وحققوا بعض النجاحات، لكن التجربة لم تطل، فعلى ضوء ردود الفعل الاسرائيلية، وقصف المدفعية الاسرائيلية لمواقع الجيش المصري، عملت السلطات العسكرية المصرية على ملاحقتهم، وفي شهادة موثّقة سجّلتها مع السيدة انتصار الوزير(ام جهاد) عن تلك التجربة قالت (لم تتوقف المجموعة عن التسلل والقيام بعمليات داخل اسرائيل، وفي احدى المرات ذهب أبو جهاد مع إحدى المجموعات ولم يتمكنوا من الدخول، ولم يستطيعوا زرع العبوة، ولم يشأ أبو جهاد إعادتها الى غزة، فقام بحفر

حفرة في التراب ودفن العبوة فيها، ثم دفن الصاعق في حفرة أخرى قريبة.

بالصدفة مرّ بالمكان مجموعة حرس الحدود من الهجانه المصرية التي تركب الجمال، فاصطدم الجمل بالحفرة، وبحث الهجانة عن سبب تعثر الجمل ووجدوا العبوة ووجدوا الصاعق أيضا. في السراي فككوا العبوة وعرفوا انها صناعة محلية. وهي عبارة عن قطعة حديد تحمل ضاغطا على المتفجرات..حملوا قطعة الحديد وطافوا بها على الحدادين، كانوا يسألون كل واحد منهم: هل تعرف أن تصنع قطعة مثل هذه فيجيبهم نعم، ثم يسألونه: هل أتى أحد وطلب منك عمل مثلها، فيجيبهم :لا.. المهم وصلوا الى حداد في حي الزيتون فقال: عملت مثلها لشاب لا أعرف اسمه واعطى أوصافه. كان ابن الحداد جالسا يستمع فقال لهم: أنا أعرف اسمه، إنّه خليل الوزير وهو طالب في مدرسة فلسطين الثانوية).

وتم القبض على الطالب خليل الوزير واحتجازه، ثمّ إبعاده من غزة الى الاسكندرية بعد تدخل من وجهاء غزة حيث أكمل دراسته والتحق بالجامعة تخصص صحافة وإعلام.

لابد من ذكر هذه المحاولة،لأن الفكرة ظلت مزروعة في عقل خليل الوزير الذي سيلعب في ما بعد دورا طليعيا في تأسيس حركة فتح وتأسيس الكفاح المسلح الفلسطيني.

ولعله من حسن الطالع أن يلتقي خليل الوزير وياسر عرفات في العام ١٩٥٦ في رحلة قطار من القاهرة الى قطاع غزة بعد انسحاب القوات الاسرائيلية منه بعد احتلاله في حرب ١٩٥٦.

ترافقا في الرحلة وفي جولة واسعة على مدن ومخيمات القطاع، وانعقدت أواصر صداقة اثمرت فيما بعد صنع تاريخ، وشقّ دروب للحرية.

وفي عام ١٩٥٧انفتح باب العمل في دول الخليج أمام الشباب الفلسطيني الذي تخرج من الجامعات وتعثر في الحصول على وظائف، والتحق في مختلف دول الخليح آلاف المعلمين والمهندسين والأطباء، وخصوصا في الكويت والسعودية وقطر، ولم يثن رغد العيش المجموعات الطليعية منهم عن مواصلة العمل بسرية في الحشد والتنظيم، فكانت هناك عشرات التجمعات تنشط وتشكل الحلقات تحت عناوين وتسميات مختلفة، ووسط هذا المناخ التقى العبقريان ياسر عرفات وخليل الوزير في الكويت، وكان هذا اللقاء لحظة ينتظرها تاريخ ، فشكّلا الخلية الأولى لفكرة التحرر والتحرير، وكان كل منهما يحمل الأفكار نفسها، ويتطلع الى وضعها موضع التطبيق.

كانا يبحثان عن وعاء واطار لتلك الأفكار يحوّل النظري الى العملي، وكانا مفتونين بتجربة الثورة الجزائرية التي كانت في أواخر الخمسينات من القرن الماضي تحقق الانتصارات، وتسطر ملاحم كفاحية، ومن تجربة جبهة التحرير الوطني الجزائري استلهما الفكرة.

في العام ١٩٥٨أسّسا مجلة (فلسطيننا) وأصدراها من بيروت بمساعدة السيد توفيق حوري، لتبشر بفكرة التعبئة والحشد والتنظيم، ولتعبّر عن أفكار التنظيم الذي يسعيان الى تأسيسه.

التقاء هدوء وحكمة وخبرة خليل الوزير مع دينامية ياسر عرفات وانتقاله الى الميدان كان بمثابة المدماك الأول للتجربة، والانتقال من عقد اللقاءات والنقاش في غرف مغلقة الى تعليق الجرس والبدء في العمل.

تحرك الرجلان في دول الطوق، زارا الأردن وسوريا ولبنان للبحث عن أفق لمستقبل حركة التحرر التي يتطلعون الى اطلاقها.

أسفرت هذه اللقاءات عن تأسيس نويات وأنصار في الضفة الغربية وغزة وفي مخيمات لبنان وسورية، واستكشاف الامكانيات للانتقال من الكويت إلى ميادين المواجهة المؤدية إلى فلسطين .

وتشاء الصدف أن يتعرف ياسر عرفات عام ١٩٥٨ في دمشق على شخص يعمل في الكويت ويقضي اجازة في سورية انضم الى الفكرة ولعب في وقت لاحق دورا هاما في مرحلة التأسيس لحركة فتح هذا الشخص هو الناشط السياسي والمثقف الكبيرعادل عبد الكريم الذي كان يعمل في الكويت ويمضي عطلته الصيفية في دمشق.

وفي لقاء وثقت فيه حديثا للسيد عادل عبد الكريم، الذي شغل موقع عضوية اللجنة المركزية لحركة فتح، من مرحلة التأسيس حتى عام ١٩٦٦، حيث انسحب من الحركة إثر خلاف مع الزعيم عرفات.

في هذا اللقاء الذي تمّ في عمان عام٢٠١١ وحضره معي السيد مروان عبد الحميد من القيادات البارزة في حركة فتح ، روى السيد عادل عبد الكريم عن مرحلة البدايات قائلا:(في أواخر شهر تشرين أول/ اكتوبر أو أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩٥٨ جاءني ياسر عرفات الى بيتي في الكويت، وكان ذلك هو اللقاء الثاني معه، ولا أدري كيف عرف عنوان بيتي، وقال لي فيما قال: يجب أن نعمل ثورة مثل الثورة الجزائرية. أعجبتني الفكرة وتناقشنا طويلا في الموضوع، وفي نهاية

الزيارة اتفقنا على تشكيل مجموعة لبدء العمل، وخلصنا الى عقد اجتماع قريب يحضره اثنان من طرفه واثنان من طرفي، ثمّ نختار اثنين من دمشق.

وفي اللقاء الأول حضر مع ياسر عرفات كل من خليل الوزير، ويوسف عميرة، وأنا أحضرت معي كل من عمر حسني عمر، ومحمود حنّونه.

بدا نقاش فكرة الثورة الفلسطينية وكيف نؤسسها، وبعد نقاش طويل اتفقنا على استمرار الاجتماعات التحضيرية، وصرنا نلتقي مرة كل اسبوعين في بيت عمر حسني عمر الكائن في حي الفحاحيل بالكويت. واتفقنا على اختيار اثنين من دمشق هما عبد الله الدنّان وعبدالكريم عبد الرحيم.

خلال الاجتماعات التحضيرية انسحب محمود حنّونة لأنه كان عضوا في حزب البعث، وقال إنّه كعضو ملتزم يتعيّن عليه أن يبلغ حزبه، ولأنّه من الناحية الأخلاقية لا يريد أن يخدعنا فإنه يقدم استقالته، ولا مانع لديه من أن يكون نصيرا.

استقال حنّونه، فأتينا بصديق لنا اسمه توفيق شديد الذي بقي معنا حتى شهر أيار/مايو ١٩٥٩حيث قدّم استقالته أيضا، ولم نكن حتى ذلك التاريخ قد اتخذنا إسما للتنظيم الذي يريد أن يطلق ثورة مسلحة)

سنلاحظ في شهادة السيد عادل عبد الكريم أن اسماء كثيرة شاركت في نقاشات المرحلة التحضيرية وعبرت دون أن تترك أثرا، وأن ياسر عرفات وخليل الوزير وعادل عبد الكريم كانوا العقل الذي أنضج الفكرة.

وعن قرار التأسيس قال السيد عادل عبد الكريم في شهادته: (في الأسبوع الأخير من شهر مايو أيار من عام ١٩٥٩ اجتمعنا اجتماعا حاسما،وقررنا أن نجد إسما لتنظيمنا الجديد، وأن نكتب بيانا نعلن فيه أفكارنا. كنّا جميعا مفتونين بالثورة الجزائرية، لذلك استلهمنا اسم تنظيمنا من اسم :جبهة التحرير الوطني الجزائري، قلنا نسمي تنظيمنا : جبهة التحرير الوطني الفلسطيني،لكننا في النقاش قلنا أن كلمة جبهة لا تنطبق علينا لأنّ الجبهة هي ائتلاف بين مجموعة من المنظمات، وهكذا استبدلنا كلمة جبهة بكلمة حركة، فصار اسم تنظيمنا: حركة التحرير الوطني الفلسطيني،ثم اكتشفنا اسمنا المختصر حين عكسنا الحروف الأولى من الجملة، فأصبحت فتح، واستبشرنا خيرا

بالأسم المختصر حيث ورد في القرآن الكريم آية:إذا جاء نصر الله والفتح)

* * *

في ذلك الاجتماع أطلقت المجموعة على إطارها اسم اللجنة المركزية، ثم تناقشت في فحوى البيان الذي يعلن عن تأسيس الحركة وإشهار التنظيم، وبعد نقاش حول الخطوط العريضة ، كلّف عادل عبد الكريم بصياغته،وفي الأسبوع الأول من حزيران/ يونيو من عام ١٩٥٩تم انجاز كتابة (بيان حركتنا) كأول وثيقة تصدرها الحركة وتعلن فيه عن نفسها. وكلّف خليل الوزير بطباعة البيان وتوزيعه في كل الساحات، وظلت الحركة تعمل في نطاق السريّة التامة، وبعد التأسيس استمر العمل السياسي والتنظيمي، ودخل الحركة شخصيات ذات قامات عالية في النضال تمتلك تاريخا متصلاً مع تاريخ ياسر عرفات في الرابطة وفي مقدمتهم صلاح خلف وفاروق القدومي وسليم الزعنون وشخصية قيادية كانت تعمل في إطار حزب التحرير الإسلامي ثم انسحبت منه، هذه الشخصية هي القائد والمفكر خالد الحسن، وكان ذلك ينسجم مع ما جاء في وثائق التأسيس ومفاده أن الوحدة الوطنية بديل عن الحزبية، فالحركة اتسعت لكل التيارات من قومية واسلامية ويسارية، وكان الشرط هو الانسحاب من الحزب والانتماء الى الحركة، ففكر فتح كما كان يؤكد ياسر عرفات يغتني ويتطور من خلال الممارسة. لم تتبن فتح أيدولوجية معينة،بل فتحت أبوابها على مصراعيها لكل من يؤمن بالكفاح المسلح كطريق وحيد لتحرير فلسطين بغض النظر عن خلفيته الايدولوجية، واستقطب شعار التحرير عن طريق الحرب الشعبية طويلة الأمد في وقت لاحق ألوفاً مؤلفة من الشباب المستقل ومن الشخصيات التي جرّبت الأحزاب، وأصبحت فتح بعد معركة الكرامة عام ١٩٦٨ التي سنتحدث عنها لاحقا، أصبحت فعلا لا قولا العمود الفقري للثورة الفسطينية.

في عام ١٩٦٠ قررت اللجنة المركزية تنشيط الساحة السورية التي ستصبح في وقت لاحق مركزا أساسيا للتدريب والإعداد والتحضير للانطلاقة، وقررت تشكيل لجنة تنظيم(لجنة إقليم) فاختارت لعضويتها كل من: محمود الخالدي، حسام الخطيب، حسن عبّاس وسليم زيد، والتحق فيها ايضا في ما بعد منير سويد.

ومنذ عام ١٩٦٠ اكتمل عقد اللجنة المركزية بدخول القيادات التي عرفت في الحركة بالقيادات التاريخية فبالاضافة للاسماء التي ذكرناها انضمت كثير من المجموعات التي كانت تنتشر هنا وهناك، ومن المجموعات السبّاقة للانضمام كانت مجموعة قطر التي مثلها السيدان: محمود عباس،

وأبو يوسف النجّار. وفي شهادة موثقة، ومنشورة في كتاب (صفحات مشرقة من تاريخ الثورة عن تجربة السيد الرئيس محمود عباس في مراحل ومحطات عديدة وثّقتها صوتا وصورة وأصدرتها في كتاب) يقول حول انضمامهم للحركة: (كان في الكويت عشرات التنظيمات، كل اثنين أو ثلاثة كانوا يشكلون تنظيما يعلن عنه عبر اصدار بيان، فتصبح المجموعة تنظيما. عام ١٩٦٠ قررنا الاتصال بالكويت، وبدأت أنا وأبويوسف النجار نذهب الى الكويت كل يوم خميس بعد الظهر والعودة صباح السبت.. نذهب ونلتقي بالشباب، ووجدنا في تنظيم فتح ما يمكننا أن نتحدث معه، وتبين لنا أنّ في التنظيم أصدقاء نعرفهم: من الشام عبد الله الدنان وعادل عبد الكريم، ومنير سويد، ثم هناك خليل الوزير أبو جهاد، وأبو عمّار، وأبو إياد، ثمّ الأخ أبو الأديب وكان من البارزين في الحركة، وكنت قد تعرّفت على أبو اياد قبل عام، ومن أول تعارفنا أصبحنا صديقين، فلما قيل لي أنه في تنظيم فتح قلت هذا التنظيم سنكون فيه، واتحدنا بالحركة مباشرة).

كانت هذه المجموعة امتدادا للمجموعة التي أسّسها محمود عباس عام ٥٥/٥٤وكان هدفها التدريب العسكري للشباب الفلسطيني انطلاقا من رؤيه تقول اذا كانت الجيوش العربية تعلن أنها ستخوض معركة لتحرير فلسطين فمن الأولى أن يكون الشباب الفلسطيني في المقدمة، لذلك طالبوا بتطبيق التجنيد الإجباري عليهم، والسماح لهم بدخول الكليات العسكرية السورية. وعمل أعضاء المجموعة على الاتصال بالطبقة السياسة السورية لتحقيق هذا الشعار.

في عام ١٩٥٦ سمحت الحكومة السورية للفلسطينيين بدخول الكليات العسكرية: الحربية، الطيران، والبحرية، ورأت المجموعة أنه قد آن الأوان للإلتحاق طالما تحقق الهدف، وقررت قيادة المجموعة أن تبدأ بنفسها، وأن تتقدم إلى التجنيد. وفي شهادة موثقة مع الرئيس محمود عباس عن أحداث تلك المرحلة قال):كنا ثلاثة تقدمنا بطلبات للإلتحاق بالكليات العسكرية: أنا ومحمود المغربي – فلسطيني من أصول ليبية، صار في ما بعد رئيس وزراء ليبيا- ومحمد السهلي، قدمنا امتحانات شفوية ونظرية، أنا نجحت في العسكرية لأن العسكرية لا تشترط عشرة على عشرة في فحص النظر، وأنا في فحص النظر حصلت على ثمانية من عشرة، ومحمود المغربي لم ينجح في الفحص الطبي فعاد الى الجامعة أما محمد السهلي فقد نجح والتحق بالطيران. ذهبت إلى الكلية العسكرية.. قاموا بحلق شعرنا، وبدأنا التدريبات وأعطوا كلاً منا بندقية، وكانوا ينادوننا: يا جندي، يا مستجد، بعد مرور أسبوعين استدعونا للفحص الطبي مرة أخرى، وكنت من بين الذين لم ينجحوا في هذا الفحص الطبي

الثاني.. وضعونا في سيارة وقالوا لنا مع السلامه. عدت لعملي في التعليم صباحا، وللدراسة المسائية في الجامعة، ولكننا كمجموعة بقينا نعمل على مشروع التدريب والتسليح حتى نهاية عام ١٩٥٧.

في نهاية عام ٥٧ جاءنا عقد عمل في قطر أنا ومحمود المغربي، كما أنّ بقية الأخوة انفتح أمامهم باب العمل في مختلف دول الخليج، هدفنا في سورية قد تحقق، وفتحت أبواب التجنيد الإلزامي، وأصبح هناك آلاف الشباب الذين تدربوا، ونتج عن ذلك تشكيل لواء حطين حين تأسس جيش التحرير، ذهبنا الى الخليج وحملنا معنا فكرتنا).

أصبحت فتح المغناطيس الجاذب لمجموعات أخرى، ومنها مجموعة غزة ، مجموعة السعودية، مجموعة الأردن، مجموعة ألمانيا، وشخصيات وطنية في سورية ولبنان، وهذا ما ضخ قيادات جديدة مثل كمال العدوان، عبد الفتاح الحمود، هايل عبد الحميد، هاني الحسن، أبو ماهر غنيم، محمد الإفرنجي، حمدان عاشور وآخرين. وكان للسيد هايل عبد الحميد مجموعة أطلقت على نفسها اسم (عرب فلسطين) تأسست في دمشق في منتصف الخمسينات ولعبت دورا هاما قبل أن ينتقل الى ألمانيا للعمل والدراسة، وسنتحدث عنها بالتفصيل في مكان آخر.

وما أن أطل العام ١٩٦٣ حتى أصبح للحركة بنية متينة، إذ أصبح لها لجنة مركزية موسّعة، وتم إنجاز وثيقة (هيكل البناء الثوري) وبدأ الاستعداد لاستكمال أطرها القيادية كالمجلس الثوري وتأسيس لجان الأقاليم، ومواصلة الحشد والتنظيم، والتطلع إلى تأسيس القواعد الارتكازية.

في ذلك العام حدثت تطورات هامة مثّلت نقلة نوعية في مسيرتها،أولها انتقال ياسرعرفات الى الميدان في سورية ولبنان والأردن للتحضير لانطلاقة الكفاح المسلح، وثانيها ذهاب خليل الوزير الى الجزائر وربط الصلة ما بين الثورة الفلسطينية والثورة الجزائرية التي كانت قد أنجزت الاستقلال، وربط الصلة أيضا مع جميع حركات التحرر الوطني التي كان لها مكاتب في العاصمة الجزائرية والتي تنتمي الى افريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية، فضلا عن ربط الصلة مع الثورة الفيتنامية ودولة الصين الشعبية،وكذلك تعزيز الصلة مع المجموعات الطلابية والعمالية الفلسطينية في ألمانيا والنمسا، ودول أوروبية أخرى، وهذا ما سنفصلّه في الحلقة الثانية من هذه الدراسة.

الهوية .. جذور ومسار

عبد الفتاح القلقيلي*

المقدمة

تمثل الهوية، في تعريفها البسيط، مجموع السمات المميزة لشعب من الشعوب، متمثلة في اللغة والعادات والتقاليد والثقافة والمواقف المشتركة بصدد القضايا المصيرية. وهنا تجدر الإشارة إلى أن قيمة أية هوية تكمن في ما يمكن أن تخلقه من شعور بالخصوصية، وفي ما يمكن أن تقدمه من فرص للتطور لمنتسبي هذه الهوية. وبدون ذلك قد تكون الهوية عبئاً على منتسبيها، وقد تكون عاراً أو دلالة على نقص مخجل ومخل. وغالبا ما ترتبط الهوية في هذا المستوى بالوعي بالذات. لكنها في أحيان أخرى قد ترتبط باستحضار الآخر باعتباره نقيضاً للأنا (أو للذات). وهو ما ينطبق على تجربة تشكل الهوية الوطنية الفلسطينية بالأساس؛ إذ بالرغم من وجود الشعب الفلسطيني على أرض فلسطين التاريخية، على الأقل منذ خمسة آلاف سنة، فإن حديثه عن هويته الوطنية لم يتبلور إلا بفعل صدمة قاسية جسدتها مخططات الاحتلال الأجنبي الذي أخذ في البداية شكل انتداب بريطاني قبل أن ينتهي مشروعاً صهيونياً قائماً على أساس اجتثاث شعب من أرضه وإحلال جماعات من "المستوطنين" الذين تم غرسهم في هذه الأرض بقوة الحديد والنار بعد جلبهم من جهات العالم الأربع.

صحيح أن الثقافة السياسية الفلسطينية من لغة وحضارة وتاريخ هي جزء من الثقافة السياسية

* باحث وكاتب فلسطيني

العربية، ومتشابهة مع تطور الثقافة السياسية الوطنية في الدول العربية المجاورة، إلا أن تطور الهوية الوطنية الفلسطينية يختلف عن تطور الهويات الوطنية للدول العربية المجاورة في التحرر من الاستعمار البريطاني والفرنسي. ويعود هذا الاختلاف إلى أسباب عديدة اهمها هو مرور فلسطين والقضية الفلسطينية بمراحل تاريخية مختلفة بشكل جذري؛ يقع في مقدمتها الاستعمار الاستيطاني للأرض والإلغاء للهوية القومية التاريخية لفلسطين. إن تمسك الشعب الفلسطيني بحقوقه الوطنية، وانتماءه لفلسطين ساهما في بلورة الفكر القومي الفلسطيني تارة بشكل تابع للبرامج السياسية الوطنية العربية، وتارة بشكل مستقل أو حتى منافس لهذه السياسات تحت شعار استقلالية القرار الفلسطيني.

في خصوصية الهوية الفلسطينية:

إذا كان لكل شعب خصائصه المميزة التي تجعل منه شعباً في مقابل شعب آخر، وهي ميزة تنطبق على الشعب العربي الفلسطيني مثلما تنطبق على أي شعب آخر، فإن للفلسطينيين خصوصية تشكل قيمة مضافة لهويتهم الوطنية، وتتمثل في أن تبلورها ارتبط بمواجهة نكبة تعرضوا لها من طرف مشروع للغزو الأجنبي استهدفهم في وجودهم الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي (الحضاري والإنساني بشكل عام). هذه الهوية تشكلت في خضم صراع مرير خاضه هذا الشعب لإثبات وجوده في المعركة القاسية وغير المتكافئة. وعليه، فقد ارتبطت الهوية بالمقاومة التي عرفتها فلسطين منذ زرع أول "مستوطنة" يهودية فيها عام ١٨٨٢ ومروراً بثوراتها المعروفة في النصف الأول من القرن العشرين وانتهاءً بأهم إنجاز للثورة الفلسطينية المعاصرة في ستينات ذات القرن. وقد برزت في خضم هذه الثورة التي أكدت الوجود الواقعي للشعب الفلسطيني في مواجهة إرادة المشروع الصهيوني الإمبريالي الدولي التي أرادت أن تجعل من وطنه أرضاً خلاء بلا شعب ليتم تسليمها لشعب افتراضي ليس له أرض.

هناك فرق بين الإعلام والإعلان.

الاعلام من أعلمَ، أي أخبر، ولذلك لابد من الصدق. أي يجوز اخفاء المساوئ واظهار المحاسن ولكن

لا يجوز قول غير الحقيقة. ومن يقول غير الحقيقة يتحمل مسؤولية قوله اما الاعلان فهو من أعلن، أي نشر أو أشهر وبه يجوز التزويق، أو ما يمكن أن نسميه الكذب الأبيض الذي لا يؤذي احداً. ومن يؤذي باعلانه احداً بشكل مباشر يتحمل مسؤولية قوله.

البعض يمارس الإعلام بأصول وقواعد الإعلان أي لا يلتزم بالحقيقة. وبذلك يصبح إعلامه غير فعال وغير مجدٍ .

وبما أن الإعلام تعريف، والإعلان ترويج فإن الهوية الإيجابية مرتبطة بنيويا بالإعلام (سواء أكان مقروءاً، أو مسموعاً، أو مرئياً). أما الهوية السلبية (اي العنصرية) فمرتبطة بنيويا بالإعلان. وأرى أن مقولات الصهيونية عن شعب الله المختار، ومقولات النازية عن العرق الآري النقي لا تختلف كثيرا (من حيث المنهج) عن إعلان شركة السجائر الإنجليزية الذي يقول "لا يدخن سجائر الروثمان إلا الناجحون في أعمالهم"، وكذلك إعلان شركة السجائر الامريكية عن سجائر المالبورو حيث تعرض صورة "الكاوبوي" القوي على حصانه، وتنادي "تعالوا الى حيث النكهة، تعالوا الى بلد المالبورو!!!

اذا كان ارتباط الهوية بنيويا بالاعلام صحيحا عموما، فان ارتباط الهوية الفلسطينية بالإعلام اكثر صحة، ودقة، حيث أن الهوية الفلسطينية ما كان يمكن أن يحتاجها الشعب الفلسطيني الحامل لهوية عربية إسلامية تاريخية لولا الهجمة الصهيونية الاستيطانية الإحلالية، التي استدعت مثل هذه الهوية لإنقاذ الشعب الفلسطيني وإنقاذ الأمة العربية.

نبذة اعلامية

كانت "فلسطين بحدود الانتداب" قبل أن تحتلها القوات العسكرية البريطانية في نهاية عام ١٩١٧ مقسمة من الناحية الإدارية إلى قسمين: الأول يشمل المناطق الشمالية، ويتألف من لوائي عكا ونابلس التابعين لولاية بيروت. والثاني يشمل المناطق الجنوبية، ويتألف من لواء القدس المستقل التابع مباشرة لسلطة وزير الداخلية العثماني.

لم تكن فلسطين في حدودها تحت الانتداب مستقلة لغة أو دينا أو حدودا أو تاريخا عن محيطها العربي عموما والسوري خصوصا. فلغة أكثر من ٩٥٪ من اهلها كانت اللغة العربية، والاسلام دين الغالبية وتأتي بعده المسيحية وهنالك اقلية ضئيلة لا تتجاوز ٦٪ من اتباع الديانة اليهودية، شأنها

في ذلك شأن محيطها العربي (سوريا ولبنان ومصر والعراق).

شارك الفلسطينيون بنشاط في مختلف الأحزاب والجمعيات العربية التي تشكلت بعد إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨، وتبنوا أفكارها القومية الإصلاحية، إلا أن شعورهم بالانتماء القومي انطبع بطابع خاص، طابع الانتماء إلى ارض ووطن محددين، يتهددهما خطر الضياع بفعل الهجرة والاستيطان اليهوديين (كما يقول ماهر الشريف في كتابه "البحث عن كيان"). وقد كتب نجيب نصار "... نحن الفلسطينيين على شفا جرف، فالخطر السياسي والاجتماعي والاقتصادي يهددنا من كل صوب... ومعلوم أن فلسطين أصبحت محط آمال الصهيونيين، ومطمح أنظارهم، وفيها الآن منهم أكثر من مائة ألف شخص مختلفي الجنسيات، وعلى جانب كبير من المعارف والمقدرة" (جريدة الكرمل ١٩١٣/٩/١٩).

صحيح أن الخطر الصهيوني قد أضفى على الحركة العربية في فلسطين طابعا خاصا، وساهم في الإرهاصات الأولى لـ"الهوية الوطنية الفلسطينية"، إلا أن هذه الهوية بقيت مندمجة في الحركة القومية العربية الجامعة حتى العقد الثاني من القرن العشرين. ولذلك تبنّى الفلسطينيون منذ شهر أيار ١٩١٨ علم الثورة العربية (ثورة الشريف حسين)، واصطلح على تسمية فلسطين "جنوب سوريا" أو "سوريا الجنوبية".

تركت الصدمات آثارا قوية على الحركة الوطنية الفلسطينية واشعرتها بعزلتها. واهم هذه الصدمات: مؤتمر "سان ريمو" نيسان (ابريل) ١٩٢٠، وانهيار الحكم العربي في سوريا واحتلال القوات الفرنسية دمشق (١٩٢٠/١٠/٢٤)، وفشل ثورة العراق الاولى (١٩٢٠). في تلك الظروف، انعقد في شهر ١٢ من ذلك العام مؤتمر حيفا. ولأول مرة لم يشر المؤتمر الفلسطيني إلى أن فلسطين جزء من سوريا، كما لم يطالب بالوحدة معها، بل دعا هذا المؤتمر لأول مرة إلى "تشكيل حكومة وطنية في فلسطين، مسؤولة أمام مجلس نيابي منتخب من السكان الذين وجدوا في البلاد قبل الحرب. ولذلك فانه بالإمكان اعتبار هذا المؤتمر نقطة الانطلاق العملية للهوية الوطنية الفلسطينية، كحركة قطرية ذات أهداف خاصة، لكنها غير منسلخة عن جذورها القومية.

على الإعلام بأشكاله المختلفة (المقروء والمسموع والمرئي) أن يواصل التركيز على هذه الحقائق آخذا بعين الإعتبار تعدد الرؤى الفلسطينية ضمن الإطار الوطني، فقد تشعب الفكر السياسي الفلسطيني منذ انطلاقه الى ثلاثة تيارات رئيسة: تيار الوطنية القطرية، وتيار القومية العربية، وتيار الشيوعية

الأممية. كانت الحدود بين التيارين الأول والثاني تضعف أحيانا وتبرز أحيانا أخرى، وكان الدعم الجماهيري لهما يتباين من حين الى آخر. اما التيار الثالث الشيوعي، فبقي مستقلا ومعزولا عن التيارين السابقين وينقصه الدعم الشعبي في الأوساط العربية وذلك بفعل نشأته من بين، صفوف المهاجرين اليهود اليساريين. لقد بقي التيار الشيوعي ضعيف الشعبية حتى بعد أن تطور لما سمّي بـ"عصبة التحرر الوطني" ذات الأكثرية العربية.

كانت الحركة الوطنية الفلسطينية (بتياريها القطري والقومي) تحدد قائمة "الأعداء" ودرجاتهم حسب خطر هؤلاء "الأعداء" على الارض الفلسطينية ومستقبل الكيان الفلسطيني. وضعت معاداة الصهيونية والاستيطان اليهودي في المقام الاول، ومعاداة الاستعمار البريطاني في المقام الثاني. وتميز بعض أفراد التيار الاول (القطري) باستعدادهم لمهادنة الاستعمار البريطاني، بل والتنسيق معه أحيانا. وعلى هامش هذا التيار سيكوّن هؤلاء ما يسمى بالمعارضة التي تعترض على "سلبية" الحركة الوطنية، اي رفضها للمشاريع التي يقترحها البريطانيون.

مما لا شك فيه (كما أسلفنا) أن الهوية تنشأ وتتبلور، ثم تتطور بفعل تفاعل عوامل داخلية، وتفاعلها مع عوامل خارجية، خاصة الهويات المضادة. وفي هذا الإطار، لم يكن هنالك خلاف حاد داخل الساحة الفلسطينية حول ثنائية القطرية والقومية، وذلك للإجماع الفلسطيني حول الخطر الأساسي المتمثل بالمخطط الصهيوني. ولكن كان هنالك تباين بين هذين التيارين. كان التيار الثاني (القومي) ينطلق من أن الحركة الصهيونية حركة عالمية بفعل انتشار اليهود في كل بقاع العالم، وبفعل تعاطف دول الحلفاء المنتصرين معها ودعمهم السياسي والعملي لها. ومثل هذه الحركة لا يمكن الانتصار عليها، ولا حتى مواجهتها، إلا من خلال الوحدة العربية، أو على الأقل وحدة سوريا الطبيعية، أو ما كان يطلق عليها بلاد الشام. وكان هذا التيار يدفع الأمور باتجاه البقاء ضمن الحركة الوطنية السورية. وبعد سقوط الحكم العربي الفيصلي في سوريا، صار أصحاب هذا التيار يتوجهون للاستظلال بالحكومات العربية المستقلة وخاصة العراق نظرا لوجود فيصل ملكا عليها. وحتى بعد قيام إسرائيل دفع بعض هؤلاء باتجاه الانضمام للأردن تحت راية الملك عبد الله بن الحسين شقيق الملك فيصل. وبعد بعثرة الفلسطينيين في كل اتجاه، وانضمام العديد من الفلسطينيين إلى القوى السياسية العربية، رفع القوميون شعار "الوحدة طريق التحرير". وظل هذا الشعار سائدا حتى اخترقته حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" بانطلاقتها المسلحة ١٩٦٥/١/١.

وكان التيار الأول (القطري) ينطلق من نفس المقدمات، ولكنه يصل إلى نتائج مختلفة. وحيث أن الحركة الصهيونية عالمية ومدعومة من الدول الغربية، فقد كان يرى أن بقاء فلسطين جزءاً من الدولة العربية الواحدة سيجعل من المعقول ضغط العالم من اجل تهويد فلسطين، باعتبارها جزءاً ضئيلا من الوطن العربي. أما إذا حافظنا على اعتبارها قطرا عربيا مستقلا كبقية الأقطار العربية الأخرى، فستكون وطن أهلها لأنها صغيرة لا تتسع لمزيد من الهجرة اليهودية إليها، بل إن مزيدا من الهجرة سيقضي على شعبها العربي الفلسطيني، ولم يعد مستساغا عالميا القضاء على شعب من الشعوب. هذا التيار كانت أفكاره ومفاهيمه القطرية والكيانية ضبابية؛ وقد تعرض للتشتت واليأس والغياب، لكنه عاد وانتعش في أواخر خمسينات القرن العشرين.

وكذلك "العرب، والعربي"، كانت وما زالت تستعمل في الأدبيات السياسية الفلسطينية لتعني غير اليهودية. فحتى الآن ما زال يطلق على الفلسطينيين الذين بقوا تحت الاحتلال الإسرائيلي وأصبحوا مواطنين إسرائيليين، ما زال يطلق عليهم مصطلح: "عرب إسرائيل/عرب ٤٨".

ومع تصاعد الثورة المسلحة، في النصف الثاني من ثلاثينات القرن العشرين، تعاظم الوعي الفلسطيني بالكيانية، وصارت الأدبيات الإعلامية والسياسية تطلق على الشعب الفلسطيني "الأمة". وظهرت تعابير مثل "مصلحة الأمة" و"صندوق الأمة" و"بنك الأمة" و"قيادة الأمة" و"شرف الأمة"...

كانت تلك الثورة الفلسطينية المسلحة هي التعبير الأقوى عن الهوية والكيانية الفلسطينية، وفتحت الآفاق لعلاقات التعاون مع الأقطار العربية على كل المستويات: الشعبية والسياسية والقيادية.

أما بعد قيام إسرائيل واستقرار نظامها وانضمام الضفة الغربية للأردن، صار التيار القطري الفلسطيني في أضعف أحواله، وتراجعت برامجه السياسية لتستقر في الضمير أحلاما مؤجلة أو مسكوتا عنها. فغابت الحركة الوطنية الفلسطينية تقريبا، وفقدت سماتها الخاصة وبرنامجها الوطني الفلسطيني "القطري". فلم تكن هنالك مجابهة فلسطينية هامة في الضفة الغربية لإجراءات الضم الأردنية، لا على الصعيد العملي ولا حتى على الصعيد النظري.

لم تحدث عملية مجابهة هامة لحالة الضم، بل إن العديد من المواطنين الفلسطينيين المشهود لهم بوطنيتهم قد استجابوا للأمر الواقع، وانغمسوا فيه، واجتهدوا بتطويره ودفعه إلى الأمام. ويدل ذلك على ضبابية الوعي الكياني لدى الفلسطينيين الذين لم تكن نضالاتهم السابقة متعارضة، بل

كانت متقاطعة أحيانا ومترابطة أحيانا أخرى، مع النضالات القومية، إضافة إلى أنهم لم يمارسوا حكم أنفسهم بأنفسهم. ولذلك، عندما سلّموا لإجراءات الضم الأردنية لم يساورهم الشعور بأنهم يتنازلون عن تجربة كيانية منفصلة، لها تراثها وطعمها الاستقلالي وامتيازاتها السلطوية، المادية منها والروحية.

وحتى في قطاع غزة كان لنشطائهم دور مهم في النشاطات "العربية" من "البعث" إلى "القوميين العرب" إلى "الناصرية".

ويمتاز التيار الإسلامي بأنه يرى أن الدعوة القومية دعوة تميت الانتماء إلى الأمة الإسلامية الواحدة. كما أن منظريه يرون أن العروبة باللغة فقط، فكل الأقطار الإسلامية هي جزء من الأمة الإسلامية. ويرون انه إذا كان أي جزء من بلاد الإسلام محتلا فإن الجهاد (القتال) فرض عين على كل مسلم خاصة أبناء البلد المحتل. والتيار الإسلامي بشُعبه المختلفة يخلط بين اليهودية كدين وبين الصهيونية كحركة سياسية، بل يعتبرهما شيئا واحدا، فالصهيونية هي التعبير السياسي عن اليهودية، برأيهم.

ولذلك ليس لفلسطين برنامج خاص عند التيار الإسلامي الا إزالة الاحتلال عنها والجهاد في سبيل ذلك. أما الهوية والكيان الفلسطيني، فلا نجد لهما حضورا بارزا في أدبيات هذا التيار، بما في ذلك التيار الإسلامي القطري الفلسطيني. وكل ما نجده عندهم هو خطورة الكيان الإسرائيلي والسيادة اليهودية على كل فلسطين أو على أجزاء منها، وان هذه الخطورة لا تقتصر على فلسطين وحدها؛ بل ستمس (وقد مست فعلا) كل الأقطار المحيطة بفلسطين.

وفي هذا السياق، وتحت هذه الظلال، وفي أجواء ذلك الغموض في الهوية والكيان، تركزت تطلعات الفلسطينيين (اللاجئين خاصة) على هدف مركزي هو "العودة" دون أن ترتبط هذه العودة بتصور كياني محدد. ومع ذلك حافظ الفلسطينيون خارج الأردن على وعيهم بفلسطينيتهم دون أن يبلوروا ذلك في تعبيرات سياسية ومؤسسات ملموسة، حتى أواخر خمسينات القرن العشرين.

رغم ضبابية الهوية والكيان، وهذا الركام فوقهما، فإن وعي الفلسطينيين لفلسطينيتهم لم يمت. وقد ساعد على بقاء هذا الوعي حيا ثلاثة مكونات:

المكون الأول: التمييز وسوء المعاملة التي لقيها الفلسطينيون في الأقطار العربية، حتى في الأردن، حيث كان الفلسطينيون هم أقل إخوانهم الفلسطينيين الآخرين في الأقطار العربية الأخرى عرضة

للتمييز. فقد كانوا، من الناحية القانونية، أردنيين لهم كل الحقوق القانونية في التملك والاستثمار والتوظيف في كل أجهزة السلطة، فمنهم الوزراء ورؤساء الوزارات، ولكنهم عمليا كانوا أردنيين من الدرجة الثانية، يعانون من التمييز في التوظيف في كل المجالات وخاصة في الجيش، وكانت مناطقهم تعاني أيضا من التمييز في التنمية.

لكن التمييز ضد الفلسطينيين في الاردن لم يدفعهم باتجاه البحث عن مدلولات سياسية فلسطينية رغم احساسهم بفلسطينيتهم، بل اندفعوا الى الحركات السياسية المعارضة للنظام والتي كانت تعمل في النطاق الاردني.

المكوّن الثاني: بقاء وتنامي وعي الفلسطينيين لفلسطينيتهم عبر انتشار الوعي العام بين الفلسطينيين. فالفلسطينيون الذين فقدوا مواردهم الاقتصادية الزراعية والصناعية، لم يبق أمامهم إلا العلم لكسب العيش. وبانتشار التعليم بين الفلسطينيين، انفتحت أمامهم آفاق العمل في الدول العربية وخاصة دول الخليج حديثة التكوين. وهناك، ومن خلال العمل وانفتاح آفاقهم والتقاء الفلسطينيين من مناطق شتاتهم معا في مؤسسة واحدة، تعزز وعيهم بفلسطينيتهم رغم اختلاف البيئات التي يعيشون فيها.

المكوّن الثالث: مواجهة الاحتلال، حيث أن احتلال إسرائيل لقطاع غزة في تشرين أول عام ١٩٥٦ أنعش وعي الفلسطينيين بفلسطينيتهم . فعندما اقتضت الضرورة العسكرية سحب الجيش المصري من سيناء وقطاع غزة، وجد الفلسطينيون أنفسهم أمام عدوهم التاريخي وجها لوجه، يتعرضون للقتل والتدمير والانتقام الجماعي. واكتشف الفلسطينيون دورهم الخاص في المواجهة المباشرة مع المحتلين.

انسحبت إسرائيل من قطاع غزة في السنة التالية (١٩٥٧). ورغم أن انسحابها لم يكن بفعل المقاومة الفلسطينية لها، إلا انه بسقوط غزة في يد الاحتلال الإسرائيلي ومقاومة هذا الاحتلال بدأت مرحلة جديدة، وجد الشعب الفلسطيني نفسه فيها وجها لوجه أمام مسؤولياته وأمام قسوة المواجهة.

نستطيع القول أن السنوات الأولى التي تلت انسحاب إسرائيل من غزة شهدت الإرهاصات الجدية الأولى للكيانية الفلسطينية، ولاستعادة الهوية الفلسطينية، حيث ظهر عدد من الظواهر للهوية والكيانية الفلسطينية التي عبرت عن نفسها عبر مؤسسات مختلفة، بعضها استمر وبعضها الآخر

عجز عن الاستمرار وأصبح جزءاً من التاريخ. ومن اهم تلك المؤسسات التي ظهرت قبل قيام منظمة التحرير الفلسطينية، خمس مؤسسات، وهي:

١- الاتحاد القومي العربي الفلسطيني في غزة عام ١٩٥٨.

٢- حركة الارض التي تشكلت في الاراضي المحتلة في نيسان/ابريل ١٩٥٩.

٣- فوج التحرير الفلسطيني، تشكل بتعاون الحاج امين الحسيني مع عبد الكريم قاسم قي العراق، في حزيران/يونيو ١٩٥٩.

٤- الاتحاد العام لطلبة فلسطين، الذي تأسس في القاهرة اواخر عام ١٩٥٩.

٥- حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، التي بدأت تصدر مجلتها "فلسطيننا" عام ١٩٥٩.

وإذا كانت الهوية الوطنية لمعظم الشعوب تبلورت على شكل دول مثل ما هو عليه الحال في الدول القومية الحديثة فإن نظيرتها الفلسطينية تبلورت على شكل مقاومة مناضلة لإثبات الوجود في مواجهة إرادة الاجتثاث والنفي، مما يجعل منها هوية نضالية في جوهرها.

ولذلك كان التعبير الأقوى عن الهوية الوطنية الفلسطينية منذ النكبة هو قيام منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤. ورغم أنها أقوى تعبير عن الهوية؛ إلا أن الهيئة العربية العليا بقيادة الحاج أمين الحسيني قاومتها بشكل مطلق، وشككت بتعبيرها عن الهوية الفلسطينية. أما بقية القوى السياسية الفلسطينية التي كانت قائمة في ذلك الوقت، وإن أجمعت على ضرورة بعث الهوية والكيان الفلسطيني؛ إلا أن الرؤية فيما بينها حول العديد من المسائل تعارضت. وذلك يدل على وجود درجة غير مكتملة من الوعي للهوية والكيان. فهذه الحركات السياسية لم تستخدم في بياناتها ومذكراتها المنشورة إلا مفاهيم كيانية عامة. وقد ارتبط مفهوم تلك القوى للكيان بأنه موازٍ لـ"المؤسسة" وكيفية أدائها لواجباتها الكفاحية.

أما حركة فتح فطالبت بأن لا يكون الكيان صوريا له نشيد وقسم وعلم، بل يجب ان يكون ذا مضمون ثوري ومرتكَزا للثورة المسلحة وليس بديلا عنها. وانسجاما مع رؤيتها الكيانية المعبر عنها بالدعوة إلى العمل العسكري، كان طبيعيا أن تتخذ فتح موقفا متحفظا من منظمة التحرير ومقررات المجلس الوطني الفلسطيني الاول في القدس، خشية إكساب الشرعية لممثلين قد يخرجون على المسرح السياسي وينفذون قرارات يرفضها الشعب الفلسطيني قطعا، ويحتمون بالشرعية.

وذكّرت فتح أنه كان من المفترض أن يشكل قيام منظمة التحرير الفلسطينية بداية إنهاء مرحلة الوصاية العربية الرسمية على العمل الفلسطيني.

ورغم أن منظمة التحرير كانت التعبير الأقوى عن الهوية الفلسطينية إلا أن مفهومها عن الكيان الفلسطيني عانى من ضبابية، وخاصة في النطاق الجغرافي.

ولعل من أسباب ضبابية مفهوم الكيان والهوية عند منظمة التحرير الفلسطينية هو التنازلات الكيانية التي قدمتها (من غير جدوى) لتجعل نفسها مقبولة عند الأردن. وعلى كل، يمكن تقسيم مراحل وعي م.ت.ف. لمفهوم الكيان والهوية إلى أربع فترات، وذلك حسب الفواعل التي أثرت في ذلك الوعي أو غيرت اتجاهه:

المرحلة الأولى، وهي منذ تأسيسها وحتى حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ حيث استولت إسرائيل على ما كان قد تبقى من ارض فلسطين (الضفة الغربية وقطاع غزة).

المرحلة الثانية، من حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ حتى حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، حيث عَبَر جيشا سوريا ومصر خطوط "النكسة"، و مجرد "العبور" أعاد للعرب شيئا من الكرامة، وأصبح بالإمكان التعامل مع إسرائيل متجاوزين اللاءات الثلاث (لا مفاوضات ولا صلح ولا اعتراف مع إسرائيل) التي أطلقها مؤتمر القمة العربي الرابع في الخرطوم (٨/٢٩/ — ١٩٦٧/٩/١).

المرحلة الثالثة، من حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ وحتى مؤتمر مدريد ثم اتفاقية أوسلو ١٩٩٣ حيث تواجهت دول الطوق (لبنان وسوريا والأردن) ومنهم الفلسطينيون، مع إسرائيل على مقاعد المفاوضات وليس في ميادين القتال.

والمرحلة الرابعة، هي من اتفاقية أوسلو حتى الآن، حيث التقت إسرائيل مع منظمة التحرير الفلسطينية مباشرة حول طاولة المفاوضات وليس في ميادين القتال، وقد تبادلا الاعتراف وصار لمنظمة التحرير الفلسطينية حكم ذاتي (جزئيا) في غزة والضفة الغربية رغم بقاء الجنود الإسرائيليين على أبواب مكاتبها هناك.

وقد كان لمنظمة التحرير الفلسطينية وعي خاص لكل مرحلة فيما يخص القضايا السياسية وعلى رأسها مسألة الهوية والكيان. ونستطيع أن نسمي كل مرحلة بما يميزها في هذا المجال. فالمرحلة الأولى هي مرحلة الميثاق القومي الفلسطيني، والثانية هي مرحلة الميثاق الوطني الفلسطيني،

والثالثة هي مرحلة تجاهل الميثاق الوطني الفلسطيني كمرجعية واعتماد قرارات المجالس الوطنية الفلسطينية، والرابعة هي مرحلة إلغاء الميثاق الوطني الفلسطيني وتجاهل قرارات المجالس الوطنية السابقة كمرجعية، واعتماد قرارات "القيادة الفلسطينية" (وهذه هيئة غير رسمية، تتكون من اللجنة التنفيذية ورئاسة المجلس الوطني، والحكومة الفلسطينية ورئاسة المجلس التشريعي، وما تيسر من أعضاء اللجنة المركزية لحركة فتح. وكان هنالك شخصيات تشارك بهذه الهيئة رغم أنهم ليسوا أعضاء بإحدى الهيئات المكونة لهذه القيادة).

بما أن الهوية الفلسطينية هي نضالية في جوهرها كما أسلفنا، فقد تصبح مهددة بالإلغاء إذا تخلت عن هذا الجوهر النضالي، وهو ما يؤكد خطورة التسويات ذات النفس الإنهزامي على الهوية الوطنية الفلسطينية؛ خاصة وأنها تتعامل مع الفلسطينيين كوحدات بشرية معزولة في أراضي ٤٨، والضفة وغزة والقدس، وفي الشتات.

إذا كانت الهوية شعورا جمعيا لأمة أو لشعب ما، كما قلنا، وإذا كانت الأمم والشعوب تتكون من الأفراد، وهم في كل الشعوب ينتظمون في عائلات نووية وعائلات ممتدة وطبقات وأديان مختلفة، ولدى بعض الشعوب، في قبائل، فإن الانتماءات الفردية، والأيديولوجية والإثنية والقبلية تؤثر على تماسك الأمة والشعوب ودرجة وحدتها، وبالتالي قدرتها على انجاز أهدافها، حيث تؤثر الانتماءات المناطقية وكل الانتماءات الجزئية على درجة تماسك ووحدة الهوية الوطنية.

مما سبق يمكن القول أن التبلور البنيوي في المجتمع لأي أمة أو شعب، من حيث درجة تطوره (وهو تبلور اجتماعي واقتصادي وسياسي وفكري وقيمي) تؤثر عليه مجموعة عوامل مجزئة وموحدة، والبنية الأرقى هي التي تهمش الهويات الجزئية (فردية، عائلية، قبلية، مناطقية، طبقية، فكرية) لمصلحة الهوية الوطنية أو القومية، بما يتعلق بالصراع الوطني. وفي كل الحالات، الهوية الحقة "هي تطابق الهوية مع الاختلاف"، فالهوية في ظل فهم التفاوت في تطور البنى الاجتماعية مركبة ومتراتبة بأولويات مختلفة للأفراد والجماعات المكونة للأمم والشعوب. لذلك، ليس غريبا أن يوجد أفراد ضد أمتهم، وليس غريبا أن تخرج قبائل على أمتها أو شعوبها، وليس غريبا أن تنشأ تناقضات وصراعات نتيجة تغليب المصالح الجزئية على المصالح الوطنية الكبرى. والأهم، وهذا مشاهد في هذه المرحلة من تطور البشرية، ليس غريبا أن تكون قيادة شعب أو أمة ضد مصالح جماهيرها وتحرف ولاءاتها لمصلحة قوى خارجية. إن قوة أو ضعف التناقضات (ووجودها داخل

شعب أو أمة طبيعي وموضوعي) مسألة لها علاقة بدرجة التطور البنيوي، كما قلنا، ومرتبطة أيضا بالقوى والعوامل المؤثرة من الخارج، ولها أيضا علاقة بطبيعة التناقض. ففي عالم اليوم، وبقدر ما تساعد وسائل الإتصالات والتواصل على تعزيز الوحدة الداخلية لمصلحة الهوية الوطنية، فإنها قادرة، في ظل غياب مناعة داخلية، على السماح للعوامل الخارجية بخلق تناقضات مختلفة داخل الهوية الوطنية الواحدة.

وهنا، يمكن القول، أن الثقافة الوطنية، وهي نتاج تبلور بنيوي داخلي، وقابلة للتأثر بثقافات أخرى، هي اسمنت الوحدة الوطنية. فبقدر ما تكون الثقافة الوطنية جامعة وشاملة وموحدة تستوعب الاختلاف والتناقض في ظل الوحدة، أي أن الثقافة المبنية على المواطنة والديموقراطية، ستكون ثقافة معززة للهوية الوطنية.

الهوية الوطنية الفلسطينية كما أشرنا منذ البداية، تبلورت على شكل مقاومة مناضلة لاثبات الوجود والدفاع عنه في مواجهة الاجتثاث والنفي. مما يجعلها هوية نضالية في جوهرها. وهنا سنتساءل، كيف أثر اتفاق أوسلو، وقيام السلطة الوطنية الفلسطينية، بشروط هذا الاتفاق، على الهوية الوطنية الفلسطينية، حيث النزعة السائدة في ظل السلطة الوطنية الفلسطينية هي التفاوض والتهادن مع الاحتلال؟ رغم عدم انجاز أهداف الشعب الفلسطيني وتعنت هذا الاحتلال وإصراره على الاستمرار في نهب الأرض والموارد الفلسطينية وتشريد الشعب وعدم الاعتراف بحقوقه الوطنية والتعامل مع الشعب الفلسطيني كوحدات بشرية معزولة في أراضي ١٩٤٨، والضفة الغربية، والقدس، والشتات، كما سبق أن أشرنا.

قيام السلطة الوطنية الفلسطينية بشروط اتفاق أوسلو، وعدم انجاز أهداف الشعب الفلسطيني بالحد الأدنى حتى هذه المرحلة، واستمرار التفاوض لفترة طويلة بدون تحقيق نتائج، ساهم في انقسام الشعب الفلسطيني حول أهدافه، وأساليب تحقيقها، وهذا خلق شرخا في الهوية الوطنية بحيث صار يمكن تبرير قتل الفلسطيني للآخر بحجة الخيانة، أو غيرها من المبررات، وسجن الفلسطيني للآخر بحجة خروجه عن الصف الوطني. لقد حدث شرخ بين فلسطينيي الداخل المنقسم إلى أربعة مناطق جغرافية والخارج المشتت في بقاع العالم المختلف. وحدث شرخ طولي بين مؤيدي نهج التفاوض ونهج المقاومة من الشعب الفلسطيني. وإذا استمر هذا الحال لفترة أطول، ليس غريبا أن ينقسم الشعب الفلسطيني إلى كيانات وهويات مختلفة بولاءات مختلفة تقسم

الشعب الفلسطيني إلى أجزاء مختلفة وربما متناقضة ومتصارعة.

إن وجود سلطة وطنية فلسطينية تنسق وتتفاوض مع الاحتلال في نفس الوقت الذي تتعرض فيه مناطق جغرافية بكاملها لممارسات قمعية يخلق شرخا في الهوية الوطنية. كما أن الاستمرار والإمعان في تهويد القدس في ظل هذا الوضع بتعقيداته وقيوده على السلطة الوطنية يهز الثقة بها وبوحدة التمثيل للشعب الفلسطيني كأحد أركان الهوية الفلسطينية. والأخطر في هذا المجال هو ترك فلسطينيي ١٩٤٨ يقاتلون وحدهم في ظل ازدياد الضغط عليهم في هذه المرحلة، فالمطالبة بالاعتراف بيهودية الدولة يجردهم من الكثير من الحقوق المدنية في دولة احتلال قامت على وطنهم ويتركهم منعزلين بلا سند حقيقي، وهذا سيعزز حالة اليأس لدى جزء مهم منهم. ومن زاوية بحثنا سيعمق هذا من الانفصال جغرافيا وسياسيا ونضاليا، وإذا استمر قد يخلق شرخا جغرافيا وبشريا مع جزء مهم من الشعب الفلسطيني وفي هويته الوطنية.

والوضع الأكثر إرباكا هوأن قيام سلطة وطنية لشعب كان مشردا أو محتلا بالكامل يعني التحول إلى مجتمع يعيش ظروفا عادية، ويعني أيضا وجود بناء سلطوي بتناقضاته الطبيعية، وخاصة في المجال الاجتماعي. إن قيام هذا الوضع في ظل عدم استكمال التحرر خلق بلبلة واضحة وتناقضات عدة بين أفراد وفئات وشرائح المجتمع الفلسطيني، هي في ظروف تجارب الشعوب الأخرى التحررية تناقضات ما بعد التحرير. فانجاز الأهداف الوطنية يشترط اعتبار التناقضات الاجتماعية تناقضات ثانوية، وخلق وحدة وطنية وهوية وطنية موحدة في مواجهة الأعداء الخارجيين. في ظل هكذا وضع، فإن من شأن الشللية، والعائلية، والتفاوت الطبقي الحاد، والقبلية، والتحزب السياسي الأعمى، والتغريب الثقافي، والتطبيع مع الاحتلال، أن تؤثر سلبا على الهوية الوطنية الفلسطينية.

ولذلك أرى أن تعدد وسائل الاعلام الفلسطينية (المقروءة والمسموعة والمرئية) يطرح اسئلة عديدة، أهمها: ما مدى تأثير وسائل الإعلام الوطنية على المجتمع الفلسطيني، بفئاته، وشرائحه، وفصائله، وأحزابه، وفي عملية التنمية، وتحقيق السلم الاهلي؟

وسأساهم في الاجابة على هذا السؤال:

لا ادّعي انني خبير مؤهل للاجابة التفصيلية الميدانية عن هذا السؤال، ولكني سأبذل جهدي كمستمع ومتابع.

من ناحية عامة، فان كل الشعوب (ومنها الشعب الفلسطيني طبعا) تتأثر بوسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، وإن كانت مساحة الإذاعات المسموعة والمرئية اوسع من مساحة الصحف بأنواعها، وهذا يجعل إطلاق مصطلح "السلطة الرابعة" على وسائل الإعلام له ما يبرره، بل أن سلطة الإعلام أكثر تاثيرا أدبيا من السلطة التنفيذية والتشريعية، ولكن الناس أكثر التزاما بالسلطتين الأخيرتين. وننوه هنا أن تأثر الشعب بوسائل الإعلام يتناسب طرديا مع ثقته بمصداقية هذه الوسائل.

ورغم أن الشعب الفلسطيني لم يكن له قبل عام ١٩٩٦ سلطة تنفيذية أو تشريعية أو قضائية خاصة به، إلا أنه منذ تبلور هويته الوطنية (القطرية) عام ١٩٣٦ (كما اسلفنا) كان له وسائل الإعلام الخاصة به.

قلنا إن تأثر الشعوب بوسائل إعلامها عام، ويتحدد بمدى ثقته بمصداقيتها، أما تأثير الشعوب على تلك الوسائل فيرتبط بمدى ديموقراطية مجتمعاتها، فكلما زادت ديموقراطية المجتمع، كلما زاد مدى تأثير الشعب على وسائل إعلامه، حيث أنه في المجتمعات ذات المستوى الديموقراطي المنخفض تكون وسائل الاعلام تحت السيطرة الكاملة للنظام وفئته الحاكمة. هذا بشكل عام، أما في الساحة الفلسطينية، فمنذ النكبة (عام ١٩٤٨)، وحتى قيام السلطة الوطنية الفلسطينية (عام ١٩٩٥)، كانت معظم الإذاعات العربية لديها برنامج خاص بفلسطين: صوت فلسطين في مصر، ركن فلسطين في سوريا...

ومنذعام ١٩٦٥ انطلقت اذاعة صوت فلسطين، صوت منظمة التحرير الفلسطينية من القاهرة. وانطلقت فروع لهذه الاذاعة في الجزائر، وبغداد، وبيروت، ودرعا في سوريا، وغيرها من الدول العربية.

كان لهذه الاذاعات تأثير كبير على جمبع فئات الشعب الفلسطيني. ونظرا لصعوبة الاتصال والتواصل بين مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية وافرادها، فقد كانت هذه الاذاعات المصدر الأساسي للمعلومات والتعليمات، وكانت تتحكم بسلوك الفلسطينيين وبرامجهم السياسية والثقافية والفنية.

كانت منظمة التحرير تتخيل نفسها نظاما عربيا، ولذلك كانت قيادتها تتفاخر بأنها تختلف عن

الأنظمة العربية ذات الأنظمة الديكتاتورية، أو على الاقل غير الديموقراطية، إذ في منظمة التخرير كانت تسود ديموقراطية، أطلق عليها ياسر عرفات "ديموقراطية البنادق"، وكان ذلك ممكنا حيث ان قيادة المنظمة لا تحكم الشعب الفلسطيني في مناطق تواجده، وانما كانت تقود نضاله لتحرير وطنه. وفي ظروف النضال تكون التناقضات بين فئات الشعب قليلة، وغير تناحرية، وبذلك ليس هناك ضرورة عالية للقمع الشديد لحماية السلم الاهلي. ولكن بعد قيام السلطة الوطنية، ورغم بقاء الجندي الاسرائيلي مطلا على شبابيك الاذاعة والتلفزيون والرئيس، صارت وسائل الإعلام أكثر إذعانا للسلطة التنفيذية.

وبقدر ما ترضخ الإذاعة للسلطة التنفيذية، بقدر ما تقل مصداقيتها، وبالتالي تضعف ثقة الشعب بها، وبذلك يقل تأثيرها عليه، ويضعف تأثير الشعب عليها. ولذلك تعددت الإذاعات لدرجة اقتراب الوضع من الفوضى الإعلامية. وكانت الإذاعة الفلسطينية الرسمية المسموعة والمرئية اقل استماعا ومشاهدة من غيرها سواء الفضائيات أو المحطات المحلية. ومما لاحظناه بألم أن إذاعة صوت فلسطين المسموعة ليست أقل استماعا فقط، بل وأقل انتشارا. ففي الاجتياح الاسرائيلي لمناطق السلطة الوطنية عام ٢٠٠٣ تم تعطيل اذاعة صوت فلسطين. وبعد انسحاب الجيش الاسرائيلي عادت الإذاعة، ولكن ليس على الموجة المتوسطة، بل على موجة إف إم. ورغم أنها الاذاعة الرسمية إلا أن بثها غالبا ما لا يتجاوز محافظة رام الله والبيرة.

وباختصار: قيام السلطة الوطنية الفلسطينية بشروط أوسلو، خلق تداخلا في المراحل وإرباكا لقيادة الشعب الفلسطيني وفصائله وأفراده، وهذا أوجد خلخلة في الهوية الوطنية الفلسطينية، لأنه أوجد نشاطا أيديولوجيا سلطويا في ظل واقع ما زال يتطلب سيطرة وهيمنة القيم والثقافة الوطنية التحررية، وساهم في كثير من الأحيان في ارتقاء التناقضات الثانوية إلى تناقضات رئيسية، وشوش على بوصلة النضال الوطني الفلسطيني وتناقضاته والقيم والمعايير التي يحتكم إليها.

وهنا يثور سؤال: هل بإمكان الشعب الفلسطيني بأطره السياسية ومؤسساته الأهلية والرسمية وأفراده، في ظل معطيات الظروف القائمة منذ أوسلو حتى اليوم، أن يتفادى الكثير من الأخطاء التي وقع فيها والتي خلقت تناقضات وتصدعات وشقوقا في الهوية الوطنية الفلسطينية، وعدم مصداقية، وغياب الثقة بالسلطات الأربعة: التنفيذية، والتشريعية، والقضائية، والإعلامية والتي من شأنها أن تؤثر على استمرار نضاله وتحقيق كافة أهدافه الوطنية؟

نعتقد أن الجواب نعم، وإن كان صعبا، وذلك بالاتجاه بداية إلى السلطة الرابعة، بالتأكيد إعلاميا على الثوابت التالية.

١ـ التأكيد على أن الصراع والتناقض مع الأعداء سيظل قائما ورئيسيا حتى تتحقق كافة أهداف الشعب الفلسطيني، ولا داع لتخفيف حدة هذا التناقض حتى ونحن نفاوض، فالتفاوض شكل نضالي. وبناء على ذلك يجب رفض التطبيع مع الاحتلال، خاصة على المستوى الشعبي، ويجب وضع برامج وسياسات وآليات تؤكد على استمرار النضال ضد الاحتلال بكل الطرق والأساليب المتاحة والملائمة للواقع المعطى وإرهاصاته، وبما يلائم الظروف القائمة.

٢ـ يجب أن يتلاءم الشعب الفلسطيني، جماهير وسلطة، مضمونا وشكلا مع وجود هذا التناقض واستمراره. فالنضال وحالة التناقض لا يتعايشان مع حالة البذخ التي بنيت عليها السلطة الوطنية ولا مع الجيوش البيروقراطية والأمنية التي أنشأتها، فإنجازات إتفاق أوسلو، إذا كان له إنجازات، لا تحتمل الإنتقال إلى حالة دولة بمظاهرها الكاذبة. وواقع الشعب الفلسطيشني الاقتصادي يفترض التقشف لا الترف والبذخ. ويتطلب أيضا، بناء اقتصاد مقاومة وصمود، وليس اقتصادا استهلاكيا. وفي هذا الاقتصاد الأرض هي محور الصراع، وبناء القدرة في الإنسان جوهره، وتنمية القطاعات الانتاجية أحد أهم أركانه، ومقاطعة بضائع الاحتلال شرط تنميتها، وتنمية الثقافة الوطنية ركن أساسي في نضاله للحفاظ على الهوية الوطنية وروح المقاومة وتوحيد قوى الشعب في مواجهة الاحتلال والإحلال.

٣ـ يجب ألا نسمح، مهما كانت الضغوط والمبررات، بأن ننسلخ عن أهم عامل من عوامل قوتنا، وهو امتدادنا القومي الاستراتيجي. فحتى في أحلك الظروف، كان يجب إقامة علاقة وثيقة مع جماهير وأحزاب وقوى الأمة العربية وأنظمتها السياسية بتوازن خلاق يدعم قدرتنا ولا يغير ثوابتنا. وكان يجب أن تتشكل تحالفاتنا الدولية على أساس استمرار النضال، وبما يكفل تعزيز قدرتنا.

بعد العدوان على غزة، هل أخذنا العِبر ؟!

عبد الغني سلامة*

مقدمة

أثارت الحرب على غزة الكثير من القضايا والتداعيات، على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية، وغيرها. وهي جميعها قضايا مهمة، وتحتاج دراسات مستفيضة وتحليلات معمقة من قبل مراكز الأبحاث الأكاديمية، بموازاة عمليات التقييم والمكاشفة وتقدير الموقف وحتى المحاسبة، من قبل القيادة ومراكز صنع القرار، وأيضا على المستوى الفصائلي، وكذلك تحتاج إسهامات الكتّاب والمثقفين، لكي يقوموا بدورهم في هذا المجال.

فهل يُعقل أنه بمجرد سكوت المدافع، وتوقُّف القصف على غزة، أن نقوم مباشرة بإسدال ستائر النسيان على تلك الفترة العصيبة، وكأنها لم تكن ؟! وإذا تذكّرناها لا نتذكرها إلا بالقصائد وكلمات الرثاء، أو خطابات المديح للمقاومة ؟! ألا تستحق ثلاثة حروب متواصلة على القطاع وقفة تأمل ومراجعة شاملة ؟!

ولما كان من الصعب على أي كاتب الإحاطة بكل ما أفرزته الحرب، أو تناول كافة جوانبها؛ فسأتناول في هذه الدراسة، قدر المستطاع، جوانب معينة، كان لها دور مهم في تحديد طريقة تعاملنا مع الحرب نفسها، وفي تشكيل الوعي الشعبي، وصياغة مفردات خطابنا السياسي والإعلامي.

---

* باحث فلسطيني

١. صواريخ المقاومة

صواريخ المقاومة، واحدة من أكثر القضايا التي أثارت جدلا في الساحة الفلسطينية؛ فقد انقسمت الآراء بين من يراها بطولة وإنجازاً ومفخرة وطنية، ومن يراها "عبثية" ولا طائل من ورائها. ومن يراها إستراتيجية فاعلة ومؤثرة بإمكانها تحقيق توازن نسبي في موازين القوى، ومن يراها ليست ذات جدوى عسكرية، لبدائيتها ومحدودية قوتها التفجيرية وعدم دقة إصابتها. ومن يراها تعيد إنتاج صورة الفلسطيني الضحية المغلوب على أمره، واستبدالها بصورة الفلسطيني المقاوم الذي يلحق الأضرار الجسيمة بالعدو. مقابل من يراها تعطي صورة مشوهة وغير دقيقة للصراع، وتضلل الرأي العام العالمي على نحو يحرم الفلسطيني إمكانية التعاطف معه، خاصة بعد أن يرى العالم ما يمكن اعتباره توازنا بين جيشين متصارعين كلاهما يستخدم القصف العشوائي ويستهدف المدنيين في الطرف الثاني، وأن الفلسطيني لم يعد ضحية عدوان جيش غاشم بعد أن حقق نوعا من التكافؤ في أدوات الصراع.

من حيث المبدأ، لا خلاف على أنه من حق فصائل المقاومة، بل ومن واجبها الرد على العدوان الإسرائيلي، وإن كانت فصائل المقاومة حاليا ليس في جعبتها سوى الصواريخ محلية الصنع، وهذه الصواريخ غير دقيقة، وفاعليتها التدميرية محدودة جدا، ولا تقارَن مع صواريخ إسرائيل .. إلا أنها تطورت عن المرات السابقة، ومن الممكن أن تتطور أكثر مستقبلا .. وبالتالي لا يجوز أن نستخف بها .. ولكن لا نبالغ بتهويل تأثيرها؛ فأقصى ما يمكن أن تفعله هو أن تشفي غليل الفلسطينيين من ناحية، وأن تثير الرعب في قلوب الإسرائيليين من ناحية ثانية؛ وإن كان هذا مجرد إنجاز معنوي؛ إلا أنه يمثل ردا للكرامة الوطنية، ورفعاً للمعنويات. سيما وأنها البديل العسكري الوحيد المتاح ضمن الظروف الحالية، أي البديل عن السكوت.

وفي هذا السياق، يتابع الفلسطينيون بفرح أنباء سقوط الصواريخ على المدن الإسرائيلية، ليس تشفيا غرائزيا، ولا توقا لرؤية الأشلاء والدماء، بل بسبب تراكم المرارة والشعور بالظلم، إنه تعبير عن تراكم الأحزان على من فقدوهم، وعلى ما خسروه .. إنه فرح إنساني مشروع لمن استعاد جزءاً من كرامته، إنه فرح مشروع لكسرٍ جديد أصاب صورة الجيش الذي لا يُقهر ..

ولكن، من الواجب إخضاع أي وسيلة كفاح للتقييم، ومقاربة النتائج التي تحققها مع الأهداف المطلوبة، ومعرفة إلى أي مدى تخدم هذه الوسيلة أو تلك المصالح الوطنية العليا؛ فليس هناك وسيلة

مقدسة لا تقبل النقد، ولم يكن في يوم من الأيام هدف الكفاح الوطني إشفاء غليل الناس، ولا إرهاب العدو لمجرد الإرهاب .. للكفاح العسكري أهداف وطنية نبيلة، ليس من بينها القتل بهدف القتل، وللكفاح المسلح أيضاً محددات وضوابط سياسية وقانونية وعسكرية لا يجوز إغفالها. وفي الحروب التي شُنت على غزة جرى استخدام الصواريخ بصورة مكثفة .. وبالتالي على الخبراء العسكريين والإستراتيجيين تحليل النتائج التي حققتها الصواريخ بأسلوب علمي لا يخضع للعواطف والشعارات.

وعلينا أن ندرك أن الموضوع ليس في عدد الصواريخ ومدياتها، رغم أن هذا مهم جدا، ولكن الأهم منه هو طريقة إدارة الصراع؛ فمثلا كوريا الشمالية تمتلك صواريخ عابرة للقارات تهدد بها أمريكا، لكنها دولة فقيرة ويتهددها شبح المجاعات، وكذلك فقد امتلك صدام حسين صواريخ بالستية قصف بها تل أبيب، لكنها كانت السبب في الإطاحة بحكمه.

ومن جهة أخرى، يعتبر الكثيرون أن مجرد دوي صافرات الإنذار في المدن الإسرائيلية هو نصر تاريخي بحد ذاته، وأن مبيت السكان الإسرائيليين في الملاجئ، وصور رعبهم وتراكضهم هو تأكيد على هزيمة إسرائيل .. وفي الحقيقة، وإن كانت هذه اللقطات تعطي مادة زخمة للخطباء؛ إلا أنها لا تصنع نصرا، ولا تثْبت شيئاً سوى جاهزية "الجبهة الداخلية" الإسرائيلية، واستعدادها لحالات الطوارئ.

٢. أسر الجنود

وعلى غِرار الصواريخ، كان لموضوع أَسر جنود إسرائيليين مكان كبير من الاهتمام والجدال في الساحة الفلسطينية. ومنذ اليوم الأول للعدوان بدأ الناطقون باسم الفصائل يتوعدون الجيش الإسرائيلي بأسر جنوده، وقد صور البعض الوضع بأن عملية أسر جندي ستكون نقطة فاصلة في مجريات الصراع، وأخذت الجماهير تترقب باهتمام بالغ أي خبر عن أسر جندي. وبالفعل ما أن تناهت لمسامعها أنباء أسر أحد الجنود حتى خرجت في مسيرات شعبية عارمة تعبر عن فرحتها العميقة.

والآن وبعد أن انتهت الحرب، ومع كل التقدير لتضحيات المقاومة وبطولاتها، بإمكاننا طرح الأسئلة، وحتى الإجابة عليها بهدوء: هل أوقف أسر الجندي العدوان الإسرائيلي ؟ وهل يؤدي أسر جنود بالفعل إلى تحرير أسرى فلسطينيين ؟

من الواضح أن أسر جندي أو حتى مجموعة جنود لم يوقف الحرب، ولم يمنع أي هجوم إسرائيلي، ولم يخفف من حدته، هذا ما لمسناه عمليا من خلال جولات الصراع السابقة، بل إن أسر أي جندي كان بحد ذاته دافعا لتصعيد العدوان، وأحيانا سببا لبدء الحرب.

فمثلاً، عندما قام حزب الله بأسر جنديين إسرائيليين في ٢٠٠٦، شنت إسرائيل على الفور حربا شعواء على لبنان، راح ضحيتها آلاف القتلى والجرحى، ومئات آلاف المهجرين، وخلفت وراءها دمارا هائلا في البيوت والعمران والبنى التحتية. وبعد أن انتهت الحرب، أعلن "نصر الله" أنه لو كان يعلم بأن ردة فعل إسرائيل ستكون على هذه الدرجة من العنف لما أقدم على عملية الخطف. وكذلك كان خطف الجندي "شاليت"، في حزيران ٢٠٠٦، سببا وذريعة لحرب مدمرة شنتها إسرائيل عقب العملية مباشرة، ثم أتبعتها بحربين (٢٠٠٨، ٢٠١٢) تحت ذريعة تحرير الجندي الأسير، راح ضحيتها آلاف القتلى والجرحى من الفلسطينيين فضلا عن الدمار الهائل وتشديد الحصار على القطاع.

وفوق ذلك كانت إسرائيل تعمد إلى إعادة اعتقال الأسرى الذين تفرج عنهم عبر صفقات التبادل، أو تأسر أضعافهم. وإزاء هذه الحقائق يجدر بنا التساؤل: هل تحرير مئات الأسرى يعادل هذا الثمن الباهظ ؟ مع تأكيدنا على أهمية تحرير الأسرى وشرعيته وعدالته. لكنها أسئلة مشروعة وبحاجة لإجابات صادقة وموضوعية تأخذ مصالح الشعب والقضية بالدرجة الأولى، لا مصالح الحزب أو الفصيل. فربما قتل الجندي، مثلا، أفضل من الناحية العسكرية والسياسية، وهو بالتأكيد أقل كلفة من أسره.

٣. توازن الرعب، بين الحقيقة والمجاز

وفي الحرب الأخيرة، كما في الحروب السابقة كثُرَ استخدام مصطلح "توازن الرعب"، وصار من أكثر المصطلحات رواجا، وأكثرها غواية وإرضاءً للجمهور، حتى بات في مخيلة البعض كما لو أنه الحقيقة التي ستحسم الصراع.

الشعب الفلسطيني الذي عجز – لأسباب موضوعية – عن تحقيق توازن استراتيجي عسكري مع إسرائيل، يسعى عوضا عن ذلك إلى تحقيق توازن "معنوي". فمثلا، في السنوات الأولى من انتفاضة الأقصى، عندما كانت المدن الإسرائيلية تشهد عمليات تفجيرية، كان مبرر الجهات الفلسطينية التي تنفذ هذه العمليات هو تحقيق توازن الرعب. وفي الحروب التي شنتها إسرائيل على غزة، تكررت

الصيغة، ولكن بصورة مختلفة؛ فقد حلت الصواريخ مكان الأحزمة الناسفة.

ولكن هذا المصطلح، بمنظار العقل، مصطلح غير دقيق؛ وقد برهنت النتائج النهائية أن هذا المفهوم لم يكن ليحقق أي توازن للرعب بين الطرفين؛ فإزاء العمليات التفجيرية داخل الخط الأخضر كان السكان الإسرائيليون قد بدأوا يتكيفون مع الواقع الأمني الجديد. وكذلك بالنسبة للصواريخ، فالإسرائيليون لديهم الاستعدادات المادية للتعامل مع ظروف الخوف التي تسببها الصواريخ، (خلافا للفلسطينيين)، فما أن يسمع السكان صافرات الإنذار حتى يهرعوا إلى الملاجئ لمدة لا تتجاوز الساعة، ثم يعودوا إلى حياتهم الطبيعية.

وعلينا أن ندرك أيضا أن المجتمع الإسرائيلي مجتمع عسكري؛ بل إن إسرائيل في الأساس دولة عسكرية، تعتاش على الحروب، ودورها الوظيفي قائم على الحرب .. لكن ما هو موجود في أذهاننا أن اليهود هم مجرد سياح، وسكان عابرين، جاؤوا إلى "إسرائيل" التي ستوفر لهم الأمن والرفاهية، وإذا لم تكن كذلك، فإنهم سيغادرونها، وسيعودون إلى أوطانهم الأصلية .. وهذا إن كان ينطبق على فئة معينة منهم، إلا أنه لا ينطبق على الغالبية العظمى، وعلينا أن ندرك هذه الحقائق، لأن بناء الإستراتيجيات القائمة على التصورات الخاطئة سيقود إلى الفشل لا محالة ..

الرعب الذي يصيب السكان في أي مكان في العالم إذا ما تعرضوا للقصف هو حالة إنسانية طبيعية، وعلينا أن نتذكر أن الإسرائيليين الذين يركضون خوفا من صواريخ المقاومة سيجدون ملاجئ تحميهم؛ بينما العائلات الفلسطينية التي تتعرض للقصف الإسرائيلي تسكن أكثرها في أكواخ من الصفيح، وليس لهم أية ملاجئ، وبالتالي سيصابون أيضا بالذعر، ليس لنقص في شجاعتهم؛ بل لأنهم بشر.

البعض وقع في فخ الدعاية الصهيونية التي كانت تروج صورا لسكان إسرائيليين "مدنيين" وهم في حالة ذعر، مع أنه من المفترض في حالات الحروب أن تسعى الدولة إلى إظهار شجاعة مواطنيها، من أجل تماسك الجبهة الداخلية، ولكن العكس كان يحصل في إسرائيل !! والسبب وراء نشرها هذه الصور التي تنطوي عل قدر من المبالغة، هو التغطية والتمويه على الجرائم الإسرائيلية بحق المدنيين في غزة، وإظهار إسرائيل في صورة الضحية الواقعة تحت "إرهاب" حماس وصواريخها، وبالتالي تكسب الدعم والتعاطف الدولي. وإمعانا في ذلك كانت قيادة الجبهة الداخلية الإسرائيلية تتعمد إطلاق صافرات الإنذار في أي مدينة حتى لو كانت لا تتعرض لخطر حقيقي، ومع علمها بتواضع القوة التفجيرية للصواريخ الفلسطينية، لكنها كانت تفعل ذلك لسبب إضافي؛ وهو إبقاء

الجبهة الداخلية في حالة شعور بخطر العدو الخارجي، لأن هذا الإحساس (المخيف) هو العامل الوحيد القادر على تذويب كافة تناقضات المجتمع الإسرائيلي وصهرها في بوتقة موحدة، وتصدير أزماته الداخلية للخارج، أو تأجيل بلورتها وخروجها أطول فترة ممكنة، وإسكات قوى المعارضة، ودفع الجمهور نحو اليمين أكثر فأكثر، ونحو مزيد من التطرف.

صحيح أن الخسائر التي أوقعها القصف الصهيوني بالفلسطينيين أكبر بكثير ماديا وبشريا من الخسائر التي لحقت بإسرائيل؛ إلا أن الخسائر الإسرائيلية على ضآلتها تعتبر فادحة، على الأقل من الناحية المعنوية، حيث أن "مفاجأة" الصواريخ التي سقطت في تل أبيب والقدس ستظل جرحا نرجسيا لن يندمل سريعاً.

٤. هزيمة، أم نصر ؟

إحدى عناوين الخلاف في الساحة الفلسطينية هو اعتبار نتائج العدوان على غزة نصرا، أو هزيمة. هذا الموضوع بالذات كان من المفترض أن يكون مجال عمل لجان وطنية متخصصة، تقوم بتقييم الوضع بموضوعية، وبرؤية نقدية ناضجة.

لكن ما حدث فعليا وللأسف، شيوع نوع من الخطاب الذي يصادر الرأي الآخر، ويحكم عليه مسبقا بتهم جاهزة، فمن يرون أن ما تحقق هو نصر مؤزر ينظرون لكل من يشككون بهذا النصر، أو حتى يناقشونه على أنهم ليسوا وطنيين، وأنهم طابور خامس .. بل ويحكمون على نواياهم ومشاعرهم؛ فإذا تحدث أحد عن الشهداء والضحايا، يصفونه بأنه "يتباكى"، أي يدّعي الحزن، وأنه ليس صادقا في مشاعره.

وهذا النوع من الخطاب هو في حقيقته ضرب من الإرهاب الفكري، يريد بأسلوب ديماغوجي إثارة زوبعة من الشعارات الرنانة لتغطي على حقيقة الموقف، وتمنع رؤيته بوضوح، يريد تثبيت روايته، وطبع صورة معينة في وجدان وعقول الناس، تجعل حتى من نقاشها خروجا عن الوطنية !!

في الحرب على غزة، وتحديد المنهزم والمنتصر، سنجد أنه يصعب القول بأن إسرائيل انتصرت. رغم الخسائر الفادحة في الأرواح والممتلكات التي ألحقتها بالجانب الفلسطيني، ورغم تفوقها العسكري؛ فكل المباني التي قصفتها وهدمتها تقع في بيئة مدنية لا تمتلك أي مضادات للطائرات،

وبين الجانبين خلل فادح في موازين القوى، وغالبية ضحايا الهجمات الإسرائيلية هم من الأطفال والنساء والشيوخ والمدنيين، وليس في هذا أي بطولة، ولا يمكن اعتباره نصرا بأي مقياس، بل هو هزيمة أخلاقية.

وفي المقابل، يصعب التسليم بأن المقاومة ألحقت هزيمة بإسرائيل، أو أنها أنجزت نصرا تاريخيا .. وهذا ليس بسبب التفاوت الكبير في أعداد الضحايا وحجم الخسائر على الجانبين، بل أيضا في شروط وكيفية وقف الحرب، وصيغة التفاهمات والاتفاقيات التي أُبرمت. وقد دأبت حركات المقاومة على اعتبار أي مواجهة مع جيش الاحتلال نصرا مؤزرا لها، وهزيمة لإسرائيل .. فإذا كانت كل هذه الهزائم قد لحقت بإسرائيل، فكيف نفسر تفاقم بؤس واقعنا وضعفنا، في مقابل قوة إسرائيل المتزايدة، وتفوقها على كافة المستويات، وزيادة غطرستها وعدوانيتها !!

كما يصعب القول أن المقاومة قد انهزمت؛ بل أنها انتصرت أخلاقيا، وأبلت بلاء حسنا. فلا حماس ولا غيرها كان لديه وهم تدمير إسرائيل وهزيمتها من خلال هذه الحرب غير المتكافئة، لكن كل حرب لا أخلاقية يخوضها جيش الاحتلال تكشف للعالم حقيقة هذا الكيان، وتقرب من نهايته. ويكفي فصائل المقاومة أنها خرجت من تحت الردم، وطورت منظومتها الصاروخية، وفاجأت العدو، وقصفت مدنا إسرائيلية طالما اعتقدت أنها آمنة، و كبدت الجيش الإسرائيلي خسائر مهمة في الحرب البرية. وفي هذه الدلالات الرمزية قيمة كبيرة، ستغير إلى حد ما قواعد الاشتباك، وستفرض معادلات جديدة، يمكن البناء عليها وتطويرها في المستقبل.

ومن المهم أيضا أن نرى الصلة الوثيقة بين المقاومة المسلحة في غزة، وبين حالة الغضب الشعبي في مدن ومخيمات الضفة الغربية، حيث أسقط هذا النهوض الشعبي كل الحسابات التي راهنت على استكانة الفلسطينيين، وعلى تثبيت الانقسام، وأيضا من المهم أن نرى الفعل السياسي والنشاط الدبلوماسي في المحافل العربية والدولية الذي كان له دور هام في إنهاء الحرب، والتوصل إلى تفاهمات وقف إطلاق النار. والأهم من ذلك حالة التوحد والانسجام في الموقف السياسي بين كافة الفصائل والقيادة.

صمود الناس في غزة، حتى لو رأى البعض أنه خيار لا مفر منه، وممر إجباري وحيد، ومسألة حتمية ولم تعط لهم فرصة الاختيار بين قبول الحرب أو رفضها .. إلا أنه لا يمكن النظر له من زاوية الإشفاق الإنساني وحسب، مهما بلغت قساوة المشاهد، بقدر ما يتوجب احترام الجانب البطولي

فيه .. ورؤيته بمنظار التمسك بالحياة, وبالكرامة، واحتضان المقاومة، فالمدنيون هم أبطال هذه المواجهة، وهم الذين دفعوا فاتورتها الباهظة .. وهم الذين سينطلقون من تحت الركام، وسيبنون مستقبلهم الذي دفعوا حاضرهم ثمنا له.

٥. التضحية المطلوبة، ومشاركة المدنيين

ومن المواضيع الهامة التي تفاعلت وبشدة أثناء الحرب، موضوع ثمن التضحية المطلوبة. وأمام هذا الموضوع الشائك برزت كالعادة، وجهتا نظر، وهما إلى حد ما متناقضتان: الأولى تقول أن قطرة دم فلسطيني أهم وأغلى من أي إنجاز سياسي. وأصحاب هذا الرأي لا يقولون أنهم لا يريدون التضحية، ولكن حسب رأيهم؛ فإن الهدف من المقاومة هو تحقيق الإنجاز السياسي بأقل قدر ممكن من التضحيات، وتجنيب الشعب الخسائر بالأرواح كلما كان ذلك ممكنا، أي تبني الوسائل الكفاحية التي لا ينجم عنها خسائر باهظة. والثانية تقول أن الشعوب لا تتحرر إلا بآلاف الشهداء والدماء الغزيرة، وأن الإنجازات السياسية الكبرى لا تتحقق إلا بالتضحيات الكبرى.

وجهتا النظر تثيران الجدل، حيث كل فريق يقدم أطروحته مشفوعة بأمثلة من تاريخ الثورات والشعوب التي تحررت. ولا شك أن كلتا الأطروحتين تستحقان الاحترام؛ ولكن لماذا في كل مرة يحصر العقل العربي تفكيره بخيار واحد وبطريقة حادة وحاسمة ؟

وكما هو معروف؛ فقد دفعت غزة ثمنا باهظا من جراء العدوان المتكرر عليها، ولذلك يطغى الجدال في هذا الموضوع أكثر من غيره على المشهد السياسي، خاصة إزاء عروض الهدنة والتهدئة. ودون الخوض في التفاصيل، إذا كانت نتيجة تلك التضحيات الجسيمة رفع الحصار عن غزة بشكل كامل، مرة أخيرة وإلى الأبد، وضمان عدم تكرار العدوان؛ فإن هذا الهدف يستحق التضحية. أما إذا كان قبول التهدئة أو رفضها انعكاسا لتجاذبات سياسية، وصراعات إقليمية، أو لتسجيل نقاط لصالح حزب معين؛ فإن هذا نوعٌ من المقامرة بأرواح الناس لحسابات رخيصة، والتاريخ لن يرحم من يتاجر بآلام الشعب.

نقطة الخلاف المركزية في هذا الموضوع تحديدا، ليست مشروعية المقاومة من حيث المبدأ، ولا حتى أدواتها؛ بل هي كيفية استخدام هذه الأدوات، من حيث المكان والتوقيت، أي بكلام أوضح

حول استخدام المرافق العامة والأماكن السكنية كمنصات للصواريخ، أو للأنفاق، وبالتالي إعطاء إسرائيل ذريعة لقصفها، الأمر الذي نجم عنه مضاعفة أعداد القتلى والجرحى في صفوف المدنيين، ومضاعفة حجم الدمار.

وإذا راجعنا تاريخ الثورة الفلسطينية منذ انطلاقتها، وفي كل المعارك والعمليات العسكرية التي نفذتها لوجدنا أن ما قامت به حماس قامت به من قبلها فتح وبقية فصائل الثورة. مما كان يستدعي رد فعل إسرائيلي استهدف القرى اللبنانية.

في المقابل، رأى البعض أن حماس باستخدامها المرافق العامة في الأعمال العسكرية، وبناء الأنفاق تحت الأحياء السكنية وإطلاق الصواريخ من بين البيوت كان انعكاسا لمنهجها في إدارة الصراع، وهو المنهج المستعد لخوض أي مغامرة، دون أن يأخذ بعين الاعتبار مصالح الجماهير ومتطلباتهم الحياتية، ويغلِّب مصلحة الحركة على المصلحة الوطنية، ويرى في الموت مجرد استشهاد في سبيل قضية نبيلة، ولا مانع لديه من سقوط أعداد كبيرة من الضحايا طالما ذلك يمنحها النصر الذي تطمح إليه، وهو عبارة عن تثبيت حكمها في غزة، ويرى أصحاب هذا الرأي أن حماس في بعض الأحيان كانت تخوض معارك إعلامية وتنجر إلى مواجهات غير محسوبة لتحقق من خلالها أهدافا دعائية لتحسن من صورتها، ولكن على حساب السكان المدنين، ويضيفون: بأن حماس غير مستعدة لتبني أشكال أخرى من المقاومة لا تتناسب مع أيديولوجيتها، حتى لو كانت تلك الأشكال تحقق نتائج سياسية بتضحيات أقل بكثير، مثل المقاومة الشعبية، ما يعني أن حماس تناضل من أجل أيديولوجيتها وعلى هديها، بغض النظر عن المصلحة الوطنية.

وإزاء ما جرى من مذابح في غزة، سعى البعض لتحميل حماس مسؤولية الخسائر البشرية والدمار الهائل، بحجة أن الصواريخ هي التي جرّت إسرائيل للحرب، وأن حماس استخدمت الناس دروعا بشرية .. وباعتقادي أن مثل هذه الأقاويل إنما تصب مباشرة في خدمة إسرائيل، وتبرؤها مسبقا من مسؤولياتها القانونية عن المذابح التي اقترفتها في غزة، وهذا ضرب من الانتهازية السياسية، والكيل بمكيالين. إسرائيل هي المسؤول الأول والأخير عن كل ما جرى، هي التي بدأت العدوان، وهي التي قتلت ودمرت، وهي التي تتحمل كل تبعات الحرب السياسية والأخلاقية؛ ولا يتحمل أي طرف فلسطيني المسؤولية؛ لا قوى المقاومة، ولا قيادة السلطة؛ فقوى المقاومة على أرضها وبين ناسها، تمارس حقها المشروع في الدفاع عن نفسها، وعن شعبها.

وحتى لو تعذر علينا حسم الجدل لصالح رؤية معينة؛ فإن هذا لا يعني أبدا التسليم المطلق بصحة هذه المقولات؛ إذ أن المقاومة بحد ذاتها ليست هدفا، ولا صنما مقدسا، وإذا علمنا أن هذا الأسلوب، أو تلك الوسيلة تسبب أضرارا وخسائر أكثر من غيرها، فمن المنطقي، بل من الواجب إخضاعها للمراجعة والتقييم.

الخلاصة

جاء العدوان الإسرائيلي الأخير تواصلاً مع الحروب السابقة التي شنتها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني لتحقيق هدفها الأساسي المتمثل بإضعاف الفلسطينيين، وتدمير مقومات بقائهم وتصفية قضيتهم. وبالإضافة لذلك عمدت إسرائيل لتحقيق جملة من الأهداف الإستراتيجية وأهمها: عزل قطاع غزة عن الضفة، وحصر القضية الفلسطينية بمطالب غزة (وهي مطالب حياتية أساسية مشروعة)، ومواصلة سياسات الاستيطان والتهويد وفرض الوقائع على الأرض، والحيلولة دون قيام دولة فلسطينية؛ إلى جانب أهداف سياسية تكتيكية أخرى في مقدمتها إسقاط حكومة التوافق الوطني، وتكريس الانفصال. وبالطبع إلى جانب الأهداف الأمنية التي حددتها بتدمير شبكات الأنفاق، ووقف صواريخ المقاومة من قطاع غزة. ولم يتحدث أي قائد إسرائيلي عن احتلال القطاع، أو إسقاط سلطة حماس.

وبالنسبة لفصائل المقاومة، فهي في الحروب الثلاثة الأخيرة على القطاع، كانت تخوض معارك دفاعية؛ حيث إسرائيل هي المبادرة بالحرب في كل مرة، وهذا يعني أن فصائل المقاومة كانت تجد نفسها أمام واقع مفروض عليها فرضا، وبالتالي ستحدد أهدافها السياسية ضمن هذا الإطار، وهي في الحرب الأخيرة كما عبرت عنها حركة حماس: فتح معبر رفح البري بشكل نهائي، وإنهاء الحصار، ووقف العدوان والتوقف عن سياسة الاغتيالات، بالإضافة للميناء والمطار والمنطقة العازلة ومساحة الصيد البحري. ولم يطلب أي قائد حمساوي من العرب مددا عسكريا أو سلاحا، ولم يتحدث أحد عن مطالب سياسية لها علاقة بقضايا القدس والمستوطنات والجدار وغيرها.

بمعنى أدق أنه، ومهما وصلت الأمور بين الطرفين فإن ذلك يدخل في إطار تحسين الوضع العسكري لتحسين شروط التهدئة فقط. ومع ذلك، فإن فصائل المقاومة في العدوان الأخير على غزة استبسلت

في الدفاع عن النفس، وقدمت صورة بطولية استحقت احترام الشعب الفلسطيني.

لكن أداء المقاومة البطولي على الأرض وفي الميدان لا يعني بالضرورة أن أداء القيادة السياسية بنفس المستوى، فقد سعت القيادة السياسية لفصائل المقاومة (وبالذات حماس) لفرض نوع من الخلط في الوجدان والعقل الجمعي بين صورة المقاوم البطل وشجاعته في الميدان، وبين صورة القائد السياسي (الذي يريد قطف ثمار الحرب لصالح مكانة حزبه). فصار أي انتقاد لأداء القيادة السياسي يواجه بالتذكير ببطولات المقاومين على الأرض أيام الحرب.

ومع ذلك، فإن تحديد أهداف الحرب من قبل أي طرف لا يعني بالضرورة أنه قادر على تحقيقها. وفي العدوان الأخير كان واضحا أن إسرائيل بالرغم من استخدامها المفرط للقوة العسكرية إلا أنها عجزت عن فرض إرادتها بالكامل على الطرف الفلسطيني، ومع حجم الدمار والخسائر الكبيرة التي تكبدها القطاع؛ إلا أن الفلسطينيين ما زال بمقدورهم تغيير الواقع السياسي، وفرض الكثير من الأمور على الطرف الآخر، أو على الأقل إفشال مخططه، خاصة فيما يتعلق بتثبيت الانقسام.

المطلوب من فتح وحماس أولاً طي صفحة الانقسام مرة أخيرة وللأبد، وتمكين حكومة التوافق من المضي قدما في مشاريع إعمار غزة، لأن غزة بالفعل تحتاج لهدنة طويلة، حتى تلتقط أنفاسها، وتستعيد عافيتها. والمطلوب من فتح والفصائل الأخرى والسلطة والجماهير في الضفة الغربية خوض حرب استنزاف ضد المستوطنين، وتصعيد المقاومة الشعبية وتعميمها، مع استمرار المقاطعة الاقتصادية، إلى جانب حملة منظمة في المحاكم الدولية لمحاسبة إسرائيل، وحملة سياسية تركز على العلاقات الثنائية مع الدول الصديقة، وهجمة دبلوماسية وإعلامية في المحافل والمنظمات الدولية، وصولا إلى محاصرة إسرائيل وعزلها، كما حدث لنظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا.

أوراق عربية

ثقافة التسامح والتعايش مع الآخر:
الثقافة بين التنوير والتكفير

أ.د. صالح خليل أبوأصبع*

أولاً. مدخل

نعيش أجواء الاقتتال والتوتر وعدم اليقين والشك وعدم التسامح والتعصب الفكري والقبلي والطائفي وعدم الثقة وفقدان الشعور بالأمان والأمن الاجتماعيين ... نعيش ذلك مع فقدان القدرة على التواصل بعضنا مع البعض الآخر بطريقة فعالة . أطياف المجتمع تعيش في حالات جزر منعزلة .. شرائح المجتمع المتنوعة :العمال، أصحاب أعمال، المعلمون ، المزارعون ، البدو الجنود / الضباط ..المرأة والرجل الشباب والشيوخ الخ إنها فوارق ليست اقتصادية وليست مراكز اجتماعية فحسب .. إنها حواجز ثقافية واتصالية تحيلنا في الوطن العربي إلى ظرف استثنائي يغمره الاقتتال والدمار .

ولم تفجر دولة الخلافة الإسلامية المساجد والكنائس والمقامات الدينية فحسب بل فجرت معها في المجتمع العربي والإسلامي حالة التنوير.

فالتنوير ليس ظرفاً استثنائياً إنه حالة وعملية تنبع في المجتمع من خلال المعاناة والنضال وأداته العلم والبحث العلمي وحرية التفكير والعقيدة ، فكما حصل في الغرب كان التنوير تتويجاً لنضالات من أجل سيادة العقل والمساواة والتسامح واحترام كرامة الإنسان والحقوق وحرية الفكر والمعتقد.

---

* باحث وأكاديمي فلسطيني

هذه حالة عرفتها المجتمعات الإسلامية في ظل الخلافة الأموية والعباسية، وعرفتها الأندلس. وكنا نجد أخلاطاً من الأجناس والمعتقدات تتعايش معاً ، ويتبوأ فيها أفراد من أديان واصول مختلفة مراكز مرموقة في تلك المجتمعات .

وما كان مرد النهضة التي نفتخر بها في تاريخنا الإسلامي إلى الدين كعقيدة فحسب، بل يعود إلى ما وفّره هذا الدين من التسامح وحرية الفكر والمعتقد في عيش مشترك ، مما أتاح نقل العلوم والفلسفات عن اليونان والهند وغيرهما دون أي حرج، لتكون الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى هي قمة الحضارة الإنسانية التي كان الأوروبيون إليها يرنون ويتعلمون لغتها وينقلون تراثها.

والذي يجري في الوطن العربي من مظاهر التكفير اليوم لا يمكن أن نفهمه دون معرفة الظروف التي آلت إليه من حالة الإرباك الفكري والتعصب والإقليمية والطائفية والعشائرية.

إن نظرة إلى ستينات القرن العشرين تحيلنا إلى مجتمعات عربية تمور بالحلم القومي في النهوض والعدالة والحرية والوحدة وتحرير فلسطين. مجتمعات عرفت تأسيس العديد من الجامعات العربية ، وشهدت نهضة علمية وفرت المدارس والجامعات التي أصبحت متاحة لعامة الناس، وشهدت نهضة صحافية وإعلامية واسعة ، وشهدت نهضة فنية كبيرة في مجالات المسرح والسينما والفن التشكيلي والموسيقي والغنائي ... وقادت جميعها إلى حركة تنوير شاملة في المجتمعات العربية. وأتاحت ثقافة التنوير هذه المجال لكل الأفكار والأيدولوجيات أن تتواجد وأن تتعايش معاً ، وكانت الخلافات الفكرية والحزبية ليست سبيلا للتناحر بل للتنافس . وكنا نجد في الأسرة الواحدة الاشتراكي، مع أخ مسلم مع القومي، ويعيش في الحي الواحد المسلم بجانب المسيحي، لا شيء كان يدعو إلى التناقض أو الصراع ، كان المجتمع فيه لحمة الانتماء إلى الوطن ، ومعتقدات الفرد وأفكاره تخصه وحده ،فالدين لله والوطن للجميع.

أظن ان هزيمة حزيران كانت مفترق الطرق، وكانت بداية التمزق في المجتمعات العربية.. ليس فقط لأن الهزيمة حطمت الأحلام العربية في التحرير والوحدة ، بل لأنها ايضاً هزمت الأيدولوجيات السائدة ، وكرست مفاهيم السلطوية في المجتمعات التي لا تتيح الفرصة للتعبير عن الرأي ، وتخنق بذور الديمقراطية في المجتمعات ، ولذا كان نمو الفكر الديني الأصولي نمواً سريعاً ، للبحث عن خلاص يستند إلى فكرة أن الرجوع إلى كتاب الله سوف يكون هو السبيل للخروج من أزمة

المجتمعات. ولقيت هذه الحركات الإسلامية دعماً رسمياً من الحكومات بطريق مباشر أو غير مباشر ، كان هذا واضحاً في مصر في عهد السادات الذي لقب نفسه بالرئيس المؤمن ، وكان هذا واضحاً في الأردن حيث أتيح لحركة الإخوان المسلمين فرصة لم تتح للأحزاب الأخرى حرية الحركة الجماهيرية ، بل أتيح لها الدخول إلى وزارة التربية والتعليم واستلام زمامها لعدة عقود[1].

وكانت الأنظمة السياسية العربية تنظر بعين الشك والخوف من القوى الراديكالية اليسارية والقومية والاشتراكية التي كانت لها برامجها الفكرية والسياسية التي كانت تتناقض مع الواقع القطري والمشاريع السياسية للأقطار العربية .

وعلى هامش القوى الإسلامية الرئيسية والقوى الراديكالية ، كانت تنمو قوى دينية متعصبة لا تقرأ الدين بعين العصر الذي تعيشه ، قوى وجدت من يُسهّل وجودها ومن يدعمها مالياً ، ليست في حقيقتها خدمة للدين بل لتحقيق أجندات سياسية ، في ظل ظروف قمعية تعيشها المجتمعات العربية ، مجتمعات يعشعش فيها الفساد والوساطة والمحسوبية والظلم الاجتماعي ، مجتمعات تنعدم فيها الديمقراطية وتزيف فيها الانتخابات وينجح فيها الحاكم بنسبة ٩٩٪ ، ويظل الحاكم الجمهوري على الكرسي إلى أن يموت أو يُنتَزع منه انتزاعا ، ويسعى لتوريث الحكم لأبنائه ، شهدنا هذه الحالة في سوريا وكانت تسير مصر وليبيا واليمن على نفس الخطى.

لقد كانت الحالة العربية مهيأة للبحث عن حلول، وكانت هذه الحالة مهيأة أيضاً لتنفيذ المخططات الغربية -وتحديداً الأمريكية -لتمزيق الوطن العربي الممزق إلى كيانات أكثر تمزيقاً، وكان من السهل اختراق الحالة العربية من قبل الغرب ، بدعمهم القوى التي تعمل على إذكاء الصراعات الطائفية ليبرز على السطح تمزيق وحدة الدين الواحد ، وليصبح الصراع في بعض مظاهره ليس صراعاً على السلطة ، ولكنه صراع على صحة العقيدة لدى جميع مكونات المجتمع الشيعة والسنة والعلويين، والأزيديين والمسيحيين والأكراد والأمازيغيين ...ألخ

هكذا يتمزق المجتمع بينما ينعم الكيان الصهيوني بالراحة ، ويعمل على تقسيم المسجد الأقصى وبناء الهيكل والعرب يتفرجون ..

هكذا أصبح تكفير القوى التي تخالف داعش وجبهة النصرة وأحرار الشام مثلاً مبرراً لقتل كل من يختلف معهم ،أو يختلف عنهم ، او يخالفهم الراي ،، وكأنهم لم يقرأوا قول رسول الرحمة حين

بعث جيشًا : (انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخاً فانيًا، ولا طفلاً صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين)

وكأنهم لم يقرأوا وصية الخليفة أبي بكرٍ الصدّيق رضي الله عنه عندما وجَّهَ قائدَ جيشِه إلى بلادِ الشامِ أسامةَ بنَ زَيْدٍ رضي الله عنهما ، التي جاء فيها :(أيُّها الناسُ ! قِفُوا أُوْصِيكُمْ بعَشْرٍ، فاحْفَظُوها عنّي :لا تخونُوا، ولا تَغُلُّوا، ولا تُمثِّلوا، ولا تقتُلُوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تَعْقِروا نخلاً ولا تُحْرِقُوه، ولا تَقْطَعوا شَجَرَةً مُثْمِرَةً، ولا تَذْبَحُوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا لَمأكَلَةٍ. وسوفَ تمرُّونَ بأقوامٍ قد فرَّغُوا أنفسَهم في الصَّوامعِ، فدعوهمْ وما فرّغُوا أنفسَهم له، وسوف تَقْدَمُون على قومٍ يأتونكم بآنيةٍ فيها ألوانُ الطعامِ، فإذا أكلْتُمْ منها شيئاً بعدَ شيءٍ، فاذكُروا اسمَ اللهِ عليها..)

ثانيا.مفهوم الثقافة:

مصطلح الثقافة من المصطلحات التي تحمل دلالات تتصف بالعمومية حيناً وبالخصوصية حينا آخر، وتتراوح بين الدلالات الأنثروبولوجيا الاجتماعية للثقافة والدلالات الأدبية للمصطلح.

وقد لاحظ د. مصطفى حجازي أن مفهوم الثقافة يخرج بمعان ثلاثة أساسية: معنى لغوي، آخر فكري، وثالث اجتماعي. وقد تبنى د. مصطفى حجازي تعريف تايلور Taylor للثقافة بمفهومها الاجتماعي الواسع وهو أكثر التعريفات شيوعاً في الدراسات الانثروبولوجية، وهذا التعريف يرى أن الثقافة "هي تلك المجموعة المركبة التي تتضمن المعارف والمعتقدات والفن والحق والأخلاق والأعراف وكل الاستعدادات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع".[٢]

ويخلص د. مصطفى حجازي ورفاقه إلى أن الثقافة هي: "..... مجمل ما يقدمه المجتمع لأبنائه من عادات وقيم وأساليب سلوك وتوجهات وعلاقات وأدوار وتقنيات كي يتعلموها ويتكيفوا معها، فهي نمط معيشة للجماعة لا أكثر ولا أقل. إنها طريقة ائتلاف هذه العناصر معاً كي تكون كلاً يعطي للجماعة طابعها المميز، وكياناً من أساليب السلوك والعلاقة والتعبير. ومع أن المقومات الأساسية للثقافة متقاربة في مختلف المجتمعات إلا أن هناك اختلافاً في التآلف يعطي بنى مختلفة ومتفاوتة في درجة تعقيدها، وهو ما يميز ثقافة عن أخرى[٣].

وتتكون الثقافات من ممارسات ومعتقدات دينية وتربوية وغذائية وفنية ولعبية ، وتتعلق كذلك

بقواعد تنظيم القرابة والعائلة والتجمعات السياسية ، وتحتل فيها الممارسات والمعتقدات المرتبطة بالجسد والصحة والمرض موقعاً هاماً . ويتطلب نقلها واستيعابها وقتاً كافياً . إنهما يتطلبان وقتاً كثيراً [٤].

وكما يرى الباحثان هيرسكوفتز Herskovitsورفيقه باسكوم Bascom"أن الثقافة لا تضم فحسب المؤسسات الاجتماعية وأشكال السلوك المكتسب التي تنبثق منها، بل تضم أيضاً تلك المظاهر من قوى الإنسان الخلاقة، التي تُمكِّن الفنان من انتاج شيء جديد متميز ينفرد في انتاجه ضمن نطاق الأشكال والأنماط التي تعتبر جزءاً من تقاليده، وتُمكِّن الفيلسوف أو الكاهن من التوفيق بين التناقضات الظاهرية في المعتقدات الدينية، وتُمكِّن الراوي من الاهتداء إلى نقطة تحول جديدة في موضوع إحدى القصص المألوفة، وهي التي تُمكِّن المخترع من إدخال تغييرات تكنولوجية تستند إلى معارف سابقة. ولا تقتصر الثقافة على المؤسسات التي تتحكم في ردود فعل الإنسان تجاه زملائه في المجتمع، وإنما تتناول أيضاً أوجه السلوك الإنساني الخارجة عن نطاق المؤسسات كاللغة، والعلاقة بين اللغة والسلوك، والعلاقة بين الشخصية والثقافة، ونظام القيم الذي منح دلالته لطرق السلوك المقبولة عند أي شعب من الشعوب." [٥]

ثالثا. مفهوم التنوير

إن التنوير حركة مجتمعية تُعبِّر عن حالة فكرية، تسود مجتمعاً ما ، تستند إلى العقل والعلم والمساواة والحرية والعدالة والتسامح . ويعبر مصطلح التنوير عن حقبة كما يعبر عن حركة فكرية وكما يعبر عن أدوات ، ومن ناحية زمنية قد يكون حالة مؤقتة أو حالة مستمرة .. . ويوجد التنوير في كل مجتمع، فالتنويركما يرى حسن حنفي " يظهر كاتجاه في كل حضارة، وليس خاصاً بالحضارة الأوروبية وحدها، بل إنه يمكن القول إن التنوير في الحضارة الأوروبية تراكم تاريخي طويل صبت فيه إبداعات الأمم السابقة عبر التاريخ. ثم ذاع من خلاله نظراً لحداثته وانتشاره ولمركزيته واستعماره وهيمنته، ومحاولته القضاء على ثقافات الأطراف. فنسي الناس تاريخ التنوير وأنه حركة موجودة لدى كل شعب، وفي كل حضارة ،بعد أن أصبحت الحضارة الأوروبية هي ممثلة الحضارات الإنسانية كلها. [٦]

أ-التنوير في الغرب

ارتبط التنوير في الغرب بسيادة العقل والنهوض بالمعرفة وترويج العلم ، وإصلاح المجتمع، والتجريبية والصرامة العلمية. والديمقراطية والمساواة والحرية الشخصية والحرية الكاملة في التفكير والتعبير، والحد من السلطة الدينية، والفصل الكامل بين الكنيسة والدولة، وإزالة تجاوزات الحكومة ، وكسر الدائرة المقدسةالمتمثلة بالعلاقة المترابطة بين الارستقراطية الوراثية وقيادة الكنيسة التي منحت الحق الإلهي للملوك في الحكم. مما منح الملك صفة الحكم الإلهي ، باعتباره حاكماً مطلقاً يتمتع بهالة من القدسية والاحترام الديني، ويمتلك سلطات غير محدودة.

ويربحسن حنفي أن التنوير " موقف فلسفي يقوم على عدة مفاهيم رئيسية تنتظم فيما بينها في تصور واحد للعالم مثل: العقل، والطبيعة، والإنسان، والحرية، والمساواة، والتقدم. فالعقل ضد التقليد الموروث من أجل إفساح المجال للإنسان لتأسيس نظرية جديدة للمعرفة تقوم على استقراء قوانين الطبيعة ،والاعتماد على الحس والتجربة بعد أن لم تثبت المعارف الموروثة القديمة من الكنيسة وأرسطو أمام النقد العقلي العلمي الحديث. والطبيعة كتاب مفتوح ضد الكتاب المغلق، الموسوعة القروسطية والأرسطية. لها قوانينها الثابتة ونظامها الحتمي. هي مصدر كل علم ومعرفة. إليها يتوجه العقل ليستقرئ قوانينها بدلا من استنباطها من عقائد نظرية ومذاهب موروثة أو نصوص مكتوبة سلفاً. والإنسان مركز الكون وله الخلافة في الأرض والوراثة للصلاح. وهو خالق أفعاله، حر مختار مسؤول، قادر على التمييز بين الخير والشر. ثم تتحقق حريته في المجتمع في النظام الديمقراطي الذي تتحدد فيه سلطة الحاكم بالمحكوم عن طريق العقد الاجتماعي. فالحاكم يحكم باسم الشعب، باسم الأمة". [٧]

ب -التنوير عند العرب

عرف الوطن العربي بوادر التنوير في مطلع القرن التاسع عشر نتيجة عوامل مختلفة أهمها الاتصال المباشر بالغرب- عن طريق البعثات التعليمية وحملة نابليون على مصر والارساليات التبشيرية - ودخول المطبعة وانتشار المدارس والصحافة خصوصاً في مصر وبلاد الشام وتونس.

وكانت حركة التنوير حركة فكرية تستهدف تحقيق تقدم الإنسان العربي في جميع المجالات السياسية والفكرية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية، لتحقيق نهضة تضمن حرية الانسان

وتحرير فكره وإرادته وخياراته وتمكين سيطرة العقل على جميع مناحي الحياة ، لتحقيق الحرية والديمقراطية والعدل والمساواة.

وحصلت البلاد العربية في القرن العشرين على استقلالاتها ، وشهدت حركات تنويرية مع انتشار التعليم الأساسي والجامعات ووسائل الإعلام الجماهيرية على الرغم من حركات الجذب العكسي بالارتداد إلى الماضي عبر مقولة ليس في الإمكان أبدع مما كان .

وحينما عبر الوطن العربي إلى القرن الحادي والعشرين بات المرء ينظر إلى واقعه متحسّرا وآسفا وهو يراه يرتد إلى الخلف بعوامل داخلية وخارجية، إذ يشهد التعليم على الرغم من انتشاره مستويات متدنية من المخرجات سواء في التعليم المدرسي أو الجامعي.، ويشهد كذلك تراجعاً في الاهتمام بالعلوم الطبيعية والفلسفة ، ويعاني من قمع الحريات الشخصية والفكرية مما يشير إلى أن أساسيات النهضة والتنوير باتت في تراجع. إذ أن هذا التقهقر ابتدأ في الثلث الأخير من القرن العشرين وما زال مستمرا.

وقد اهتم الرواد الأوائل للنهضة بقضية الحرية والنهوض الفكري أمثال رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الافغاني وقاسم أمين وخير الدين التونسي والكواكبي وأديب اسحق وشبلي الشميّل ... وغيرهم .

لقد قام رواد التنوير هؤلاء بخوض معركة التجديد في المجال الديني و السياسي، ليواجهوا السلطة السياسية المستبد ة من الرؤساء القساة الجهلاء وسلطة المحافظين من العلماء الغفل الأغبياء حسب تعبير الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد »

رابعا. ثقافة التكفير

أ -ثقافة التكفير وتجاهل أسس التسامح في الإسلام

تنبع ثقافة التكفير من تحجر في فهم البعض لنصوص الفكر الديني إذ اعتمدوا حرْفية التفسير. ويرى أحد الباحثين: "إن انبعاث جماعات تكفيرية مثل داعش ليس سببه وجود نص تراثي يعزز اتجاه التكفير، بل وجود ظروف سياسية واقتصادية تجعل من توظيف هذا النص، ومن التحشيد والتعبئة عبره، أمراً ممكناً. لكن هذا لا ينفي أهمية دراسة المكون الإيديولوجي لداعش، وفهم الارتباط بينه وبين الوهابية، لفهم سلوكيات وممارسات هذا التنظيم، وطبيعة التأصيل العقائدي

للعنف الذي يمارسه، من دون الوقوع في شَرَك اعتبار العنف ظاهرة سلفية وهابية، وتناسي دوافع العنف المختلف. [٨]

واليوم يعتبر تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام و تنظيم "جبهة النصرة"، ممثلين للفكر السلفي الجهادي التكفيري، وهما من أكثر تنظيمات الحركات الإسلامية عنفاً في تاريخنا المعاصر . ويعتمد خطابهما الديني المتعصب بالتوجه إلى طائفة السنة. كما يتبنيان العنف والإرهاب كنهج لتحقيق أهدافهما.

ورغم تقاسمهما لنفس المرجعية الأيديولوجية المتطرفة، إلا أن تنظيم "النصرة" يتهم مقاتلي "داعش" بالتشدد في تطبيق الشريعة، وقد تحولت خلافاتهما إلى حرب طاحنة بينهما. ولم يستثن تعصب "داعش"، حتى حلفائها الموضوعيين في الأزمة السورية مثل "الجيش السوري الحر" الذي كفره التنظيم واتهمه بالارتداد عن الدين الإسلامي. [٩]

إن التكفير والحكم بالردة موجود عند تنظيم داعش، خصوصاً لمن يختلف معه أو يخرج على الطاعة المطلقة لقيادته، وقام بالتقتيل دون رحمة لكل من يخالفه وكانت بعض مجازره قتل المئات من عشائر البونمر السنية ، وكان قد فعل مثل ذلك بأفراد قبيلة الشعيطات في دير الزور.

ويرى الكاتب السعودي بدر الإبراهيم أن " التكفير هنا هو دافع للقتال، والارتباط وثيق بين التكفير والقتال في الخطاب الوهابي، فتكفير أهل مدينة أو قرية موجب لقتالهم، كي يخضعوا للدولة الممثلة للتوحيد، وهذا أمر يتبناه داعش بلا مواربة. والقتل لم يكن فقط في الحروب ضد مخالفي الوهابية، بل تجاوزه إلى عمليات اغتيال لشخصيات معينة في غير أوقات الحرب، كاغتيال أمير بلدة العيينة عثمان بن معمر وهو في مسجده بعد أدائه صلاة الجمعة، بسبب الاشتباه بتآمره على الدعوة الوهابية، رغم أنه كان في الظاهر حليفاً، ويُذكر هذا بالاغتيالات التي يقوم بها داعش تجاه من يعتبرهم صحوات، ويشتبه بأنهم يتآمرون عليه، وإن كانوا من صفه. ولا يتوقف الأمر على استحلال الدماء، بل حتى أموال الكفار مستحلة، أي أن التكفير يشرعن سرقة مال من يتم تكفيره.[١٠]

ويرى علي أنوزلا في مقالته البحث عن جذور فكر داعش" في التاريخ الإسلامي هل مهدت "الوهابية" الطريق لصعود فكر "داعش" التكفيري أن هناك أوجه شبه ما بين النهج العنيف الذي كانت تتبعه هذه الحركة "الوهابية" بعد تحالفها مع آل سعود لفرض وجودها، وما بين العنف الذي يتبناه

تنظيم "داعش" لفرض أفكاره وبسط نفوذه. فما تشهده اليوم مدن العراق وسوريا من تدمير للمساجد والحسينيات الشيعية وللمزارات والقبور الصوفية، ومن محاكمات شرعية تقيم الحدود وتنفذ الإعدامات الجماعية العشوائية، نكاد نجد شبيها له في تاريخ حركة آل سعود المسنودة بالفكر الوهابي، ما بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٢٥، حيث قاموا بتدمير مقابر أهل البيت، وصحابة الرسول محمد، واجتثوا المساجد وبيوت الأولياء، ودكوا القباب والمزارات. [١١]

ويؤكد بدر الإبراهيم وجود الصلة بين فكر داعش الذي يمثل العودة إلى أصول الوهابية، ولكنه يرى أنه يناقض بشكل حاد الدولة السعودية الحالية، وهو ما يجعل التحليلات حول ارتباط داعش بالسعودية، أو ولادة التنظيم من رحم المؤسسة الدينية الحالية في السعودية، أمراً خالياً من الصحة، فالتنظيم يعتمد على المبادئ التي يعتقد أن الدولة السعودية قد التفّت عليها، وينظر للسعودية نظرته لكل الدول المنحرفة عن تطبيق الشريعة، لذلك تنظر السعودية كغيرها من دول الإقليم إلى التنظيم بقلق، وهي تتأهب لمواجهته. الصراع مستمر بين وهابية تسير وفق مقتضيات الواقع، وأخرى تعود إلى الأصول لتهاجم الواقع.[١٢]

ب- سلوكيات متطرفة وفتاوى تكفيرية للمتشدّدين التكفيريين :

تستمدّ داعش روحها العدوانية من فتاوى دينية متطرفة وشاذة ، التى تعود إلى شيوخ متطرفين في العديد من بلادنا العربية والإسلامية تلك التي ترجع إلى كتب تراثية مثل كتب ابن تيمية وابن قيم الجوزية، ويتم ترويجها في الفضائيات الدينية التي بلغ عددها نحو مئة محطة فضائية ، ويمكننا تتبع سلوكيات وفتاوى تكفيرية للمتشدّدين التكفيريين في عدة مجالات :

١. السبّ والقذف والطعن في حق علماء الأمة ومفكريها قديما وحديثا.

٢. عدم احترام المتشددين وأتباعهم المذاهب الأربعة .

٣. رفضهم للتصوف وتكفيرهم له بلا تفريق بين الصوفية السنية والصوفية الفلسفية.

٤. العداء للأزهر: فهم ينتقدون العقيدة الأشعرية التي يدرسها الأزهر من ألف عام، وينتقدون طريقة تدريسه للفقه القائمة على تعدّد المدارس الفقهية، ينتقدون احتضان الأزهر لجميع المذاهب الفقهية.

٥. هدم المساجد وبيوت الأولياء، والقباب والمزارات.

٦. الاعتداء وتقتيل كل من يعارضهم من المسلمين الشيعة والمسلمين السنة العرب والأكراد والمسيحيين والأقليات الأخرى.

٧. بيع النساء والأطفال في أسواق نخاسة.

٨. فتاوى شيوخهم ضدّ المسيحيين:

أ. تحريم بناء الكنائس

ب. فرض الجزية

ج. تحريم إلقاء السلام على المسيحيين ومجاملتهم في أعيادهم.

د. تحريم الوظائف الهامة عليهم.

ونورد هنا أبرز الممارسات المتطرفة الشاذة والمجازر الوحشية وعمليات الإبادة التي ارتكبها التنظيم، ونشرها على مواقع التواصل الاجتماعي هي:

١. تفجير داعش وهدمها لأضرحة الأنبياء، وتدمير مراقد الرموز الدينية قبور الأنبياء وقبور الصحابة والصالحين والمساجد الملحقة بها.

٢. تكديس السجناء وتقييدهم من الخلف انتظارا لتنفيذ حكم الإعدام الجماعي بهم.

٣. إطلاق النار على المعتقلين بعد تكبيلهم. إطلاق النار على رؤوس المعتقلين ثم إلقاؤهم في المياه.

٤. اقتياد عشرات الجنود لحفرة بالصحراء، وإعدامهم بإطلاق النار عليهم.

٥. تدمير المتاحف التاريخية بدعوى أنها بدعة.

٦. ارتكاب المجازر بحق الشبك والمسيحيين والأيزيديين وتهجير ٤ آلاف عائلة مسيحية من الموصل، والاستيلاء على ممتلكاتهم بدعوى غنائم.

٧. إضرام النار في دير "مار بهنام" الذي يعود تاريخه لأكثر من ١٨٠٠ عام. وطرد راهبات الدير بملابسهن فقط والاستيلاء على كل ممتلكاتهن.

٨. قتل١٦٠ أسيرا شمال تكريت الشهر الماضي.إعدام ١٩٠ شخصا في تكريت أيضا بين ١١ و١٤ حزيران/يونيو. إعدام ١٧٥ جنديا عراقيا في تكريت أيضا في ٢٢ تموز/ يوليو.

٩. استباحة داعش للمحرمات واستباحة نساء المغلوبين، أو الحوريات المرتقبات و بيع النساء السبايا.وتكشفت الوثيقة المختومة بشعار داعش، عن أن سعر المرأة الإيزيدية والمسيحية البالغة من العمر ٣٠ إلى ٤٠ سنة يصل إلى ٧٥ ألف دينار، أما الأعمار من ٢٠ إلى ٣٠ يبلغ١٠٠ ألف دينار، ومن١٠ أعوام إلى ٢٠ تبلغ قيمتها ١٥٠ ألف دينار، أما الطفلة من عمر سنة إلى٩ سنوات فكانت الأعلى ثمنًا بـ٢٠٠ ألف دينار.

١٠. اقتراف مجازر بحق عشائر سنية في سورية والعراق مثل مجازر داعش بإعدام ٧٠٠ من ابناء عشيرة الشعيطات في قرى شمال غرب مدينة البوكمال الواقعة على الحدود العراقية بريف دير الزور الشرقي. ومجزرة عشيرة البونمر في محافظة الانبار العراقية ومقتل أكثر من ٣٠٠ شخصاً بينهم نساء وأطفال".

١١. استولى مسلحون من «داعش» على العديد من المصارف الحكومية والاهلية في مدينة الموصل وقاموا بسرقة ونهب وسلب ممتلكات مؤسسات الدولة المختلفة وسرقة المال العام بالاستيلاء على ٥٠٠ مليون دولار كغنائم حرب بعد الاستيلاء على الموصل في ٨ يونيو.

١٢. تهريب «داعش» لأكثر من ١٤٠٠ محكوم بجرائم مختلفة من سجن بادوش فالموصل.

١٣. "مجزرة سبايكر" بجريمة العصر وجرح العراق النازف، التي كشف تنظيم داعش عنها بفيديو أظهر عملية إعدام ١٧٠٠ طالباً وعسكرياً.

١٤. إغلاق المدارس في دير الزور بدعوى أن المناهج مناهج كفار لحين اخضاع المدرسين لدورات شرعية.

خامسا: ما هي الثقافة المطلوبة لتعميم ثقافة التنوير؟

أ-ثقافة التسامح والتعايش و ثقافة التنوير

ب- تعميم ثقافة الحوار و ثقافة التنوير

ج. ثقافة التفكير العلمي و التنوير

أ-ثقافة التسامح والتعايش بين ثقافة التنوير ثقافة التكفير

قامت ثقافة التكفير بتجاهل أسس التسامح في الإسلام المتمثلة بِما جاء في القران الكريم من آيات وما جاء في السنة الشريفة. ومما جاء في القران الكريم ما يلي :

١- رسَّخ الإسلام حرية العقيدة والتعايش السلمي بين الأديان بقوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) ويقوم هذا النداء على مبدأ الاعتراف بالآخر (لكم دينكم ولي دين)

٢- رسَّخ الإسلام مفهوم أنَّ الديانات السماوية تستقي من مَعينٍ واحد فقال تعالى : (شرع لكم منَ الدِّين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أنْ أقيموا الدِّين ولا تتفرقوا فيه) .

٣- رسَّخ الإسلام أنَّ الأنبياء إخوة، لا تفاضلَ بينهم مِنْ حيث الرسالة، ومن حيث الإيمان بهم، فقال القرآن الكريم : (قولوا آمنَّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحَق ويعقوب والأسباط وما أوتِيَ موسى وعيسى وما أوتِيَ النبيون مِنْ قبلهم لا نفرِّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون) .

٤- لقد رسَّخ الإسلام أنْ لا إكراه في الدين: (لا إكراه في الدِّين قد تبيَّنَ الرُّشد منَ الغَيِّ فمَنْ يكفر بالطاغوت ويؤمنْ بالله فقد استمسكَ بالعروة الوثقى لا انفصام لها) .

٥- لقد رسَّخ الإسلام مفهوم احترام أمكنة العبادات على اختلاف دياناتها ، قال تعالى: (ولولا دفعُ الله الناسَ بعضهم ببعض لهدِّمتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكَر فيها اسم الله كثيرا) .

٦-لقد رسَّخ الإسلام فكرة الجدل والحوار بالتي هي أحسن بين المسلمين وغيرهم ، قال تعالى: (ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحسن)

٧- لقد رسَّخ الإسلام لدى المسلمين البِر بأهل الكتاب، وحُسْنَ ضيافتهم، قال تعالى: (وطعام الذين أوتوا الكتابَ حلٌّ لكم ، وطعامكم حلٌّ لهم.) .

وقد جاء في السنة النبوية الشريفة ما يتعلق بأهل الذمة ما يلي :

٨-لقد رسَّخ الإسلام أنْ لا عداوة بين المسلمين وبين غيرهم، وتركَ لله أن يحكم بينهم يوم القيامة قال تعالى: (وقالت اليهود ليست النَّصارى على شيءٍ، وقالت النَّصارى ليست اليهود على شيءٍ، وهم يتلون الكتاب، كذلك قال الذين لا يعلمون مثلَ قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا

فيه يختلفون) .

٩-ولقد عرف الإسلام أهل الكتاب باعتبارهم أهل الذمة وهذا يعني أن الإسلام يطالب التعايش معهم في سلام ويتحمل مسؤولية حمايتهم وضمان حريتهم في ممارسة ديانتهم (من آذى ذميا فقد آذى الله ورسوله)

١٠- عن أسامة - رضي الله عنه - "أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مر على مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين - عبدة الأوثان - واليهود فسلم عليهم النبي - صلى الله عليه وسلم" -. متفق عليه.

١١-عن عبدالله بن عباس قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لمُعاذِ بنِ جبلٍ حين بعَثه إلى اليمَنِ :إنك ستأتي قومًا من أهلِ الكتابِ ، فإذا جئتَهم فادعُهم إلى أن يَشهَدوا أن لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبِرْهم أنَّ اللهَ قد فرَض عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبِرْهم أنَّ اللهَ قد فرَض عليهم صدَقَةً ، تؤخَذُ من أغنيائِهم ، فتُرَدُّ على فُقَرائِهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فإياك وكرائمَ أموالِهم ، واتقِ دعوةَ المظلومِ ، فإنه ليس بينه وبين اللهِ حجابٌ) . صحيح البخاري)

١٢- عن عبدالله بن عمر قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو قائمٌ على المِنبَرِ يقولُ :(إنما بَقاؤُكم فيما سَلَفَ قبلَكم من الأُمَمِ، كما بينَ صلاةِ العصرِ إلى غُروبِ الشمسِ، أُعطِيَ أهلُ التوراةِ، فعمِلوا بها حتى انتصَف النهارُ ثم عجَزوا، فأُعْطوا قِيراطًا، ثم أُعطِيَ أهلُ الإنجيلِ، فعمِلوا به حتى صلاةِ العصرِ ثم عجَزوا، فأُعطوا قِيراطًا، ثم أُعطيتُمُ القرآنَ، فعمِلتُمْ به حتى غُروبِ الشمسِ، فأُعطيتُمْ قِيراطَينِ . قال أهلُ التوراةِ : ربَّنا هؤلاءِ أقلُّ عمَلًا وأكثرُ أجرًا ؟ قال : هل ظلمْتُكم من أجرِكم من شيءٍ ؟ قالوا : لا، فقال : فذلك فَضلي أُوتيهِ مَن أشاءُ) .صحيح البخاري)

وقد جاء في السنة النبوية الشريفة ما يتعلق بحرمة دم المسلم ما يلي :

١٣- عن أبي هريرة، عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " المسلمُ أخو المسلمِ لا يخونُهُ ولا يَكذِبُهُ ، ولا يخذلُهُ ، كلُّ المسلمِ علَى المسلمِ حرامٌ : عِرضُهُ ومالُهُ ودمُهُ . التَّقوَى ههُنا . بِحسبِ امرئٍ منَ الشَّرِّ أن يحتقِرَ أخاهُ المسلم" صحيح – الألباني

١٤- عن ثابت بن الضحاك، عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :(من حلَفَ بملَّةٍ غيرِ الإسلامِ كاذِبًا

فَهوَ كما قالَ ، ومن قتلَ نفسَه بشيءٍ عُذِّبَ بِه في نارِ جَهنَّمَ ، ولعْنُ المؤمنِ كقتلِهِ ، ومن رمى مؤمنًا بِكفرٍ فَهوَ كقتلِهِ)رواه البخاري)

١٥-عن عبدالله بن عمر ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته) صحيح البخاري)

١٦- عن عبدالله بن عباس ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (أبغض الناس إلى الله ثلاثة : ملحد في الحرم ، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهرق دمه). صحيح البخاري)

والتسامح هو مطلب إنساني عالمي تجلى في إعلان المبادئ بشأن التسامح الذي اعتمده المؤتمر العام لليونسكو في دورته الثامنة والعشرين، باريس، ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥.

وجاء في المادة الأولى منه : "إن التسامح يعني الاحترام والقبول والتقدير للتنوع الثري لثقافات عالمنا ولأشكال التعبير وللصفات الإنسانية لدينا. ويتعزز هذا التسامح بالمعرفة والانفتاح والاتصال وحرية الفكر والضمير والمعتقد. وأنه الوئام في سياق الاختلاف، وهو ليس واجبا أخلاقيا فحسب، وإنما هو واجب سياسي وقانوني أيضا، والتسامح، هو الفضيلة التي تيسر قيام السلام، يسهم في إحلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب، ... ولا تتعارض ممارسة التسامح مع احترام حقوق الإنسان، ولذلك فهي لا تعني تقبل الظلم الاجتماعي أو تخلي المرء عن معتقداته أو التهاون بشأنها. بل تعني أن المرء حر في التمسك بمعتقداته وأنه يقبل أن يتمسك الآخرون بمعتقداتهم. والتسامح يعني الإقرار بأن البشر المختلفين بطبعهم في مظهرهم وأوضاعهم ولغاتهم وسلوكهم وقيمهم، لهم الحق في العيس بسلام وفي أن يطابق مظهرهم مخبرهم، وهي تعني أيضا أن آراء الفرد لا ينبغي أن تفرض على الغير.[١٣]

ب- تعميم ثقافة الحوار و ثقافة التنوير

عملية الحوار بحد ذاتها عملية "حضارية ". إذ يخلق الحوار بيننا كمجتمعات. الانخراط في حوار حقيقي في المجتمع المدني ويعزز قيم بناء الثقة والاحترام والشعور بالألفة والراحة والتعاون بعضنا مع البعض الآخر ومعرفة كيفية إنشاء أرضية مشتركة تجمع أفراد المجتمع .

ومع غياب الديمقراطية في مجتمعاتنا العربية أصبحت الحاجة ماسة إلى حوار فعال بين الناس يكون فيه جميع المشاركين على قدم المساواة، ويستمعون لبعضهم باحترام و تعاطف، وتبحث الأفكار بصراحة ودون إصدار أحكام. وهكذا يصبح الحوار هو الاستجابة للتعامل مع مختلف التطورات والمتغيرات، وهو الأكثر فعالية في احتواء خلافات الناس وصياغة الأطر المرجعية المشتركة بينهم .

واليوم نجد في الوطن العربي أن الحاجة ماسة للحوار أكثر من أي وقت مضى. إذ نشهد الصراعات على أشدها بين فريق التكفير وكل من خالفه في العراق وسوريا وليبيا ومصر واليمن والبحرين، ونشهد التوترات والاحتجاجات والتفاوتات الطبقية والاختلافات الفكرية في العديد من الدول العربية ، التي تولد شروخا بين أبناء الشعب الواحد، وبين الحكام والمحكومين ، وبين الشرائح الاجتماعية والطوائف والأقليات، وأقل الأوصاف التي يمكن نعتها بها هي النقص في الحوار بين الأطراف المتصارعة الذي يعود لنقص في ثقافة تنويرية شاملة.

وثقافة الحوار هي حجر الأساس لسيادة التنوير لدى قطاعات المجتمع في مواجهة ثقافة التكفير للتوصل عبر الحوار إلى تفاهم متبادل أفضل ،وخصوصا في ظل نمو المعرفة وتدفق المعلومات وانتشار تكنولوجيا الاتصال ، التي وفرت قدرة غير محدودة للوصول إلى المعلومات ، والتواصل بلا حدود ، مع عدم وضوح الحدود بين الأطر المرجعية لدى الناس .

ج. ثقافة التفكير العلمي والتفكير النقدي و التنوير

لا يمكن أن يتم التنوير والنهوض بدون أن يصبح التفكير النقدي والتفكير العلمي هو أداة العقل العربي في مناقشه القضايا ومعالجتها. وهذا يستلزم أن يتم تثوير المناهج الدراسية في المدارس والجامعات وذلك بالنأي عن أسلوب التلقين ، وتدريب الطلبة في جميع المستويات على التفكير النقدي ومناقشة كل ما يستقبلونه بأسلوب علمي، ومن ثم فإن دراسة مناهج البحث العلمي يجب أن تكون أداة من أدوات تدريب الطلاب على اكتساب المعرفة ومحاكمة القضايا والمشاكل والأفكار التي يتلقونها. ولا يمكن أن يتم إنجاز ذلك الفهم لدى الطلبة دونما قيام ثورة تعليمية تبدأ بالمعلم من حيث تطوير أدوات تفكيره وأدوات توصيل المعلومات وأدوات التعامل الناجح مع الطلبة .

وخلال ما يقرب من أربعين عاماً أصبحت وزارة التربية رهينة بأيدي من يضعون المناهج ويقررون

سياساتها وهم ينظرون إلى أن مسؤولية وزارة التربية هي تخريج أفواج من المدارس الثانوية بدون أن يمتلكوا الرؤية النقدية والتفكير العلمي، وإعدادهم بطريقة مستسلمة للتراث دون مراعاة أن بعض عناصره هي عناصر تشد المجتمعات إلى تخلف، وتوفر بعض مكوناتها مبررات للتكفير. وبدلا من النظر في مقومات تراثنا الايجابية ونزوعها للعقل والتفكير العلمي " تركنا مَواطن القوة في تراثنا القديم، حيث أجمع علماء أصول الدين في البدايات العقلية كمصدر للمعرفة وحيث أجمع المعتزلة والفقهاء على أن العقل أساس النقل، وأن من يقدح في العقل يقدح في النقل. وحيث جعل الأصوليون العقل أو دليل الاستصحاب مصدراً من مصادر التشريع. ثم أخذنا مواطن الضعف في تراثنا القديم حيث كان النقل ما زال مصدراً من مصادر المعرفة عند بعض علماء أصول الدين، حيث اعتبر النقل أساساً للعقل عند بعض الفرق، وكأن العقل في حاجة إلى وصي، وكان في أسمى وظائفه عقلاً إشراقياً. وقد تراجع العقل في حياتنا المعاصرة، وظل معدوم الأثر، عاجزاً عن الاقتراب من أي موضوع.وفي ضوء كل هذا فلن نصل إلى عصر التنوير إلا إذا جعلنا للعقل دوره المحوري في بناء الذات والعلم والمعرفة. فإما العقل الذي يملك كل شيء ويطلب البرهان والدليل وإما الخوف والعجز عن الاستدلال والبرهان . [١٤]

ولا يمكن أن يتم ذلك الفهم دون أن يمتلك من أسماهم حسن حنفي بالمفكرين الأحرار الذين يمكن أن يقودوا حركة التنوير في المجتمع. ذلك أن ما يحرك الأمة ويحرر عقولها وجود قيادة فكرية حرة راشدة تلعب دورها في تعزيز ثقافة التفكير النقدي ، ورفض كل ما يتجاوز سلطة العقل. فمسؤولية التفكير التنويري النقدي هي الاستناد إلى التراث العقلاني الذي يعتز بالعقل كي يعمل على انتشار الأفكار التي تقاوم الأفكار التي تعتمد في تراثنا على النقل دون العقل، مما يجعل المجال مفتوحاً للإبداع أمام الأجيال الجديدة في ظروف الحرية الفكرية والتسامح والحوار أي أننا بحاجة إلى بناء جيل جديد يسلك طريقاً جديداً للتعامل مع الواقع بالاستناد إلى العقل ، ومناقشة التراث قراءة نقدية واعية تفسر التراث وفقاً لمتطلبات العصر. وهذا يعني العمل على ربط التراث الذي يمدنا بهويتنا وقيمنا بواقعنا الذي نعيشه مع متغيرات القرن الحادي والعشرين بحيث نواجه ما أسماه المفكر حسن حنفي بإجهاض العقول حيث يقول : "تبدو مظاهر إجهاض العقول في محاربة المبدعين الشبان، أدباء ومفكرين وعلماء بل ومهنيين وفنيين و«أسطوات» بطرق عديدة مثل منع النشر، ضيق إمكانيات البحث العلمي، الرقابة على الفكر، إلغاء المؤتمرات ومظاهر النشاط

الجماعي، تقليص منابر الرأي ووسائل التعبير حتى يتقوقع الشبان على ذواتهم، ويجتروا أدبهم وفكرهم وعلمهم لأنفسهم دون أن يجدوا منفذاً لهم في العالم الخارجي.(...) إن الهدف إذن من «إجهاض العقول» هو السيطرة على إمكانيات الإبداع لدى الشعوب ذات التاريخ العريق وإدخالها في النطاق الحضاري للغرب الذي ما زال يمثل بالنسبة لنا التحدي الحضاري الأعظم، حتى تستمر التبعية للغرب والتقليد لنظمه وتبني قيمه ومُثله، ولا إبداع حيث التقليد، ولا خلق حيث التبعية. وبالتالي، تستمر الشعوب التاريخية في النقل عن الغرب، خاصة إذا كان الغرب سريع الإنتاج ولا تستطيع الشعوب التاريخية -كما يقال دائماً- اللحاق به ترجمة أو نقلاً، قراءة أو تمثلاً، وبالتالي تظل لاهثة حتى يتعبها العدْو، فتقف عاجزة، وتصاب بعقدة النقص، وتتحول إلى شعوب تابعة إلى الأبد، مهمتها النقل والاستيعاب دون الخلق والإبداع. ثم يتحول ذلك الوضع إلى تأكيد ملموس للنظرية العنصرية بأن الغرب وحده هو الخالق، وما سواه من الشعوب، على رغم جذورها التاريخية، ليس أمامها إلا التقليد. [١٥]

سادسا: أدوات تحقيق ثقافة التنوير ونشرها وتعزيزها

أ. وسائل الإعلام و ثقافة التنوير

ب. التربية و ثقافة التنوير

ج. التعليم و ثقافة التنوير

أ- وسائل الإعلام و ثقافة التنوير

العلاقة بين وسائل الإعلام والثقافة الجماهيرية علاقة تفاعلية فبينما تقوم وسائل الإعلام بضخ مضامينها التي تشكل منتجات موجهة للاستهلاك الجماهيري، إلا أنها تحمل في طياتها قيماً أصبحت تفرض نفسها على جمهور المتلقين وباتت هذه الثقافة الجماهيرية تشكل قيماً تؤثر على المتصلين. ولعل من أهم المشكلات التي تواجه الثقافة الجماهيرية الآن تنازع شكلين من مضمون وسائل الإعلام وهما مضمون الفضائيات الدينية التي بلغ عددها نحو مئة قناة دينية [١٦] التي أصبحت منبرا للدعاة الجدد وللتكفيريين والمتشددين، ومضمون المحطات الفضائيات الترفيهية والعامة حيث نشاهد فيها سيطرة الترفيه على مضمون وسائل الإعلام بالإضافة إلى أن الزاد الثقافي الذي

تقدمه يكون سطحياً. إن هذه المشكلة ليست محلية فإن وسائل الإعلام الجماهيرية أصبحت تقدم الخبرات الثقافية لمئات الملايين من البشر وتقدم خبرات جديدة من الأجيال الجديدة التي توفر لهم ثقافة جديدة وأشكالاً ترفيهية بدأت تسيطر على وقتهم.

ولكن تحول الأمر من هذا الاستعمار الثقافي المباشر الذي يقوم على الدعاية والإعلام إلى استعمار وطني يقوم على محاصرة مَواطن الإبداع داخل الشعوب. فالاستعمار الثقافي الدعائي عن طريق المجلات والنشرات والإذاعات نشاط علني مفضوح، ولكن إجهاض العقول من الداخل عن طريق استعمال بعض النظم الوطنية ذاتها ضد أبنائها أجدى وأبقى وأقل علانية وأكثر تستراً، ويلبس ثوب الحق والمصلحة الوطنية من أجل إنهاء خصوصيات الحضارات المستقلة[١٧].

وإذا كان الاستعمار الثقافي المباشر قد ورث الاستعمار الاقتصادي، فإن الاستعمار الحضاري الحالي هو وريث الاستعمار الثقافي التقليدي من أجل إنهاء خصوصيات الحضارات المستقلة. [١٨]

ب -التربية و ثقافة التنوير

يجمع التربويون وعلماء الاتصال أن تربية الفرد وتنشئته الاجتماعية تتم من خلال الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام ورفقاء الطفل، والمؤسسات الدينية التي ينتمي إليها ويرتادها كالمساجد والمؤسسات الاجتماعية كالنوادي وغيرها. ولذا فإن ما نراه اليوم من ثقافة تكفيرية عناصرها من الشباب ليست إلا نتاجاً لعوامل تربوية قادت لتوجه هؤلاء الشباب لتبني هذا الفكر التكفيري.

وليس من سبيل إلى نشر ثقافة تنويرية في المجتمع العربي دون العمل على إعداد بناء إنسان جديد، بنشر ثقافة تنويرية تستند إلى العقل والفكر المتسم بالتسامح وحرية الفكر والمعتقد والنهج العلمي والفكر النقدي.

وليس الأمر سهلاً فالتربية عملية طويلة مستمرة ، لذا فهي تحتاج إلى تضافر قوى التنشئة الاجتماعية لتقوم بهذه المهمة. فالأسرة الحاضنة الأولى والمدرسة ووسائل الإعلام والمساجد سيكون لها دورها الفعال في تحقيق ذلك ولكن دورها منوط بإرادة الحكومة التي يجب أن تتبنى مسؤوليتها في خلق ثقافة تنويرية، وباعتمادها على ذوي العقول النيرة والفكرين الأحرار صانعي التغيير. وهي مهمة باتت صعبة في ظل ظروف الاتصال المفتوح حيث هناك نحو مئة محطة فضائية دينية متخصصة،

ناهيك عن البرامج الدينية العديدة في المحطات العامة . وكذلك صعوبة السيطرة على الانترنت الذي أصبح متاحاً للجميع ويوفر مواقع عديدة للفكر الديني المتشدد والأصولي والتكفيري وبعض هذه المواقع كما نعرف أصبحت وسيلة هامة لتجنيد الشباب للمشاركة فيما أطلق عليه اسم الجهاد والذي آل إلى أن يقاتل المسلم أخاه المسلم في سوريا والعراق واليمن وليبيا ومصر.

وجاء في المادة الثالثة في إعلان المبادئ بشأن التسامح بأنه ضروري بين الأفراد وعلى صعيد الأسرة والمجتمع المحلي، وأن جهود تعزيز التسامح وتكوين المواقف القائمة على الانفتاح وإصغاء البعض للبعض والتضامن ينبغي أن تبذل في المدارس والجامعات وعن طريق التعليم غير النظامي وفي المنزل وفي مواقع العمل. وبإمكان وسائل الإعلام والاتصال أن تضطلع بدور بناء في تيسير التحاور والنقاش بصورة حرة ومفتوحة، وفي نشر قيم التسامح وإبراز مخاطر اللامبالاة تجاه ظهور الجماعات والأيديولوجيات غير المتسامحة... [١٩]

ج-التعليم و ثقافة التنوير

إعادة النظر في العملية التعليمية هو الركن الأساسي في بناء الإنسان العربي، فالمناهج المقررة وأسلوب التدريس ونوعية المدرسين وطريقة إعدادهم كلها عوامل أساسية لبناء عملية تعليمية مستنيرة. فإن إعداد مناهج تعد الإنسان على أساس التفكير النقدي والتواصل مع التراث بطريقة نقدية التي تقود إلى حرية الفكر والتسامح، وكما جاء في بيان اليونسكو حول التسامح : "إن التعليم هو أنجع الوسائل لمنع اللاتسامح ، وأول خطوة في مجال التسامح، هي تعليم الناس الحقوق والحريات التي يتشاركون فيها وذلك لكي تحترم هذه الحقوق والحريات فضلا عن تعزيز عزمهم على حماية حقوق وحريات الآخرين. وينبغي أن يعتبر التعليم في مجال التسامح ضرورة ملحة، ولذا يلزم التشجيع على اعتماد أساليب منهجية وعقلانية لتعليم التسامح تتناول أسباب اللاتسامح الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية - أي الجذور الرئيسية للعنف والاستبعاد، وينبغي أن تسهم السياسات والبرامج التعليمية في تعزيز التفاهم والتضامن والتسامح بين الأفراد وكذلك بين المجموعات الاثنية والاجتماعية والثقافية والدينية واللغوية وفيما بين الأمم.

إن التعليم في مجال التسامح يجب أن يستهدف مقاومة تأثير العوامل المؤدية إلى الخوف من

الآخرين واستبعادهم، ومساعدة النشء في تنمية قدراتهم على استقلال الرأي والتفكير النقدي والتفكير الأخلاقي.

إننا نتعهد بمساندة وتنفيذ برامج للبحوث الاجتماعية وللتعليم في مجال التسامح وحقوق الإنسان واللاعنف. ويعني ذلك ايلاء عناية خاصة لتحسين إعداد المعلمين، والمناهج الدراسية، ومضامين الكتب المدرسية والدروس وغيرها من المواد التعليمية بما فيها التكنولوجيات التعليمية الجديدة بغية تنشئة مواطنين يقظين مسؤولين ومنفتحين على ثقافات الآخرين، يقدرون الحرية حق قدرها، ويحترمون كرامة الإنسان والفروق بين البشر، وقادرين على درء النزاعات أو على حلّها بوسائل غير عنيفة. [٢٠]

الهوامش:

١- استلم حقيبة وزارة التربية العديد من الإسلاميين منهم الدكتور اسحق الفرحان (١٩٧٣)و الدكتور عبدالله العكايلة (١٩٩١) من حركة الإخوان المسلمين و الدكتور محمد الذنيبات (٢٠١٣)من حزب الوسط الإسلامي.

٢- د. مصطفى حجازي وآخرون "ثقافة الطفل العربي بين التغريب والأصالة" (الرباط: المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٩٠) ص ١٩.

٣- د. مصطفى حجازي وآخرون المصدر نفسه ص . -٢١

٤- (جان بيير فارنيي عولمة الثقافة ، ترجمة : عبد الجليل الأزدي ، الدار المصرية اللبنانية . الطبعة الأولى – يناير ٢٠٠٣ - ص ٢٠)

٥- هيرسكوفتز وباسكوم "مشكلة الاستقرار والتغيير في الثقافة الافريقية" في كتاب "الثقافة الافريقية: دراسات عناصر الاستمرار والتغيير" وليم باسكوم وملفيل سكوفتز (محرران)، ترجمة عبدالملك الناشف (بيروت – المكتبة العصرية ١٩٦٦) ص ٢٢.

٦- حسن حنفي التنوير وتراث العالم: جريدة الاتحاد- أبوظبي: السبت ٠٩ مارس ٢٠١٣

http://www.alittihad.ae/wajhatdetails.php?id=71279

٧- حسن حنفي التنوير المصدر نفسه

٨- بدر الإبراهيم : داعش والوهابية والتكفير الاختلاف والتشابه

http://www.al-akhbar.com/node/214666

٩- علي أنوزلا البحث عن جذور فكر داعش" في التاريخ الإسلامي هل مهدت "الوهابية" الطريق لصعود فكر "داعش" التكفيري؟ ١٤ .٠٨. ٢٠١٤.

http://ar.qantara.de/content/lbhth-n-jdhwr-fkr-dsh-fy-ltrykh-lslmy-hl-mhdt-lwhby-ltryq-lswd-fkr-dsh-ltkfyry

١٠- بدر الإبراهيم : مصدر سبق ذكره

١١- علي أنوزلا : مصدر سبق ذكره

١٢- بدر الإبراهيم : مصدر سبق ذكره

١٣- إعلان مبادئ بشأن التسامح اعتمده المؤتمر العام لليونسكو في دورته الثامنة والعشرين، باريس، ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥

http://www1.umn.edu/humanrts/arab/tolerance.html

١٤- حسن حنفي نحن والتنوير والعقل :جريدة الاتحاد- أبوظبي: السبت ١٢ تموز/يوليو ٢٠١٤

http://www.alittihad.ae/wajhatdetails.php?id=80140

١٥- حسن حنفي مكيدة إجهاض العقول :جريدة الاتحاد- أبوظبي: السبت ١٢ نيسان/أبريل ٢٠١٤

http://www.alittihad.ae/wajhatdetails.php?id=78493!

١٦- انظر: وضع البث الفضائي العربي أكثر من ١٣٢٠ قناة تلفزيونية فضائية موجهة إلى المنطقة العربية "في التقرير السنوي حول البث الفضائي العربي" نسخة ٢٠١٢ – ٢٠١٣ اتحاد إذاعات الدول العربية

http://www.asbu.net/doc.php?docid=101&lang=ar

١٧- حسن حنفي مكيدة إجهاض العقول: جريدة الاتحاد- أبوظبي: السبت ١٢ نيسان/ أبريل ٢٠١٤

http://www.alittihad.ae/wajhatdetails.php?id=78493!

١٨- حسن حنفي المصدر نفسه

١٩- إعلان مبادئ بشأن التسامح اعتمده المؤتمر العام لليونسكو في دورته الثامنة والعشرين، باريس، ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥

http://www1.umn.edu/humanrts/arab/tolerance.html

٢٠- إعلان مبادئ بشأن التسامح اعتمده المؤتمر العام لليونسكو في دورته الثامنة والعشرين، باريس، ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥

http://www1.umn.edu/humanrts/arab/tolerance.html

أوراق ثقافية

سبل الابداع أثناء اعادة الكتابة

حسين عيد

لكل كاتب ((أسلوبه)) الخاص الذي يمرّ فيه بأطوار مختلفة خلال رحلة ((الابداع)) انتهاء ببزوغ ((الناتج)) الأدبي في شكله الأخير. لكن كيف يبدأ الكاتب تلك التجربة؟ وماذا يحدث اذا لم يرتح المبدع لما توصّل اليه، وداخله شعور بضرورة ((اعادة)) الكتابة؟ وهل هناك حدّود معيّنة تحكم تلك العملية؟ وما هي ((المسارات)) المختلفة التي يمضي بها؟

تتناول هذه الدراسة ثلاثة نماذج لثلاثة كتاب عالميين، هي قصة "من طين خلقنا" للتشيلية ايزابيل الليندي، ورواية "الصخب والعنف" للأمريكي وليم فوكنر، ورحلة الكولومبي جارسيا ماركيز مع رواية "الجميلات النائمات" لـلياباني ياسوناري كاواباتا انتهاء بانجاز رواية "ذاكرة غانياتي الحزينات"

(١) في حضرة تجربة واقعية مريرة:

هي إحدى قصص المجموعة القصصية الوحيدة للكاتبة التشيلية إيزابيل الليندي "حكايات ايفالونا " (١٩٨٩) ، التي ترجمها صالح علماني وصدرت في دمشق عام ١٩٩٧ .

وهذه القصة مأخوذة عن واقعة (حقيقية)، وهو ما يتيح الفرصة لتتبع تحولات رحلة تلك التجربة بين (الواقع) و (الإبداع) !

أصل الحكاية

أشارت إيزابيل الليندي الى (أصل) هذه الحكاية، في حوار معها – أجراه فرحات افتخار الدين، منشورة ترجمته في كتاب " ذلك العالم المدهش: حوارات مع كتاب عالميين " ص ٦٧. هيئة قصور الثقافة (٢٠٠٠) – قالت فيه إن قصة " من طين خلقنا "، قد " ارتكزت على قصة حقيقية، ففي عام ١٩٨٥، كانت هناك ثورة بركان في كولومبيا، وكانت هناك طفلة صغيرة محاصرة وسط الطين، ماتت بعد أربعة أيام من عذاب رهيب. لقد شاهدتها في التليفزيون بفنزويلا ".

كما ألقت مزيدا من الضوء على تلك الواقعة، في رواية " باولا " (١٩٩٤) – ترجمها إلى العربية صالح علماني، وصدرت عن دار جفرا بحمص في سورية (١٩٩٦) – والتي كانت أقرب ما تكون إلى سيرة ذاتية، أرّخت فيها لمرض ابنتها الوحيدة المميت، مستعيدة أثناء ذلك بعضا من رحلة حياتها العامة وتجربتها الأدبية الخاصة، وجاء ذكر هذه القصة في سياق حديثها عن مجموعة قصص "حكايات ايفالونا "، حين قالت إن "القصة الأخيرة في هذه المجموعة "من طين خلقنا" تستند إلى مأساة حدثت في كولومبيا عام ١٩٨٥، عندما حدث انفجار بركان نيفادو دل روّيث المفاجئ مما أدّى الى انهيار جليد ذائب انزلق عن الجبل وغطى قرية بكاملها. آلاف من الناس لقوا حتفهم في ذلك اليوم، ولكن العالم يتذكر الكارثة من خلال الطفلة اومايرا سانتشيث ذات الثلاثة عشر عاما التي علقت في الوحل. لقد احتضرت طوال ثلاثة أيام ببطء مرعب أمام المصورين والصحافيين ومصوري التليفزيون الذين جاءوا بطائرات الهليوكوبتر. لقد تألمت منذ ذلك الحين الذي رأيت فيه عينيها على شاشة التلفزيون. ومازلت أضع صورتها على مكتبي".

هنا لابد أن نتوقف أمام أهم عناصر الواقعة ، وهي :

• يرجع أصل الحكاية إلى ثورة بركان (كولومبيا) المفاجئة ، التي أدّت إلى انهيار جليد ذائب غطى قرية بأكملها

• انتقلت صور الكارثة إلى كل أنحاء العالم ، عبر الأقمار الصناعية بواسطة أجهزة بث الصحافة والتليفزيون .

• تذكر العالم تلك الكارثة (العامة) من خلال متابعة حالة (خاصة) لطفلة ذات ثلاثة عشر ربيعا، علقت في الوحل.

• تابعت إيزابيل بمنفاها في (فنزويلا) ما يجرى، و(انفعلت) بما رأت ، بل بلغت قمة انفعالها وهى

تصرّ على نعتها بأنها (طفلة)، ربما لأنها كانت في عمر التفتح على الحياة ، التي لم تجرّب منها شيئا بعد، وبلغ من شدّة تأثرها أن احتفظت بعد ذلك بصورتها على مكتبها، "في محاولة لتفهم معنى عذابها".

• ذكرت في الحوار، الذي أجراه معها افتخار فخر الدين عام (١٩٩٧)، أن الطفلة ماتت بعد أربعة أيام ، في حين أنها أوردت في رواية " باولا " (١٩٩٤) أنها كانت ثلاثة أيام فقط . وصحة الرقم ربّما كان ما أوردته في الرواية، لأنها اعتادت في الرواية أن تدقق ماتكتب فيها من تواريخ، وتتحرى الدقة فيما تورده من بيانات ، أما الحوار فكان أمره متروكا للذاكرة ، التي قد تتعرض للسهو أحيانا .

على طريق الإبداع :

استحوذ (مشهد) تلك الطفلة (الخاص)، وهى تعانى لمدة ثلاثة أيام، على كل مشاعر وتفكير إيزابيل الليندي، فكان (محفزا) لخيالها الإبداعي، كي ينشط ويعم، في " محاولة لتفهم عذابها". وربما بدءا من تلك اللحظة ، بدأت فترة إعداد للمادة المتصلة بالموضوع ، وكان منها تلك الصورة ، تأكيدا لهذه العلاقة الوليدة ، التي أصبحت تشكل جزءا من عالمها . وخلال محاولتها للامساك بعالم تلك الطفلة (الخيالي)، وضعت صورتها (الحقيقية) نصب عينيها، بينما كان المعنى (الجوهري) مازال غائبا عنها . كانت قد تأملت ما حدث مرات ومرات ، لكن الطريق إلى عالم تلك الطفلة ظل مستغلقا عليها ، ولم ينداح المعنى أمامها. وانظر إليها ، وهى تعبّر عن عذاب فترة (الحمل) ، التي استمرت طويلا حتى تحولت إلى (كابوس) – حين أوضحت في رواية " باولا " – أنها بدأت محاولتها (الأولى) لكتابة القصة "بعد ثلاث سنوات، حاولت أن أزيح عني ذلك الكابوس ، وأنا في كاليفورنيا برواية القصة ، أردت أن أصف عذاب تلك الطفلة المسكينة المدفونة في الحياة ، ولكنني كلما تقدمت في الكتابة كنت أنتبه إلى أن ما أكتبه ليس جوهر القصة ".

هنا، كانت إيزابيل الليندي – كفنانة صادقة – في لحظة (وعي)، أو مواجهة للذات، لمراجعة ما أنجزت. كانت قد شعرت أن ما كتبته ليس هو المطلوب. وهو ما عبرت عنه - بعد ذلك في حوارها المذكور ص ٦٧ ، ٦٨ – قائلة "ولكن بعد أن أنهيت القصة ، أدركت أنني حاولت أن أحكي القصة من وجهة نظر فكرية ، شديدة الألم . لكن عقلي هو الذي كان يعمل خلالها"

هكذا ، بدأت محاولتها (الثانية) ، من منظور سرد (مقابل) ، حين ظنت ، كما قالت في حوارها ، " إنها قصة الرجل الذي يمسك بها " ، وهو ما عبرت عنه أيضا في رواية " باولا " (ص ٣٤٠) ، حين قالت " قلبت

الموضوع لأرى إن كان بإمكاني رواية الوقائع من خلال مشاعر الرجل الذي رافق الطفلة خلال تلك الأيام الثلاثة ، ولكنني عندما انتهيت من روايتها بهذه الطريقة أدركت أنني لم أصل إلى ما أريده "، أو كما قالت في حوارها " أدركت أنه يوجد هناك شيء ما زائف حول ذلك أيضا". أنظر هنا إلى (تكرار) كلمة "أدركت". الإدراك يعني، هنا، المعرفة في أوسع معانيها ، وتشتمل على جانبين: الإدراك الحسّي (بمعرفة الأشياء من خلال الحواس ، إلى جانب الوقوف على المشاعر والاحساسات الداخلية)، والإدراك الذهني (هو المقابل للحسي، ويتضمن معرفة الكلي من حيث أنه متميز عن الجزئيات ، التي يصدق عليها).

وكان منطقيا، بعد أن أيقنت فشل محاولتها الثانية ، أن تتوقف قليلا ، في محاولة لاستجماع القوى ، وحتى تتدبر أمورها ، لتبدأ محاولة ثالثة (مغايرة) ، عبرت عنها – من خلال حوارها المذكور – بقولها " إنها ليست قصة الرجل الذي يمسك بالبنت ، إنها قصة المرأة التي تراقب من الشاشة الرجل الذي يمسك بالبنت . لقد جعلت من مصفاة الشاشة مسافة صناعية ، لكنها كانت مقاربة مرعبة ، حيث ترى تفاصيل لم يكن ممكنا أن تراها لو لم تكن هناك فعلا. وهكذا أصبحت القصة حول التغيّر الذي يحدث للمرأة ، التي تراقب الرجل ، الذي يمسك بالبنت التي تموت"

وهذا هو المعنى ، الذي (كررته) في رواية " باولا " ، حول تلك المحاولة، حين قالت " أن القصة الحقيقية هي قصة امرأة – وهذه المرأة هي أنا – تراقب على شاشة التليفزيون الرجل الذي يساند الطفلة. إن القصة هي عن مشاعري وعن التبدلات الحتمية التي عانيتها وأنا أشهد احتضار الطفلة".

والآن ، إذا حاولنا تلمس أبعاد عملية (الإبداع) ، فسنلاحظ مايلي :

• بدأت رحلة الإبداع عند إيزابيل الليندي من مشهد (خاص) لطفلة محاصرة تحتضر، بتأثير كارثة (عامة) لثورة بركان ، وهو ما زلزل كيانها ، وكان (محفزا) لها ، في محاولة لتفهم عذاب تلك الطفلة. والفن بشكل عام يعتمد على الجزء لتناول الكل، وعلى التفاصيل الصغيرة لتناول ما هو عام !

• هكذا بدأت رحلة إعداد و(حمل)، استمرت لمدة ثلاث سنوات، حتى اكتمل تكون الجنين ، متخذا شكل (قصة قصيرة)، وبدأ يدمدم مطالبا بحقه في الحياة، وهو مابدا من تعبيرها " حاولت أن أزيح عنى هذا الكابوس "، فبدأت مرحلة (المخاض) بالكتابة !

• إذا، كانت هناك ثلاث شخصيات رئيسية: الطفلة، المذيع، والكاتبة. لذلك، كان منطقيا أن تبدأ أولى محاولات الكتابة من منظور الطفلة، لكنها كانت كلما تقدمت كانت تشعر أن ما تكتبه ليس هو

(جوهر) القصة، فأعادت السرد من منظور (مقابل)، هو منظور المذيع الذي رافق الطفلة، لكنها لم تشعر أيضا أنها وصلت إلى ما تريده، فانتقلت إلى منظور ثالث (مغاير)، هو منظورها هي، أي من زاوية المرأة التي تراقب احتضار الطفلة، وما طرأ على مشاعرها من تغيرات!

• هكذا كتبت إيزابيل الليندى قصة " من طين خلقنا "، وان استبدلت باسم الطفلة الحقيقي اسما آخر هو " اثوثينا "، وهو ما يعنى بالأسبانية زهرة السوسن. كما جعلت من مذيع التليفزيون رفيقا وحبيبا للراوية، وأعملت (خيالها) في تطورات عملية الإنقاذ، التي قام بها المذيع أولا بشكل فردي، ثم بمساعدة شرطيين سرعان ماأنصرفا عنه، حتى توقف أمر إنقاذها على ضرورة إحضار مضخة، لتفريغ المياه من حولها، لأنها كانت عالقة وأيّ محاولة جذب كانت تؤذي جسمها، وهو ما طالب المذيع به الجميع. ورغم تكالب جميع وسائل الإعلام لنقل تفاصيل الحدث إلى مختلف أنحاء العالم، حتى أن رئيس الدولة قام بنفسه بزيارة موقع الكارثة، ومن ثم موقع الطفلة، إلا إن هذا لم ييسر توفير مضخة. وحين أمكن بعد محاولات مضنية أن تحصل على المضخة، عندما وعد أحد قادة الجيش أن ينقلها إلى الموقع في اليوم التالي، كانت روح الطفلة قد فاضت إلى بارئها !

استبصار فنانة :

حين اكتملت قصة " من طين خلقنا " ، وكانت إيزابيل الليندى تعتبرها آخر قصص مجموعة " حكايات ايفالونا " ، دفعت بها إلى النشر ، وصدرت فعلا عام ١٩٨٩ . كانت إيزابيل تعتقد أن علاقتها قد انتهت بتلك القصة ، حتى فجعت عام ١٩٩١ بإصابة ابنتها " باولا " ، وهى في مطلع شبابها ، بمرض عضال ، وحين دخلت ابنتها غيبوبة الموت ، وارتفع مدّ عذاب إيزابيل إلى حدّ لا يحتمل ، لم يكن هناك من سبيل أمامها للخلاص إلا بالكتابة ، فبدأت بكتابة رواية " باولا " ، وإذا بها تجنح فيها إلى قصة " من طين خلقنا " ، فتكتب " بعد نشر القصة في مجموعة قصصية ظننت أنني قد قمت بواجبي تجاه أومايرا ، ولكنني سرعان ما أدركت أن الأمر ليس كذلك ، فهي ملاك متسلط على عقلي لن تسمح لي بنسيانها . عندما سقطت باولا في حالة السبات ورأيتها أسيرة السرير، جامدة ، تموت شيئا فشيئا أمام نظرتنا العاجزة، ورد وجه أومايرا سانتشيت إلى ذهني. لقد أصبحت ابنتي أسيرة جسدها نفسه مثلما كانت تلك الطفلة أسيرة الطين. عندئذ فقط أدركت السبب الذي جعلني أعيش وأنا أفكر فيها كلّ تلك السنوات واستطعت أخيرا أن أحلّ رموز رسالة عينيها السوداوين:

الصبر، الجرأة، الخضوع للقدر، الكبرياء أمام الموت".

عندئذ ، وفى ذروة محنتها ، أدركت إيزابيل ، من خلال (الكتابة) فقط ، ماكان (خافيا) عليها من أمر تلك الطفلة، ومبرر تسلطها على عقلها، كأنها كانت (استبصارا) ونذيرا، بما سيؤول إليه حال ابنتها من كارثة ، لا نملك أمام وقعها الرهيب ،إلا " الصبر، الجرأة، الخضوع للقدر، والكبرياء أمام الموت"!

* *

هنا، انطلقت ايزابيل الليندي من حادثة (واقعية) تأثرت بها تأثرا شديدا، فحاولت أن تتجاوزها بادخالها في دورة (ابداع) جديدة بعد أن اختارت (نوعها) الأدبي، وهو (القصة) القصيرة. لكنها لم ترتح لما أنجزت، فمضت في طريق (اعادة) كتابتها محافظة على نوعها. ونظرا لأنها لم ترتح لما أنجزت أعادت الكتابة مرتين أخريين، وعندما أنتهت أيقنت أن مجموعة "حكايات ايفالونا" القصصية قد اكتملت فدفعت بها الى النشر، دون أن تدري أن القصة لم تكتمل فصولها بعد، بل كان مغزاها الحق (ارهاصة) لكارثة مرض الموت التي ستؤول اليها ابنتها بعد ذلك بسنوات!

(٢) في حضرة صورة مراوغة:

أعاد الأمريكي وليام فوكنر (١٨٩٧-١٩٦٢) أكثر من مرّة كتابة رواية "الصخب والعنف" التي جرى بناؤها من وحي (صورة) مراوغة، هي أقرب ما تكون الى (الحلم)!

وقد نشر وليم فوكنر رواية "الصخب والعنف" عام ١٩٢٩، وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وقام الروائي الراحل جبرا ابراهيم جبرا بترجمتها وصدرت طبعتها الثانية عن دار الآداب عام ١٩٧٩.

وهي رواية ثلاثة أخوة، هم ، "بنجامين" أو "بنجي"، و"كوانتن"، و"جاسن" وأختهم "كاندز" أو "كادي"، ويجري سردها في أربعة أقسام، يتناول كلّ قسم منها نفس الأحداث، وفي حين يروي الأقسام الثلاثة الأولى أحد الأخوة بالدور، كل بأسلوبه المميّز، ويسرد المؤلف القسم الرابع والأخير. ويقول عنها فوكنر – في حوار منشور بمجلة "باريس ريفيو" عدد ١٢ ربيع ١٩٥٦، الذي صدر ضمن كتاب بعنوان "حوارات نادرة مع كتاب نوبل" عن الدار المصرية اللبنانية عام ٢٠٠٦- : " انها مأساة

امرأتين ضائعتين: كادي وابنتها . تعتبر دلزي واحدة من شخصياتي المحببة، لأنها شجاعة ،جسورة ،كريمة ،مهذبة ،وأمينة . إنها أكثر جسارة وأمانة وكرما مني".

أمّا كيف ولدت رواية "الصخب والعنف" لدى فوكنر، فهو ما أوضحه – في نفس ذلك الحوار (الكاشف) السابق الاشارة اليه - : "لقد بدأت بصورة ذهنية. لم أكن متيقنا في ذلك الوقت من رمزيتها. كانت الصورة جلسة على شجرة آجاص ملوثة بالطين، لوثت سروال بنت صغيرة، ومن قعدتها كان يمكنها أن ترى عبر فتحة بين فروع الشجرة جنازة جدتها وهي تمضي، وتصف ما يحدث لأخوتها على الأرض في أسفل. وقد فهمت بمضي الوقت من كانوا وماذا كانوا يفعلون، وكيف تلوث سروالها بالطين، عندها تيقنت أنه سيكون مستحيلا أن أضع كل ذلك في قصة قصيرة".

لنتوقف هنا قليلا، ففوكنر كان اعتقاده أنه بناء على تلك الصورة الذهنية (الحلم) سيكون الناتج الأدبي (قصة قصيرة). لكنه سرعان ما تراجع عن هذا الاعتقاد بعد أن استوعب الأبعاد العميقة للصورة التي يرتكز عليها العمل محلّ الإنجاز، فكان أن توصّل إلى استحالة أن يكون المنجز قصة قصيرة. وهو ما جعله يستطرد في ذات الحوار "وتيقنت أنه سيكون من المستحيل أن أضع كل ذلك في قصة قصيرة، وان ذلك يجب أن يكون رواية". وعندما حلّ اشكالية (الشكل) الفني أنفتحت أمامه الجوانب المغلقة للصورة الذهنية، فاستطرد يقول: "عندئذ تفهمت رمزية السروال المتسخ بالطين، وان تلك الصورة تولدت بواسطة بنت يتيمة الأم والأب، كانت قد تسلقت هابطة أنبوب صرف كي تهرب من المنزل الوحيد الذي لديها، حيث لم يقدم لها أبدا أي حبّ أو عاطفة أو تفهم".

هكذا بدأ خطوات التنفيذ، وهو ما يوضحه في ذات الحوار السابق، حين استمر: "كنت قد بدأت أحكي القصة من خلال عيني طفل غبي، حين شعرت أنّ ذلك قد يكون أكثر تأثيرا عمّا لو أنها سردت بواسطة شخص ما قادر على معرفة ما يحدث بدون أن يعرف السبب".

لكنه حين انتهى من عمله، وقرأ ما أنجز اكتشف أنه لم يسرد "القصة في تلك المرة، فحاولت أن أحكي نفس القصة ثانية من خلال عيني أخ آخر. لكن ذلك لم يحقق الهدف المنشود. لذلك حكيتها للمرة الثالثة من خلال عيني أخ ثالث، لكنها لم تحقق المراد هي أيضا. لذلك حاولت للمرة الرابعة أن أجمع القطع معا، وأن أملأ الثغرات بوضع نفسي كمتحدث باسمهم. لكنها لم تكتمل أيضا". حتى انتهى الى القول: "وكان لابد من مضي خمسة عشر عاما بعد نشر الكتاب، حين كتبت ملحقا عبارة عن مجهود أخير لسرد القصة وابعادها عن ذهني، حتى يتسنى لي أن أنعم ببعض سلام". ورغم ما

بذل من جهد رهيب الا أنه رأى انّ "ذلك هو الكتاب الذي أشعر بأرق عاطفة تجاهه. لم أستطع أن أتركه وحيدا، ولم أستطع أن أحكيه بشكل صحيح، رغم أني حاولت جاهدا. وقد أحاول ثانية، رغم أن من المحتمل أن أفشل ثانية".

هنا، لابد أن نتوقف مرة أخرى أمام (قناعة) خاصة في تكوين فوكنر أوضحها في الحوار السابق الإشارة إليه حين قال: " في رأيي ،أنه إذا أمكنني أن أكتب كلّ عملي مرة أخرى ، فإننى مقتنع أنني يمكن أن أنجزه بشكل أفضل ، وهو ما يعتبر شرطا صحيا للفنان ،وذلك هو السبب في أن يستمر في العمل، محاولا مرة أخرى، لأنه يؤمن أنه في هذه المرة سيقوم به ،وينجزه. وبطبيعة الحال، لن يتوقف، وذلك هو السبب في كون هذا شرطاً صحياً . فما أن يقوم به ذات مرة ،فانه سرعان مايوائم العمل مع الصورة ،الحلم".

وهناك جانب آخر أشار اليه فوكنر في ذات الحوار السابق حول (الشروط) التي ينبغي توافرها للفنان عندما يتصدّى للحكم على عمل من أعماله، حيث "يجب أن يتمتع الفنان بخاصية موضوعية في محاكمة عمله ، بالإضافة الى الأمانة والشجاعة حتى لا يخدع نفسه. طالما أن لاشيء من عملي قد يتوافق مع معدلاتي، فإننى يجب أن أحاكم عملي على تلك الأسس التي سببت لي معظم الحزن والعذاب ،مثل أم تحبّ طفلها الذي أصبح لصا أو قاتلا أكثر من الابن الذي أصبح قسا.

• ما هو ذلك العمل ؟

فوكنر: انه رواية "الصخب والعنف". لقد كتبته خمس مرات منفصلة، محاولا أن أحكي القصة، كي أخلص نفسي من الحلم الذي استمر يعذبني حتى أنجزت العمل".

**

هنا، كان وليم فوكنر قد دخل دورة الابداع من خلال (صورة) ذهنية مزمعا أن يكون الناتج (قصة) قصيرة، لكنه بعد أن استوعب أبعاد تلك الصورة أيقن أن القصة القصيرة لن تناسبها فحوّل (النوع) الى (رواية). هكذا أنجز المخطوطة الأولى من رواية "الصخب والعنف". لكنه لم يرض عنها، فحاول أن يتخلص من عدم رضاه بـ(اعادة) كتابتها خمس مرات، ثم كانت المرة الأخيرة بعد مضي خمسة عشر عاما على نشرها، وكان يثق بأنه قد يعيد كتابتها مرة أخرى في المستقبل حتى يتخلص من العذاب الذي يعانيه!

**

(٣) في حضرة صورة روائية فريدة:

تعتبر رواية "ذاكرة غانياتي الحزينات" ،هي آخر رواية كتبها جابرييل جارسيا ماركيز (١٩٢٧-٢٠١٤) ونشرها عام ٢٠٠٤ ، وقام بترجمتها صالح علماني وصدرت عن دار المدى بدمشق في مطلع عام ٢٠٠٥ . كان الكولومبي جارسيا ماركيز قد (تأثر) فيها تأثرا كبيرا بـ(الصورة) الروائية لـ"الجميلات النائمات" لليابابي ياسوناري كاواباتا!

ما هي (الصورة) التي حكمت (نشوء) هذه الرواية ؟!

وكيف (تطوّرت) إلى شكلها الأخير ؟!

عناصر حاكمة

تعرّف ماركيز على الأدب الياباني، وتوصّل إلى (قناعة) أوردها في مقدمة كتبها للطبعة الأمريكية لترجمة رواية "الجميلات النائمات" لياسوناري كاواباتا ونشرت عام ١٩٨٢، وترجمتها إلى العربية ماري طوق وصدرت عن دار الآداب ببيروت عام ١٩٨٩ ، كان نص كلماته انّ "الكتاب الوحيد الذي وددت لو أكون كاتبه هو "منزل الجميلات النائمات" لكاواباتا ،الذي يحكي قصة منزل غريب في ضواحي طوكيو ، يتردّد إليه بورجوازيون يدفعون أموالا طائلة للتمتع بالشكل الأكثر نقاء للحب الأخير: قضاء الليل وهم يتأملون الفتيات الشابات الأكثر جمالا في المدينة واللواتي يرقدن عاريات تحت تأثير مخدّر إلى جانبهم في السرير. لا يملكون حق إيقاظهن ولا لمسهن. ولا يحاولون على أية حال ،لأن الاكتفاء الأكثر صفاء لهذه المتعة الناجمة عن الشيخوخة هو إمكانية الحلم إلى جانبهن ".

اذن، كانت رواية "الجميلات النائمات" لكاواباتا ،هي الكتاب (الوحيد) ،الذي رغب ماركيز أن يكون كاتبه ،ولعل ذلك يرجع إلى أن هذه الرواية ترتكز أساسا على (صورة) محورية، خيالية، مبهرة، قد لا تخطر أبدا على بال بشر، لعجوز يتأمل شابة جميلة عارية نائمة إلى جواره دون أن يمتلك حق لمسها أو إيقاظها ،لأن من المعروف عن ماركيز ،أن (المحفز) الأساسي لـ(مخيلته) الإبداعية غالبا ما كان (صورة)، وقد بزغت أشهر أعماله الإبداعية قاطبة ،وهي رواية "مائة عام من العزلة" عن صورة أب يصحب ابنه للتعرف علي الثلج ،كما نشأت رواية "ليس لدى الكولونيل من

يكاتبه" عن صورة عجوز ينتظر سفينة البريد في المرفأ .وربما كان ذلك هو السبب في أن تلك الصورة المحورية لرواية "الجميلات النائمات" قد هيمنت على خياله ،لدرجة أنها غدت الرواية (الوحيدة) ،التي رغب لو كان كاتبها !

ولكن لنتوقف قليلا أمام تحليل أبعاد هذه الصورة . نحن هنا إزاء علاقة لها طرفان (متقابلان): رجل وامرأة ،جمع بينهما المكان مقابل مبلغ كبير يدفعه الرجل لصاحبة الدار ،التي تقبض منه الفتاة مبلغا كبيرا أيضا .. الرجل عجوز ثري والمرأة شابة جميلة فقيرة . يتم اللقاء داخل بيت متعة، يكشف عن جانب خفيّ من حياتنا الداخلية . يشغل الرجل مكانة في المجتمع الكبير ،لذلك يأتي وينصرف في الخفاء ،محاولا أن يستمتع بما يتيحه له هذا الجو الفريد. بينما الفتاة ابنة ليل، بكل ما ترمز إليه من ملاذ وجداني أخير يحتفي بالرجال الوحيدين البائسين دون أي شرط سوى المال، وهي تحاول أن تمنح الرجل تفهما كاملا. وقد ترمز أيضا إلى الأم التي تمنح. كما قد تمثل تلك العلاقة ضربا من تصالح المرأة مع الحياة.

الرجل في حالة يقظة بملابسه كاملة والفتاة نائمة عارية تماما. العري هنا، يعني ابعاد كل العوائق الأخلاقية، وخلع الشخصية لكل المظاهر الخارجية حتى أصبحت عزلاء دون أيّ دفاع، والمذهل في الأمر أن يتم ذلك بموافقتها. أما النوم فهو يعني أن ضميرها في حالة سبات، كما قد يرمز في جانب منه إلى الموت. والعجوز بالمقابل يمثل الماضي وانقضاء الزمن وتدهور الأحوال، واقتراب الموت !

لقاء وما أصعبه من لقاء، بين ذروتين الرجل وهو في طريقه إلى الهزيمة أمام الزمن ،والفتاة وهي في ذروة جمالها وتألقها في ريعان شبابها وإقبالها على الحياة. لقاء يستحيل أن يحدث في الواقع، لكنه أصبح في هذا البيت ممكنا بشرط الحفاظ على نوم الفتاة وعدم لمسها أو إيقاظها. هنا، مرة أخيرة يمتلك الرجل حق (الحلم) المستحيل، وسط (صفاء) الشيخوخة المهيمن !

محاولة تملّص :

لم يكن ممكنا لماركيز (كفنان) كبير أن يستسلم لسطوة هذه الصورة ، فإذا به يكتب (مقالا) كمقدمة لرواية "الجميلات النائمات" (يبتكر) فيه تنويعة بديلة على ذات صورة العجوز إلى جوار جميلة نائمة ،وذلك حين جعل مدخل مقدمته سفرة بالطائرة من نيويورك إلى باريس ،وإذا بالمسافرة إلى

جواره "أجمل امرأة رأيتها في حياتي" ،لكنها سرعان ما استسلمت لنوم منذ بدء إقلاع الطائرة استمر طوال الرحلة ،وإذا هو عجوز (٥٤عاما) إلى جوار جميلة نائمة، وانظر إلى انطباعه: "كنت قد اعتقدت على الدوام أن لاشيء في الوجود يفوق جمال امرأة جميلة، بات مستحيلا أن أفلت ولو لدقيقة من سحر هذا المخلوق الخرافي النائم إلى جانبي". ولكن أنظر إلى عمق (تأثير) صورة رواية "الجميلات النائمات"، الذي كان (يهيمن) على التنويعة الجديدة، وذلك حين استطرد قائلا "كان نومها ثابتا للغاية حتى أني خشيت أن تكون قد تناولت أقراصا للموت بدل النوم". كانت الجميلات النائمات يتناولن (أقراصا) مخدّرة تجعلهن يسقطن في نوم عميق، فامتد تأثير القرص المتخيّل بإيصال النوم العميق إلى بعده الأعمق (الموت) !

هنا، معالجة فنية بديلة على شكل (مقال) ، أو (تنويعة) أخرى لجميلة نائمة إلى جوار عجوز دون أن يدور بينهما أيّ حوار. كانت الجميلة في رواية كاواباتا عارية، بينما هي في هذا المشهد مرتدية ملابسها بالكامل. كما كان العجوز في رواية كاواباتا في السابعة والستين من عمره، بينما كان الراوي (الذي يتواري وراءه ماركيز) في الرابعة والخمسين. كانت الجميلة في الرواية تسقط في النوم بعد تناول قرص مخدّر قوي، بينما نامت الجميلة هنا وفق إرادتها المعتادة فقط. وقد رأى ماركيز في الرواية "الاكتفاء الأكثر صفاء لهذه المتعة الناجمة عن الشيخوخة هو إمكانية الحلم إلى جانبهن"، بينما كانت مشاعر الراوي (ماركيز) بعد أن عاش تجربة السفر إلى جوار جميلة نائمة، أن "الشيء الوحيد الذي تمنيته خلال الساعة الأخيرة من الطيران هو أن يوقظها المضيف لأتمكن من استرجاع حريتي أو ربما شبابي". وفي الوقت الذي لم تكن الجميلة في الرواية تستيقظ أبدا خلال وجود العجائز، إذا بالجميلة النائمة في المشهد الجديد تستيقظ من تلقاء نفسها عندما لامست الطائرة أرض ميناء الوصول.

ثوب قصة قصيرة :

ولكن يبدو أن عمق (تأثير) صورة الجميلات النائمات ظلّ مسيطرا على (مخيلة) ماركيز لسنوات تالية، فكان لابد من أن يبذل محاولة (جديدة) للخلاص من سطوتها وتجاوزها، ولم يكن أمامه إلاّ معمل فنه، فهو الملاذ والملجأ للكاتب كلما أرّقه أمر أو واجهته مشكلة، فإذا به في بداية التسعينات (أي بعد ما يقرب من عشر سنوات) يعيد النظر في تلك المقدمة محوّلا إيّاها إلى (قصة قصيرة)،

مستبعدا منها أشياء ومبقيا على أشياء أخرى، محافظا في ذات الوقت على محور الارتكاز الأساسي، وهو صورة الراوي المسافر في طائرة من نيويورك إلى باريس إلى جوار مسافرة جميلة تنام طوال ساعات الرحلة وتستيقظ عندما تحطّ الطائرة رحالها على الأرض وتغادر دون أن يدور بينهما أي حوار، وجعل عنوانها "طائرة الحسناء النائمة"، والتي ضمّنها مجموعته "اثنتا عشر قصة مهاجرة"، أصدرها عام ١٩٩٢، وترجمها صالح علماني ونشرها عن دار الأهالي بدمشق عام ١٩٩٣، ولعلّ أهم ما أضافه إلى تلك المعالجة الجديدة أن جعل "بشرتها تطلق بخارا خفيفا لا يمكن له أن يكون إلاّ الرائحة الخاصة لجمالها"، و" أن الشيء الوحيد الذي كنت أتمناه في تلك الساعة الأخيرة من الرحلة هو رؤيتها مستيقظة، حتى وان كانت غاضبة، لكي أتمكن من استعادة حريتي، وربما شبابي كذلك".

ولعل في كلمتي استعادة (حريتي)، تعبيرا مجازيّا للرغبة في الانفلات من سطوة صورة الجميلات النائمات عليه، وذلك من خلال ناتج إبداعي مناسب، هو قصة "طائرة الحسناء النائمة"!

رواية جديدة :

لكن يبدو أن ماركيز لم يستطع الخلاص رغم ذلك من وطأة تلك الصورة المسيطرة للجميلات النائمات، ومع انقضاء العمر ظلّت تلك الصورة تطارده ،بينما هو يخوض (فعلا) مراحل الشيخوخة ،فإذا به يجد فيها (تعبيرا) عن تلك المرحلة، فرجع مرة أخرى إلى عالمه الفني ،فهو الملاذ والملجأ ،ليواجه تلك الصورة الراسخة عبر عملية (إعادة) كتابة (ثالثة) ،يكون ناتجها الإبداعي الجديد ،هو رواية "ذاكرةغانياتي الجميلات" (٢٠٠٤) ،مستوحيا فيها بعضا من نفس أبعاد صورة الجميلات النائمات المهيمنة ،فإذا العجوز بطل الرواية في التسعين من عمره ،بينما كان بطل رواية "الجميلات النائمات" في السابعة والستين من عمره .وفي الوقت الذي حافظت فيه رواية "الجميلات النائمات" على استقرار العلاقة بين العجوز مع جميلاته النائمات سرية خفية ،نجد أن رواية "ذاكرة غانياتي الحزينات" قد كسرت هذا الحاجز ،حين خرجت علاقة حب العجوز والشابة إلى الملأ ،لأن الراوي كان يكتب عمودا أسبوعيا لاحدى الصحف المحلية ،كان يتناول فيه كل ما يطرأ على علاقته من تطورات. وفي الوقت الذي لم يكن في رواية"الجميلات النائمات" أي تماس أو تواصل بين العجوز والجميلة النائمة إلى جواره ،نجد أن التواصل في رواية ماركيز قد مرّ عبر مرحلتين :الأولى، حين كان العجوز يقرأ للفتاة أثناء نومها عددا من الأعمال العالمية مثل رواية "الأمير الصغير" لسانت

اكزوبري وحكايات بيرول، وقصص التاريخ المقدس، وألف ليلة وليلة في طبعة مهذبة للأطفال، وانظر إلى تأثير تلك القراءات عليها "وبسبب الاختلافات بين كتاب وآخر، انتبهت إلى أن لنومها درجات متفاوتة من العمق، حسب اهتمامها بالقراءات. وعندما كنت أشعر أنها لم تعد قادرة على تقبل المزيد، أطفئ النور، وأنام وأنا أحتضنها إلى أن تصيح الديكة". ثم جاءت المرحلة الثانية بعد اكتشاف أحد كبار زبائن الدار مطعونا في الغرفة الأولى من الجناح وهروب القاتل، فبدأت فترة ابتعاد وتفريق إجباري بينهما حتى تهدأ الأوضاع، فإذا به يكتشف خلال فترة البعاد أنه يحبها ولا يستطيع الحياة بدونها. وبعد فترة طويلة جمعت سيدة دار المتعة ثانية بينهما، فإذا به يكتشف أنها مشعّة ومختلفة بعد أن نضجت، فأخذته الغيرة واعتبر أن صاحبة الدار قد دفعت بها ثمنا لتدرأ الفضيحة عن دارها، وثار ثورة هائجة ناعتا إيّاها بأنها داعرة، وراح يدمر كل ما يعترض طريقه، فكان انفصال طويل بينهما، استغرق شهورا من المعاناة حتى أعادتها المرأة ثانية إليه تحت إلحاحه المستمر، ليتكبد إصلاح ما أفسده خلال ثورته، إضافة إلى رعاية الفتاة، حتى وصل الأمر إلى حد التفكير في الزواج منها!

ورغم أن رواية ماركيز قد حافظت على الوحدات الخمس التي كانت رواية "الجميلات النائمات" تتكون منها، إلاّ أن أوجه الاختلاف كبيرة جدا بينهما، ففي الوقت الذي حافظت فيه رواية "الجميلات النائمات" على نشوء علاقة بين العجوز وفتاة نائمة تتغير بين فترة وأخرى وقد تستبدل باثنتين في وقت واحد، التزمت رواية ماركيز بعلاقة العجوز مع فتاة واحدة لم تتغير أبدا. وفي حين كان هناك محظور في "الجميلات النائمات" هو ألاّ تمسّ الفتيات أو يتم إيقاظهن ،فان رواية ماركيز خاصة قد طورّت علاقة خاصة مع الفتاة النائمة سواء في المرحلة الأولى من خلال سرد حكايات وقصص وروايات على مسامعها أثناء نومها، ثم كان هناك تواصل مباشر معها في المرحلة الثانية بعد أن تطوّرت العلاقة إلى حب رهيب يكتسح كل ما يعترض طريقه من عقبات. وفي حين كان أي عجوز في "الجميلات النائمات" لا يملك في حضرة الجميلة النائمة إلاّ الحلم، فان ماركيز في روايته قد حوّل الحلم إلى واقع حين نشأت فعلا علاقة حب بين ابن التسعين وابنة الثانية والعشرين!

ولا يمكن للقارئ أن ينسى استبصارات ماركيز حول ملامح الشيخوخة ،التي أوردها في روايته ،تارة حين قال "والحقيقة هي أن أول التبدلات تكون شديدة البطء، لا تكاد تلحظ ،ويواصل أحدنا العيش، بينه وبين نفسه ،مثلما كان على الدوام، إلاّ أن الآخرين يلحظون التبدلات من الخارج"، وتارة أخرى

حين دار حوار بينه وبين سيدة دار المتعة، حين قال لها"المسألة هي أنني آخذ بالهرم. فتنهدت هي: بل إننا هرمنا. والمسألة هي أن أحدنا لا يشعر بذلك في داخله ،بينما الجميع يرونه من الخارج" !

**

بدأت رحلة جارسيا ماركيز، هنا، من خلال تأثره (تأثرا) شديدا بـ(الصورة) الذهنية "للجميلات النائمات" لليابابي ياسوناري كاواباتا، فحاول أن يتجاوز هذا التأثير من خلال كتابة (مقال) عن رحلة طيران تجاوره فيها جميلة نائمة. لكن وضح له أن المقال لم يحلّ اشكالية التأثر والاعجاب بحيث يحرره منهما، فقرر اعادة الكتابة بتحويل المقال الى (قصة) قصيرة. لكن ذلك لم يحرره أيضا، فقام في محاولته الثالثة بتحويل القصة الى (رواية) "ذاكرة غانياتي الحزينات" التي ترتبط بنفس تيمة "الجميلات النائمات" لكنها تختلف في المعالجة. اعادة الكتابة، هنا، في شكل أدبي (مواز) تعني تغيير (النوع) الأدبي، وصولا الى (الشعور) بأنه كما لو أنه هو صاحب الصورة الأصلية!

الخلاصة

يبدأ الكاتب عادة من مؤثر خارجي، كان صورة (واقعية) مريرة بالنسبة لايزابيل الليندي، وكان صورة (ذهنية) بالنسبة لوليم فوكنر وجارسيا ماركيز.

وغالبا ما يبدأ المبدع باختيار (النوع) الأدبي الذي سيتبلور عمله من خلاله، فكان قصة قصيرة بالنسبة لايزابيل الليندي التي حافظت عليه حتى النهاية. ومثلما فكر وليم فوكنر في البداية كقصة قصيرة لكنه سرعان ما نبذ ذلك الرأي محولا القصة الى رواية وفقا لتخيله لتطوّر النص. أما بالنسبة لجارسيا ماركيز فكانت عملية اعادة الكتابة هي بمثابة تغيير في النوع، وذلك حين جرّب (أنواعا) ثلاثة (مقال، وقصة قصيرة، ورواية)، اذ عندما لم ينجح المقال تحول الى القصة القصيرة، وانتهى أخيرا في رحاب الرواية.

وفي جميع الحالات يحرك المبدع قلق عميق، ايجابي، يكاد يرهص بالنص في حالة اكتماله. انه يحسّ به لكنه لا يسيطر عليه بعد، بل يظلّ كميزان حساس يختبر به ما ينجز، فاذا راوده شعور بعدم الرضا لعدم ارتفاع ما أنجزه الى مستوى ذلك الهاجس الداخلي، يعيد الكتابة مرّة أخرى، فاذا استمر عدم الرضا، يعيد الكتابة ثانية، وتستمر الدورة حتى ينال الرضا في نهاية المطاف أو يكتب عليه عذاب مقيم!

ورغم ان الرواية قد تكون (ذروة) أعمال الكاتب، بل وحققت نجاحا جماهيريا ونقديا واسعا، الا ان كاتبها قد يشعر بعدم الرضا وفق بصيرته الخاصة، فيعمد الى اعادة الكتابة سعيا لتحقيق حلم الكمال المطلق للعمل الأدبي، بل وقد تستمر محاولاته في اعادة الكتابة الى ما بعد النشر بخمسة عشر عاما، كما حدث في تجربة رواية "الصخب والعنف" للأمريكي وليم فوكنر، وتماما مثلما تفسّر مغزى الصورة بالنسبة لايزابيل الليندي بعد سنوات طويلة من النشر لارتباط (تفسيرها) بمرض ابنتها المميت!

خطاب باتريك موديانو، درس في الرواية *

تقديم وترجمة: أحمد المديني

حين عمّ خبر حصول الروائي الفرنسي باتريك موديانو المولود (١٩٤٥) على جائزة نوبل الفخمة للآداب، برسم العام ٢٠١٤، ذهب النقاد والمعنيون في الوسط الأدبي الفرنسي إلى تأويلات شتى، بعضها متصل بالقيمة والجدارة الأدبية للفائز، عبر مساره الروائي المثابر، ونوعية الأجواء والنماذج البشرية والمعضلات المصورة والمستثمرة في سروده، والتي تتميز تمثيلا وأسلوبا بخصوصية لا جدال فيها، وبعضها الآخر، بجدل تعرفه كل سنة الشخصية والقيمة الفنية لأعمال الفائز، والذي بات شبه تقليد أن ينتخب من بين كتاب الرواية، حتى كأن الشعر أضحى فنا تعبيريا منبوذا أو مقصيا من اختيارات أعضاء الأكاديمية السويدية. بيد أن هناك جانبا آخر من الانشغال، يختلف عن هذا الاهتمام الطبيعي طرا، انصرف إليه المعنيون بالشأن الأدبي للجائزة وصخبها الإعلامي الملازم، وينصب على الخطاب الذي يلقيه عادة المتوّج بالجائزة يوم الاحتفال الكبير للأكاديمية يوم استلام الشهادة بحضور ملك السويد. وهو خطاب تقليدي للمناسبة، ذو حمولة فكرية وأدبية معتبرة يوليها النقاد والقراء المحترفون أهمية استثنائية ،فينظر إليه بمثابة محصلة لتجربة الكاتب ومفهومه للأدب ولعمله بالذات، وعلاقته بالقيم والمثل الخلقية للوجود ،وأمور من هذا القبيل في باب الأدبيات العامة. اختبار يتنافس فيه النوبليون ويتفوقون أو ينجحون بتفاوت، وفي النهاية هو ابن لحظته، ويعبر، وإذا لم يزد تعميقا في فهم الكاتب وإعلاء مكانته فإنه لن يخدش أو يخف بها ميزانه.

---

* باتريك موديانو الحائز على جائزة نوبل للآداب، ٢٠١٤، في خطابه أمام الأكاديمية السويدية.

غير أن الأمر مع موديانو مختلف، قد اختلف، إذ لقي موضوع تقديم الخطاب المرتقب، لشهر(كانون الأول) ديسمبر، بعد شهرين من إعلان الجائزة ،أي في مطلع (تشرين الأول) أكتوبر اهتماما غير مسبوق، ودارت حوله تكهنات واكتنفته التباسات، بعضها قرين بشخصية المتوج ومزاجه، من غير شك، وبعضها الآخر، من تهويل الصحافة الأدبية وألاعيبها التي تصب أخيرا في لعبة(الماركتينغ) وتساعد على مزيد من إثارة وترويج للبضاعة، وهذا هو الاحتراف. والقضية ببساطة هي أن موديانو معلوم بعيّه في الكلام، وبتقتيره الشديد فيه في أي وسط وجِد، نادر الوجود، قلّ أن يحاور أو يعطي استجوابا، لا تسل عن المقابلة التلفزية ،الخ، هو باختصار كاتب متلعثم، منعزل ومنقطع لعالم رواياته، فثار السؤال وكبر وانتفخ وتهوّل كالإشاعة ،كيف سيقف الروائي الكبير المتوج في اللحظة التاريخية، تلك، بمهابتها وسطوتها بقيمة الجائزة وحضورها، نعم كيف ستخرج من فيه الكلمات، هو الذي تسبقه أمام الملأ الحركات، كما شاهدته مع الحاضرين في دار ناشره، غاليمار، عشية فوزه الميمون وبالكاد فهم الجمهور ما قال. ثم ثار السؤال عن ما سيقول، وهل له القدرة، قل الرغبة ليسهب في العرض والتحليل للعمل الأدبي والقيم بالضرورة، كما هو تقليد متواتر لا غنى عنه في المناسبة، وما تناسل بعدها من أسئلة، قطع دابرها موديانو حين فاجأ الجميع، بالخطاب المثير الذي نقدم ترجمته كاملة غير منقوصة:

أحب بادئ ذي بدء، أن أقول لكم ببساطة تامة، كم أنا سعيد بوجودي بينكم، وكم مبلغ تأثري بالشرف الذي أحظى به وأنتم تتوّجونني بجائزة نوبل للآداب.

إنها المرة الأولى التي ينبغي عليّ فيها أن ألقي خطابا أمام محفل كبير كهذا، وأنا لا أخفي أنني أحس ببعض القلق. يُعتقد أنه مِراسٌ طبيعي وسهلٌ على الكاتب، بيد أن لهذا الكاتب ـ أو لنقل الروائي ـ علاقات صعبة مع الكلمة. ونحن إن تذكرنا التفرقة المدرسية بين المكتوب والشفوي، سنجد أن الروائيَّ موهوبٌ أكثر للكتابي منه للشفاهي. فمن عادته أن يركن إلى الصمت، وهو إن رغب في النفوذ إلى عمق جو ما، يحتاج إلى الذوبان في الجموع. يستمع إلى المحادثات اتفاقا، وإن تدخل فيها فإنما ليطرح بعض الأسئلة الخصوصية بغية فهم أفضل للنساء والرجال الذين يحيطون به. إن مقولة مترددٌ، بسبب تعوّده على الشطب في كتابته. بالطبع، فإن أسلوبه بعد عديد تشطيبات سيبدو سلسا، بينما تراه حين يأخذ الكلمة لا يملك بعد أي طاقة ليصحح ارتباكاته.

ثم إنني أنتمي إلى جيل لم يكن يُسمح فيه للأطفال بالحديث، اللهم إن أُذِن لهم في بعض المناسبات النادرة جدا، وما كان أحدٌ يسمع لهم، فضلا عن أن كلامهم يُقطع غالبا بفجاجة. هذا ما يفسر

صعوبة التلفظ لدى بعض منا، تارةً متلكئة، وتارة أخرى سريعة، كما لو أنهم يخافون أن يقاطَعوا في كل لحظة. ومن هنا، بلا شك، تولدت عندي الرغبة في أن أكتب، مثل كثير، وأنا أغادر الطفولة. أنت تأمل عندئذ أن يقرأك البالغون، مما سيضطرهم أن يستمعوا إليك من غير أن يقاطعوك، ووقتئذ سيعلمون علم اليقين ما تكابده في نفسك.

لقد بدا لي الإعلان عن هذه الجائزة شأنا بعيدا عن التصديق، وانتابتني الرغبة لأعرف على عجل لم اخترتموني أنا بالذات. لم يسبق لي، كما في هذا اليوم، أن أحسست أقوى ما يكون كيف أن الروائيَّ أعمى أمام كتُبه هو، وكيف أن القراءَ أعرفَ منه بما كتب. أعتبر أن الروائي لا يمكن أن يكون قارئ نفسه، ما عدا ليصحح في مخطوطه هفوات التراكيب، والتكرار، أو ليحذف الحشو. إنه لا يملك إلا تصورا ملتبسا وجزئيا عن كتبه، مثل رسام منشغل برسم لوحة في السقف، ويُرى وهو فوق منصة، يعمل عن قرب جدا في التفاصيل، بينما لا يتوفر على رؤية لمجموع العمل.

كم هي وحدانيةٌ عملية الكتابة. إنك تمر بلحظات إحباط وأنت تسوّد الصفحات الأولى لرواية. لديك كل يوم انطباع أنك تسير في الطريق الخطأ. ما يغريك بقوة بالنكوص إلى الخلف، والانخراط في طريق آخر. لا، كلا، ما ينبغي الاستسلام لهذا الإغراء، بل تابع سَيْرك. هذا ما يشبه جلوسك خلف مقود سيارة، وأنت تسوق ليلا في فصل الشتاء، وتمشي فوق قشرة جليدية، برؤية منعدمة. هنا، لا خيار أمامك، لا يمكنك أن تتراجع إلى الوراء، عليك أن تواصل وأنت تقول بأن الطريق لا بد أن تصبح ممهدة، وأن الضباب سيتبدد.

وأنت توشك على الانتهاء من كتاب، يبدو لك أنه ينفصل عنك، وأنه يتنفس حريته وحده، مثل الأطفال في فصولهم الدراسية، عشية فرصة العطل الكبرى. هم ساهون، صاخبون، وفي صمم عن كلام مدرسهم. بل إني أقول بأنه في اللحظة التي تَكتب فيها الفقرات الأخيرة، يُظهر لك الكتابُ بعضَ العداء في تعجّله ليتحرر منك، وها هو يتركك بمجرد ما سطرت آخر كلمة منه. انتهى الأمر، لم يعد بحاجة إليك، لقد نسيك تماما. ومن الآن، فالقراء هم من سيكتشفونه. عندئذ ستشعر بخواء هائل، وينتابك إحساس أن هناك من هجرك. أضف إليهما نوعا من عدم الرضا بسبب العلاقة التي تصل بينك وبين الكتاب، والتي انفكت عروتها بسرعة مفرطة. لذا، فهذا الإحساس بعدم الرضا، والشعور بوجود نقصان ما، يدفعانك إلى كتابة الكتاب الموالي لإقامة التوازن، من دون أن تنجح في هذا أبدا. ذلك أنها الأعوام تمر، والكتب تتوالى تباعا، والقراء يتحدثون عن "العمل"(l'œuvre ـ

Work)، فيما ينتابك الشعور أخيرا بأن الأمر لا يعدو أن يكون أكثر من هروب طويل إلى الأمام.

أجل، إن القارئ يعرف أكثر عن الكتاب من مؤلفه نفسه. يحدُث بين رواية وقارئها ظاهرةٌ مماثلة لتلك الخاصة بإخراج الصور، بالطريقة التقليدية قبل ظهور تقنية الرقمية. ففي لحظة تحميض الصورة داخل الغرفة السوداء، تصبح الصورة أقل بروزا. كذلك حين نتقدم في قراءة رواية، يحدث المسلسل الكيميائي ذاته. إنما، لكي يحدث التوافق بين المؤلف وقارئه، يتوجّب على الروائي أن لا يضغط على قارئه ـ بالمعنى الذي نفهمه من أن مغنيا يضغط على حباله الصوتية أكثر من طاقتها ـ وإنما أن يأخذه برهافة ويترك له الهامش الكافي لينطبع فيه الكتاب شيئا فشيئا، وهذا بفن يشبه طريقة التداوي بالإبر، حيث تُغرز إبرة في الموقع الدقيق لينتشر الأثر سريعا في النظام العصبي.

إننا نجد لهذه العلاقة الحميمية والتكاملية بين الروائي وقارئه معادلا في ميدان الموسيقى. لقد فكرت دوما بأن الكتابة قريبة من الموسيقى، وإن أقلّ صفاء منها بكثير، وكم غبطت الموسيقيين الذين اعتبرتهم يمارسون فنا أعلى من الرواية، وكذا الشعراء الذين هم الأقرب إلى الموسيقيين من الروائيين. كنت شرعت في كتابة قصائد في طفولتي، ولا شك أنني بفضل هذا تأتّى لي فهمٌ حسنٌ لفكرة قرأتها في مكان ما تقول:" إننا بشعراء رديئين نصنع ناثرين جيدين". ثم إنه، وبالنسبة للموسيقى، فإن من شأن الروائي أن يحمل معه كل الأشخاص، والمشاهد، والأزقة التي لاحظ، يرتبها في معزوفة حيث نعثر على المقاطع اللحنية ذاتها من كتاب لآخر، ولكنها معزوفة موسيقية ستبدو له ناقصة. فسيوجد عند الروائي دائما الأسفُ بأنه لم يحظ بوضع أن يصبح موسيقيًا خالصا، وبأنه لم يؤلف مقاطع لليليات شوبان الشهيرة Les Nocturnes de Chopin

يعود نقصان النباهة والمسافة النقدية للروائي إزاء مجموع أعماله أيضا إلى ظاهرة لاحظتها في حالتي الشخصية وحالة آخرين غيري: كل كتاب جديد، وهو يُكتب، يمحو سابقه إلى حد أني أتصور بأني نسيتُه. حسِبت أني كتبت كتبي الواحد تلو الآخر بطريقة متقطعة، وبفعل نسيان يتلو بعضه بعضا، لكنها غالبا الوجوه ذاتُها، الأسماءُ، الأماكنُ، الجملُ هي،هي، تعود من هذا إلى ذاك، من موتيفات سجادة نكون قد نسجناها في حالة بين النوم واليقظة، أو خلال حلم يقظة. إن الروائي في الغالب شخصٌ مُسَرنَم، بقدر ما هو مخترَقٌ بما ينبغي أن يَكتب، ويمكن أن يتملكنا الخوف عليه من أن تدوسه سيارة وهو يعبر الشارع، وفي الآن، فإننا ننسى الدقة القصوى للمسرنمين الذين يمشون فوق السقوف من غير أن يسقطوا أرضا أبدا.

في التصريح الذي أعقب إعلان فوزي بجائزة نوبل، استوقفتني الجملة التالية التي تشير إلى الحرب العالمية الثانية:" إنه[موديانو] كشف الستار عن عالم الاحتلال". إنني مثل كل اللواتي والذين ولدوا سنة ١٩٤٥، من أبناء الحرب، وبصفة أدق، بما أنني ولدت في باريس، فأنا طفل مدين في ولادته لباريس إبان الاحتلال[يحيل الكاتب هنا إلى واقعة أن أبويه التقيا صدفة في زمن الاحتلال النازي لباريس، ومن ثم تزوجا وأنجباه، سيفصل لاحقا في هذه الإشارة]. والأشخاص الذين ولدوا في باريس، هاته، أرادوا أن ينسوها بأسرع ما يكون، أو أن لا يحتفظوا منها سوى ببعض التفاصيل اليومية، من قبيل ما يوحي بأن حياتهم كل يوم لم تختلف عن تلك التي عاشوا في ظروف عادية. ومعها حلمٌ يقضّ مضجعهم، وأسفٌ عائم بأنهم بقوا أحياء بعد الحرب. وحين كان أبناؤهم يسائلونهم لاحقا عن هذه الحقبة، وعن باريس، هذه، لم تصدر عنهم غير أجوبة هروبية، أو كانوا يلوذون بالصمت كما لو أنهم يريدون أن يمحوا من ذاكرتهم هذه السنوات المظلمة ليُخفوا عنا أمرا ما. لكن، وأمام صمت آبائنا، كنا جميعا نخمِّن به، تماما كما لو أننا عشنا تلك السنوات.

ما أغربها باريس الاحتلال، تلك. في الظاهر، بدت الحياة وهي تستمر" كما في السابق": فالمسارح، وقاعات السينما والموزيكول، والمطاعم ظلت مفتوحة. كنا نسمع الأغاني ناغمة من الراديو، بل امتلأت قاعات السينما والمسرح بجمهور أكثر مما كانت عليه في زمن الحرب، تحسب أن هذه الأماكن هي ملاجئ يتجمع فيها الخلق متساندين ليحصلوا على الأمان. وبسبب عدم وجود السيارات، باتت المدينة صامتة، صمت كنا نسمع فيه حفيفَ ورق الشجر، ووقْعَ حوافر الخيل، وصدى الخطوات على إسفلت الشوارع، هي وجلَبةُ الأصوات. في صمت الطرقات، ومع حلول منع التجول الذي يبدأ شتاءً ابتداء من الخامسة بعد الزوال، والذي خلاله يُمنع أخفتُ نور عبر النوافذ، تغدو هذه المدينة غائبة عن حالها، مدينة " لا ترى"، حسب عبارة النازيين، آنذاك. بينما الكبار والصغار، يمكن أن يختفوا في أي لحظة، من غير أن يتركوا أي أثر، بل وحتى بين الأصدقاء، كان الحديث يجري بتقطّع، ولا محادثات صريحة بالمرة، لأن الجميع كان يحس بسيف التهديد مسلطا على الرؤوس.

في باريس الكابوسية، هذه، حيث يمكن أن تصبح ضحيةً لوشاية أو احتجاز وأنت تخرج من المترو، كم جمعت الصدفة بين أشخاص ما كانوا ليلتقوا في زمن السلم، وولدت علاقات غرام تحت جنح ظلام منع التجول من غير وجود أي يقين بأمل لقاء في يوم قريب. مثل هذه اللقاءات، التي بلا فسحة أمل، وأحيانا لقاءات مشينة، أثمرت ولادات عديدة في ما بعد. لهذا السبب اعتبرت دائما أن

باريس الاحتلال كانت بالنسبة إليّ ليلة مؤسِّسة. بدونها ما كنت جئت إلى العالم، وباريس هذه ما انفكت تسكنني، وضوؤها المحجوب يسبح أحيانا في كتبي.

هذا هو الدليل على أن الكاتب يُطبَع بكيفية لا تمّحي بتاريخ ميلاده وبزمانه، حتى ولو لم يشارك مباشرة في العمل السياسي، أو وهو يعطي الانطباع بأنه متوحد، مُنطوٍ على نفسه في ما يسمى "البرج العاجي". وإن هو كتب أشعارا، تجدها على شاكلة زمنه، ولا يمكن كتابتها في زمن غيره.

من هذا القبيل، قصيدة ييتس[الشاعر الإرلندي W.B.Yeats ١٨٦٥ ـ ١٩٣٩]"البجعات المتوحشة في كوول"[The Wild swans at Coole]، لها وقع شديد على نفسي لدى كل قراءة. وحيُ القصيدة جاء من رؤية ييتس لبجعات تنزلق على الماء:

" منذ أن عددتهن للمرة الأولى

هبط الخريف التاسع عشر في نفسي؛

كنت رأيتهن قبل أن أكمل العدّ

علون فجأة

وصرن يمرحن وهنّ يدرن في حلقات مكسورة

بأجنحتهن الصاخبة.

أما الآن، فإنهن يَنسَبن فوق المياه الهادئة

شامخات وبملء الجمال.

فعلى أي جذع سيُقمن أعشاشهن،

على ضفة أيِّ بحيرة، أيِّ بِركة،

وهل سيمتِّعن عيونا أخرى حين سأستيقظ

فأجد، ذات يوم، أنهن قد طرن؟

كثيرا ما تظهر البجعات في شعر القرن التاسع عشر- عند بودلير[١٨٢١-١٨٦٧] وملارميه [١٨٤٢-١٨٩٨]،بيد أن هذه القصيدة ما كانت لتُكتب في القرن ١٩.هي بإيقاعها الخصوصي وأساها

تنتمي إلى القرن العشرين، بل وإلى السنة ذاتها التي كتبت فيها [١٩١٩].

يحدث كذلك أن يحس كاتب من القرن ٢١ بنفسه أحيانا سجينَ زمانه، وأن قراءة روائيين كبار من القرن١٩ من عيار بلزاك، وديكنز، ودوستويفسكي، يشدّونه إليهم بغربة ما. ففي وقتهم كان الزمن يمضي أبطأ من اليوم، وكان هذا البطءُ منسجما مع عمل الروائي، وبمقدوره معه أن يركز طاقته وانتباهه. ومنذئذ، تسارع الزمن وصار يتقدم بإيقاع هزات، ما يفسر الفرق بين الكتل الروائية الكبرى للماضي، ومعمار الكاتدرائيات، وبين الأعمال المتقطعة والمجزّأة للحاضر. في هذا الأفق، أجدني أنتمي إلى جيل وسيط، ولكم أحب أن أعرف كيف ستعبر الأجيال اللاحقة، التي ولدت مع شبكة الإنترنت، والهاتف المحمول، والرسائل الإلكترونية، والتويت، بواسطة الأدب، عن هذا العالم الذي هي موصولة به "Connecté" باستمرار، وحيث "الشبكات الاجتماعية" تستولي على حصة الحميمية والسرية التي كانت في ملكيتنا إلى عهد قريب؛ هذا السر الذي كان يمنح العمق للناس، ويمكن أن يمثل تيمة روائية عظيمة. ومع هذا، أحب أن أبقى متفائلا تجاه مستقبل الأدب، وأنا على يقين بأن كتاب المستقبل سيتحملون المسؤولية كما فعل أسلافهم، من جيل إلى جيل، مند عهد هوميروس.

علاوة على هذا، فإن الكاتب، شأن كل فنان، مهما ارتبط بحقبته بأوثق الروابط، وتنفس ما نسميه "رائحة زمنه"، تراه يعبر في أعماله دائما عن ما هو أبعد من زمنه (لا ـ زمني). هكذا، ففي إخراج مسرحيات راسين، وشكسبير، لا يهم أن الشخصيات ترتدي الزي العتيق أو أن المخرج يريد إلباسها بناطيل الجينز أو سترة جلدية، فهذه تفاصيل لا أهمية لها. إننا ونحن نقرأ تولستوي، ننسى أن أنّا كارنينا ترتدي فساتين من سنة ١٨٧٠، ما دامت قريبة منا بعد قرن ونصف. ثم إن بعض الكتاب، مثل إدغار ألان بو، وملفيل، أو ستندال، يُفهمون بعد مائتي عام على وفاتهم، أجود من فهم معاصريهم لهم.

وفي نهاية المطاف، على أي مسافة يا ترى يوجد الروائي[مع ما يمثل ويصف]؟ إنه يوجد على هامش الحياة لكي يصفها، ذلك أنك إن كنت منغمسا فيها كل الانغماس، فستتكون لديك صورة مشوشة عنها. غير أن هذه المسافة المحدودة لا تمنع من سلطة التحقق التي يملكها تجاه شخصياته وتجاه اللواتي والذين ألهموهم في الحياة الحقيقية. ألم يقل فلوبير:"مدام بوفاري، هي أنا"، وتماهى تولستوي لتوّه مع من رآها ترمي نفسها ذات ليلة تحت عجلات قطار في محطة بروسيا. وموهبة التماهي، هذه، عند تولستوي، ذهبت شأوا بعيدا، إلى حد أنها بلغت درجة الاندماج بالسماء والمشهد الذي يصف ويمتص كل شيء، ليصل حتى إلى أخف رفّة هدب لأنّا كارنينا. هي حالة نقيض

للنرجسية لأنها تفترض نسيانا للذات وتركيزا شديدا ليتأتى التقاط أدق التفاصيل. يستلزم هذا، أيضا، توفر ما يمكن من عزلة، وأنا لا أعني الانكفاء على الذات، وإنما ما يسمح بالوصول إلى درجة من الانتباه واليقظة القصوى تجاه العالم الخارجي، تؤهل لنقله إلى صعيد الرواية.

لقد اعتقدت دائما أن الشاعر والروائي يُضفيان الغموض على الكائنات التي تبدو وقد غمرتها الحياة اليومية، وكذا على الأشياء البدَهية في الظاهر، وهذا من أثر قوة ملاحظتها بانتباه مكثف وبطريقة شبه تنويمغنطيسية. تحت نظراتهم تغدو الحياة الجارية ملفّعة بالسحر[الغموض]، وهي تتخذ لونا فوسفوريا لا تملكه من النظرة الأولى إليها، وموجودا في عمقها. ومهمة الشاعر والروائي، والرسام،أيضا،أن يميط اللثام عن هذا السحر والفوسفورية الخبيئين في قعر كل منا. أفكر الآن في قريبي البعيد أمِدِيو موديغليانو[الرسام الإيطالي ١٨٨٤ـ ١٩٢٠] من تُعد أشهر لوحاته المؤثرة تلك التي اختار فيها النماذج الغفل، وأطفال الشوارع، بنين وبنات، والخادمات، وصغار الفلاحين، وفتيان الصناع. رسمهم حادّ يذكر بتقاليد مدرسة توسكان، [مدرسة رسم إيطالية] ورسامي مدرسة سينوا في كواتروسينتو ..بهذه الكيفية أعطى لهم، بالأحرى، كشف كل اللطف والنبل الكامنين فيهم تحت مظاهرهم الرثة. ليذهب عمل الروائي في هذا المنحى. وخياله، من دون أن يحرف الحقيقة، عليه أن ينفذ إلى داخلها في العمق، ويكشفها هي ذاتها، بأشعة ما فوق الحمراء وفوق البنفسجية ليختبر ما تحت الظواهر. وما لي لا أقول إن الروائي في أفضل حالاته هو نوع من الرّائي، بل العرّاف. وكذلك هو قيّاس زلازل، قادر على تسجيل الحركات والهزات اللامرئية.

أتردد دائما قبل الإقدام على قراءة سيرة هذا الكاتب أو ذاك ممن أُعجب بهم. فالسِّيَر تنشدّ أحيانا إلى تفصيلات صغيرة، وإلى شهادات غير موثقة كما يجب، وكذا إلى طباع مزاجية تبدو مقلقة أو مخيبة مثل أصوات نسمعها تشوّش بعض برامج الراديو وسماع الموسيقى والأصوات. وحدها قراءة كتبه تجعلك تصادق كاتبا، وهنا حيث تجده في أفضل وضع، وهو يحدثنا بصوت خفيض، دون أن يتعرض صوته لأيما تشويش.

ولكن، ونحن نقرأ سيرة كاتب، نكتشف أحيانا حدثا طبع طفولته، هو بمثابة محرك لآتي عمله، من غير أن يكون هو على بينة كاملة منه؛ حدث طاغ عاد بمناسبات مختلفة ليسكن أعماله. تحضرني هنا شخصية ألفرد هتشكوك، الذي ليس كاتبا، بينما لأفلامه قوة وتناغم العمل الروائي. فهو يروي هذه الحكاية عن حياته، يقول فيها إن أباه حمّله وهو في سن الخامسة نقل رسالة إلى صديق له،

عميد شرطة. وحين سلمه الرسالة عمد الرجل إلى حبسه داخل زاوية هي بمثابة زنزانة في مفوضية الشرطة حيث يُحبس المنحرفون لأسباب شتى. وقد انتظر، وهو الطفل المفزوع، انتظر ساعة كاملة قبل أن يُفرج عنه الشرطي الكبير، ويقول له: " إن أنت انحرفت في حياتك، فإنك تعرف الآن ما ينتظرك". لا شك أن مفوض الشرطة هذا صاحب المبادئ الغريبة في التربية، لهو، بلا شك، في أصل جو القلق والفزع اللذين نجدهما في كل أفلام هتشكوك.

الحق، لا أريد أن أثقل عليكم بحالتي الشخصية، وإن كنت أعتقد أن حلقات من طفولتي قد اشتغلت محركا لكتبي، في ما بعد. فإني كثيرا ما وجدتني بعيدا عن والديّ، عند أصدقاء لهم لا معرفة لي بهم، وفي أماكن ومنازل، بكيفية متتالية. حينه، لا يندهش الطفل من شيء، بل حتى وهو في أوضاع غريبة، يظهر له هذا شيئا طبيعيا تماما. إنما، وفي وقت لاحق جدا، شرعت طفولتي تظهر لي ملغزة، وحاولت أن أتعرف أكثر على الأشخاص العديدين الذين سلمني والداي إليهم، والأماكن المختلفة التي كانوا يبدلونها باستمرار. ولكني لم أفلح في التعرف على غالبية هؤلاء، ولا أن أحدد بدقة طوبوغرافية لجميع أماكن ومنازل الماضي. وأعتبر أن إرادة تفكيك الألغاز، دون النجاح في ذلك حقا، ومحاولة النفاذ إلى سحر ما، هو ما وهبني الرغبة في الكتابة، كما لو أن الكتابة والخيال بمقدورهما أن يساعداننني على فض هذه الألغاز والمغالق. [لنشر إلى أن الرواية الأخيرة لموديانو، بعنوان:

"Pour que tu ne te perdes pas dans le quartier"(كي لا تضيع في الحي) تستعيد هذا الوسواس وهي تصوره بحذافيره، ونجده يتخلل أعمالا بارزة أخرى للكاتب، نراه خلالها قصاص أثر، أثر لا ينقطع فيها أبدا، ولن يستمر سرده إلا على هذا المنوال والطابع].

وبما اننا بصدد الحديث عن الغامض، السحري(Mystère ـ Mystérieux)،والشيء بالشيء يذكر، أفكر في رواية فرنسية من القرن التاسع عشر بعنوان:"Les mystères de Paris"[رواية فرنسية لأوجن سو نشرت منجمة في صحيفة باريسية، بين ١٨٤٢و١٨٤٣. إن باريس الكبيرة، مدينة باريس، مسقط رأسي، مرتبطة بانطباعات طفولتي الأولى، وهذه الانطباعات كانت من القوة، إلى حد أني لم أنقطع عن استثمار "غرائب باريس". كنت وأنا في سن التاسعة أو العاشرة، أتجول وحدي، ورغم الخوف من الضياع، أمضي أبعد فأبعد في أحياء لا معرفة لي بها من قبل، في الضفة اليمنى[Rive droite]، تنتظم باريس أحياء بين ضفتي نهر السين، اليمنى واليسرى، لكل منهما تاريخه وثقافته وتراتبية وطبيعة سكانية ومزاجية خاصة]. كان تجوالي نهارا وهذا يطمئنني. في بداية المراهقة، كنت أحاول التغلب

على خوفي والمغامرة ليلا نحو أحياء نائية، أقصدها بواسطة المترو. هكذا يمكن تعلم المدينة، وفي هذا تتبعت مثال أغلب الروائيين الذين أعجبت بهم، والذين اتخذوا منذ القرن ١٩ من المدينة الكبيرة ـ سواء تسمّت باريس أو لندن، سان بترسبورغ أو استووكهولم ـ ديكورا وأحد التيمات الأساس لكتبهم.

كان إدغارألان بو(١٨٠٩ـ١٨٤٩)من أوائل من أثار في قصته القصيرة: "رجل الحشود" [The man of the crowd، ١٨٤٠ (ترجمها بودلير في" مجموعة القصص العجيبة" بعنوان L'homme des foules] صورة الموجات البشرية التي رصدها من خلف زجاج مقهى بلندن ورآها تتتابع فوق الأرصفة. هنا التقط وجه رجل عجوز ذي ميسم غريب فلاحقه الليل بطوله في أحياء لندن كلها، وكذا في صبيحة اليوم التالي، ليتبين له أخيرا أن الشخص المجهول ليس أحدا سوى" رجل الحشود" وأن من العبث أن يستمر في ملاحقته، سيبقى هو، هو، غفلا، ولن نَخبر عنه شيئا قط. فهو لا يتمتع بوجود فردي، هو واحد فقط من كتلة المارين التي تمشي في صفوف متراصة أو تتدافع، ثم تضيع في الشوارع.

وأجدني أفكر كذلك في حلقة من شباب الشاعر توماس دوكوينسي(Thomas De Quincey[كاتب بريطاني ١٧٨٥ ـ١٨٥٩] طبعته أبدا. ففي لندن، وفي زحمة حشد أكسفورد ستريت، تعرّف على فتاة ما، إحدى لقاءات الصدفة التي تنعقد في المدن الكبرى. قضى برفقتها عدة أيام، ثم اضطر لمغادرة لندن بضعة أيام أخرى، على أن يلتقيا بعد أسبوع، حيث سينتظرها كل مساء في الساعة نفسها عند زاوية تيشفيلد ستريت.. ثم إنهما لم يلتقيا بعد أبدا. "من المؤكد أننا بحثنا عن بعضينا مرات، في اللحظة ذاتها، عبر المتاهة الهائلة للندن. ربما كنا متباعدين ب ١٨ مترا فقط، وهو ما يكفي ليحدث فراقا أبديا".

وبالنسبة لمن ولدوا وعاشوا في حي ما، ومع توالي السنوات، فإن كل حيّ، كل زقاق في مدينة، يثير ذكرى، وشجنا، لحظة سعادة. وكثيرا ما يقترن الزقاق نفسه عندك بذكريات يتلو بعضها بعضا، حتى إنه وبفضل طبوغرافية المدينة، هي حياتك كلها تعود إلى الذاكرة رقائق متتالية، كما لو أن بمقدورك فرز كتابات متراكمة في طُرس. شأنها كذلك حيوات الآخرين، آلاف وآلاف المجهولين، من تتقاطع معهم في الأزقة وممرات المترو في أوراق زحام الذروة.

هكذا، وفي مرحلة شبابي، ولأستعين على الكتابة، كنت أبحث عن الطبعات القديمة لدليل هاتف باريس، خاصة حيث الأسماء مصنفة حسب الأزقة وأرقام العمارات، ومن صفحة إلى أخرى كان يتولد لدي الانطباع بأنني أمام صورة إشعاعية للمدينة، إنما مدينة غارقة، مثل[جزيرة]الأطلنتيد، وأنني أتنفس رائحة الزمن. وبسبب هذه السنوات التي انصرمت، ظلت الآثار الوحيدة التي تركها

هؤلاء الآلاف والآلاف من المجهولين هي أسماؤهم، وعناوينهم وأرقامهم الهاتفية. أحيانا، يختفي إسم ما، من سنة إلى سنة. كان ثمة شيء مدوّخ في تصفّح الدليل وأنا أفكر أن أرقام التلفونات لا تجيب. في وقت لاحق، استثارتني أبيات من قصيد لأوسيب ماندلستام [Ossip Mandelstam شاعر روسي ١٨٩١ ـ١٩٣٨] يقول فيها:

" عدت إلى مدينتي الأليفة حتى غصص البكا

حتى غُدد الطفولة، والأوردة

تحت الجلد.

هي بترسبورغ![...]

من هواتفي، لديك الأرقام.

آه، بترسبورغ! لديّ عناوين الزمن الخالي

حيث أعرف الموتى من أصواتهم."

أجل، أتصور أني باستشارتي لمطبوعات دليل الهاتف السنوية تولدت عندي رغبة كتابة كتبي الأولى. كان كافيا أن أسطر إسم شخص مجهول، وعنوانه، ورقم تلفونه، وأن أتخيل ماذا كانت عليه حياته بين مئات ومئات ألاف الأسماء.

إنك قد تضيع، بل وتختفي في مدينة كبيرة. تستطيع أن تغير هويتك وتعيش حياة جديدة.. يمكن إنجاز تحقيق طويل للعثور على آثار شخص ما، ونحن لا نتوفر سوى على عنوان أو عنوانين لحي ضائع. وكثيرا ما أفادتني الإشارة المقتضبة في بطائق البحث [عن المختفين]: "آخر سكن معروف". إن تيمات الاختفاء،والهوية،والزمن الذي يمر، مرتبطة كلها بطوبوغرافيا المدن الكبرى. ولهذا سادت خلال القرن ١٩ في أعمال الروائيين، وترتبط أسماء بعض كبارهم بالمدينة بالذات: بلزاك وباريس، ديكنز ولندن، دستويفسكي وسان بترسبورغ، طوكيو وناغا كافو، ستوكهولم وهالمار سودربرغ[وفات موديانو بالطبع ذكر: نجيب محفوظ والقاهرة].

إنني أنتمي إلى جيل تلقى تأثير هؤلاء الرومانسيين، وأراد بدوره أن يستثمر ما سماه بودلير:" الثنايا الملتوية للعواصم الكبرى". وبالطبع، فمنذ خمسين عاما، أي منذ الفترة التي كابد فيها مراهقو

جيلي أحاسيسهم القوية وهم يكتشفون المدينة، نعرف اليوم أن هذه العواصم تغيرت. بعضها، في أمريكا اللاتينية أو ما نسميه العالم الثالث، تحولت إلى" ميغا- بول"[بأبعاد عمرانية وبشرية] مقلقة. والسكان فيها محشورون في أحياء منبوذة غالبا، وفي جو حرب اجتماعية. بينما تتكاثر مدن الصفيح وتتشعب في لا- اتجاه. وإلى حدود القرن العشرين حافظ الروائيون على نوع من الرؤية " الرومانسية" للمدينة، لا تختلف عن تلك التي لدى ديكنز أو بودلير، لذا أحب أن أعرف كيف سيعالج روائيو الغد هذه التجمعات الحضرية الضخمة في آمالهم التخييلية.

لقد كان من لطفكم أن لمحتم في ما يخص كتبي إلى:" فن الذاكرة الذي بواسطته أثيرت المصائر البشرية التي يصعب القبض عليها". أحسب أن هذا التنويه يتجاوز شخصي، فهذه الذاكرة الخصوصية التي تسعى للملمة بعض بقايا الماضي وما تبقى من آثر تركها على الأرض ناس غفل ومجهولون، لهي نفسها قرينة بتاريخ ولادتي، أعني سنة ١٩٤٥. فأن تكون قد ولدت في هذه السنة، بعد أن دمرت المدن، واختفت بشرية بأسرها، جعلني بكل تأكيد أكثر حساسية [وتعاطيا] مع مواضيع الذاكرة والنسيان.

إنما، يبدو لي، بكل أسف، بأن البحث عن الزمن الضائع لا يمكن أن يتم بالقوة ذاتها والصراحة التي توفرت لبروست، فالمجتمع الذي وصف كان ما يزال متمتعا بالاستقرار- هو مجتمع القرن١٩. لقد استحضرت ذاكرة بروست الماضي في أقل تفاصيله، كلوحة حية. أما اليوم، فيخيل إلي أن الذاكرة أبعد ما هي عن اليقين وعليها أن تصمد بشدة أمام الأمنيزيا والنسيان. وبسبب طبقة وكتلة النسيان، هذه، لم نعد قادرين على التقاط أكثر من مقاطع من الماضي، وآثار متقطعة، ومصائر بشرية منفلتة وغير قابلة للسيطرة عليها.

إنما، أيضا، أليست هنا توجد موهبة الكاتب، وهو أمام الصفحة البيضاء الكبيرة للنسيان، وهو يحاول أن يوقظ بعض الكلمات نصف الممحية، مثل جبال ثلج مخفية ضائعة (أيسبرغ) تنحرف على سطح المحيط.

---

* تمت الترجمة من النص الأصلي الكامل،الذي تسلمناه من السكرتارية الدائمة للأكاديمية السويدية لجائزة نوبل، وستقوم دار النشر غاليمار بنشره لاحقا في كتيب مستقل، باعتبارها الدار المشرفة على إصدار أغلب أعمال الكاتب، فوجب التنويه.

منديل الموت في جيبي

"إلى محمود درويش"

متين فندقجي

ترجمة: عبدالقادر عبدللي

منديل الموت في جيبي

١

من نور يطوّف في جسد قنديل

حلّقت بجناحي حدأة

في اللازمان واللامكان واللاوطن.

ألبست أجساد الأحرف الساحرة

لغتك المشغولة بالحياة، غير المألوفة لأحد

أذكر ثانية قولك:

"أموت".

مثلاً، عندما يرتدي البحر الميت

شمسا مشرقة من فراش موتك،

عصرَ زمنٍ معطاء يؤدي إلى الشارع،

ونلقي الشعر الذي يجوب في ظل لغتين

لأنفسنا من جهة، وأحدنا للآخر من جهة أخرى

أذكر ثانية قولك:

"أموت".

٢

إذا كان لا بد من تذكرك

فبعد ظهيرة يوم من آب،

حيث ستغيب الشمس

ونحن مازلنا جالسين

ستقول ريتا:

الخمر آية الماضي الخالدة،

هل نشرب؟ لنشرب

"ها هي رام الله خلف الجبل"

نعم، "الآلهة تسبح في الحبر خلف الجبل"/

أذكر ثانية قولك:

"أموت".

٣

نكمل حديثنا من حيث توقفنا،

يا لأحلامنا الخارجة من المخدة،

منذ كم ألف عام تغوصين

في قميص البوسفور الأزرق

كما كنتِ تحت التراب

وأنتِ تنظرين من (قاليون)

"هذا يعني أن ناظمَ تسرب إلى البحر الأسود

من هذا الجسد الدقيق،

جسد الشاعر حلّق بشهية تلك الأمواج

وهو يحمل منديل الموت في جيبه.

تستطيع أن تغلق الأبواب بالمزاليج

ولكن هذا لا يمنع الكلام.

عليّ أن أتذكرك

أذكر ثانية قولك:

"أموت".

٤

"في نور الكلمات – وظلمة الزمن"

عشت،

في قلبك

بهشاشة العصفور، وطعم القهوة على لسانك

وهكذا وهكذا

كنت فجأة "في غربة السرير" هادئا دون حس ،

بلون الزعتر والميرمية...

تحمل صورة موتك في شعرك؛

أنكيدو الذي يتجول مرتدياً الأبيض

وعمره المنهوب.

أديت أغنية عرس

تنتهي باسم فلسطين،

حتى الخيول الوحيدة، حيث بداية التأريخ بالنسبة للنجوم

خجلت أمام شعرك

أذكر ثانية قولك:

"أموت".

٥

نحن في يوم عطلة آخر،

وكأن شيئاً لم يعتق في قلوبنا

سنلتقي في باحة بيت أمي الحجرية لنشرب القهوة.

إنه حلم

هدفه،

أن يصعد الشعر على لسان الإنسان

أذكر ثانية قولك:

"أموت".

٦

بألم يلائم البحر

رسول الأحزان البعيدة

ها أنا ذا في البوسفور الذي أحب.

اليوم عطلة

في يدي سبع زنابق من غيوم سوداء

وغصن زيتون ذابل.

أذكر ثانية قولك:

"أموت".

٩ – ١٦ آب ٢٠٠٨

قبر درويش

١

أذكر يوم جئت معه،

-كان كلمة البدء-

قال بعينه التي لم تعد ترى جيداً:

ابني جاء من اسطنبول.

كان ذلك يوماً سعيداً، مع كثير من الأصدقاء

رافقنا الشعر

كماء على ألسنتكم، ونار في أصابعكم/

القط الذي احتك برجلك ومر تواً إرث منه،

زوجا الحمام اللذان على جدار السطح،

يعرفانه غاية المعرفة،

أنا أراقب معهما من هنا

أناساً لا أعرفهم،

يأتون كل يوم لزيارة قبره/

عاش وهو يفكر بغيره دائماً،

كان يتكلم لغة القرى المُفْرَغة،

والأطفال المقتولين،

والمدن والناس المحاصرين،

وكان حقيقياً كرائحة هذه القهوة،

وماركسياً حقيقياً، وهكذا مات.

بقيت الثورة التي يحلم بها طوال حياته

في المجاز.

دون أن يعرف أنه سيدفن على هذا الجبل

بعد سنتين.

يا لجمال الشعر في ذلك اليوم.

ذهابه كان موسماً للهجرة
من الشرق، من الغرب، من الجنوب،
ومن الأندلس.
مرت حدءات على أشجار البرتقال،
وحطت غيوم على أغصان الزيتون،
في أرض مولد الأنبياء هذه
وبرفقة نهر الناس الشبيه بالوحدة
عبرت جنازته.

-هل تعرف؟-
لا مكان للألم والوحدة
سوى قلب الإنسان
هناك وطنها الوحيد
تتنقل معه بين الأمكنة بصمت.

٢

للمدن النازفة
أزقة لن تندمل جراحها في أي وقت

وأنا أغلق خلفي باب البهو
بينما ألوان الشمس تذوب كالثلج
في هذه الأزقة.

عندما تصل إليّ
،وأنا مختبئ في هذه الأرض،
مثل هرم زجاجي.

رام الله برعمُ الألم والعنف
وتحت شمس لا تغيب سعيدة في أي زمن
أكلت من خبز أمك
الذي كنت تحن إليه دائماً أثناء حياتك.

جلبت لك غصن زيتون وغار
اعتادت الشمس عليهما. والآن،
أنا ذاهب إلى شارع إدوارد سعيد
لأشرب الميرمية والقهوة التي تحبها،
وكأسي نبيذ في وقت من المساء.
سألقي هذا المساء تينك القصيدتين التي قرأتهما لي قبل سنتين،
وأخرج إلى أزقة المدن النازفة ولن تندمل جراحها في أي وقت
لأتجول من دونك.

أهجىء الرمل ووجه العقرب

"هذا الوضع ينتشر مثل قطرة الدم ويغطينا"

غابرييل غارسيا ماركيز

أمامي الفرات المرتحل،

وفي هذا الخليج الصغير الذي ذهب إليه البرابرة

ألقي مرساتي.

التف دجلة "بشاله الأحمر"

وفي رقبته عقد من حصى الزمان

بقيت بعد لعبة نهب.

أفتح وجهي على حريق ساحة الفردوس

أجساد كهرمان تتدفق من تحت الجسر

عودك مكسور، وصوته حزين

يترك جسدي لليلة "فاركا"*.

أقطع خان مرجان، أور، أوروك

تخوض قدماي بالدم

يمضي التاريخ في مهد بابل الصغير

الليل فراش من حبل غليظ.

بابل بين السماء والأرض.

بابل أنت قفل ومفتاح في آن

يا حبيبة تعلن الحداد منذ آلاف السنين

الشمس تشرق على حجرك، وتغيب منه

على حجرك يكتمل قوس رسمه حمل وعنكبوت

على حجرك ينتظر الزيتون و ظل حملك الطويل شمسهما.

طوفان من جهة،

وسجدة من جهة

تفسخ لحم الزمان

وقميصك مبتل بالدم.

* فاركا: عاشق من بني شيبة

تيلمون، لاغيش، غيرصو*

أشعر بموت آخر في حضني، وحلم قديم.

أشعر بدم آخر في فراشي، يتفصد ماءً

أشعر بمرآة أخرى على وجهها قناع ماء فضة

أشعر بك مرة أخرى، ويُقذف القمر إلى الليل.

* * *

مرة أخرى،

لا تسأل عن هذه الأيام الدموية الفارغة من العشق.

لا تسأل عن هذه الحضارة المزالة من غير الظلام.

لا تسأل عن هذه الباحة المقصوفة دون عجلة.

لا تسأل عن جذور التين والزقوم هذه، التي ليست من الماء.

لا تسأل عن هذه الجغرافية التي تزرع فيها الطلقات.

لا تسأل عن هذا الموت الذي يطوف من الشمال إلى الجنوب.

التاريخ المختبئ في شق عميق

الواصل بالنواح والصياح

وكل ما دونت ملاحظته للغد، لا تسأل عنه.

لا تسأل عن الأجساد "الذائبة في أكفان الحروف"

لا تسأل عن الجسد الذي لا تجده لتدفنه

من بغداد إلى بابل

لا تسأل عن "الأنبياء الذين ولدوا مع الموت"

من بغداد إلى بابل

ولاعن الماء الذي أغسل فيه يديّ ورجليَّ،

وأتطهر به.

من بغداد إلى بابل

عرفنا الرمل الذي سيخرج من حليب الأم وعين الطفل

عرفنا فراش الفلوجة ليلة نمنا

لا تسأل

من بغداد إلى بابل

عرفنا الرؤوس المحمولة على أسِنَّة الرماح

مما تبقى من الأزمنة الغابرة

والدم الممزوج بالنفط

ومن الحسين إلى غرفتنا

ومن قابيل إلى مائدتنا.

وعرفنا مرة أخرى

* تيلمون، لاغيش، غيرصو: مدن سومرية

الإرث المنهوب

وأرض الطواف

وبرودة التاريخ في المشرحة

من بابل حتى يومنا، فلا تسأل.

طوفان هنا،

وصلاة هناك

تفسخ لحم الزمان

وقميصك مبتل بالدم.

* * *

إشارات منصوبة في أجساد الأطفال المقتولين

أكسر أختاماً شمعية

ولا أستطيع الوصول إليك.

من بابل إلى يومنا

جرى حليب المرضعة الأحمر الذي ترضعه للزمان

لا أستطيع إيجاد المعراج الأسود في عينيها

لا أستطيع الوصول إليك.

وفي أعماق المعراج الأسود في عينيك

أهجئ الرمل ووجه العقرب.

خوفي يتبع رائحة التوابل

وبمعراج الخشب المحترق التف بالرمل والجراح

وفي معراج امرأتي تذوب الأختام الشمعية، فلا تسأل!

ها هو باب الباحة المنهوبة

وهذه هي بشرتك التي تفوح برائحة القهوة يا حبيبتي.

من بابل إلى يومنا

جئتك بعادة بقيت عندي منذ قديم الزمان

جرح آلاف الآبار التي تؤلم قلبي هنا.

جسد بغداد المثقوب

من الشرق إلى الغرب

ومن الشمال إلى الجنوب.

أنا قادم من الفراش الذي تعانقُ فيه الشمس الرمل.

ومن الطريق الذي فتحته الوحشية بالنار

يفوح برائحة القهوة والتوابل والميرمية.
من معراج عشقي الضائع في حضني
قادم منك وإليك.

سر البحر

ليست هذه رحلتي الأولى ولن تكون الأخيرة
أدرت القفل مرتين و من أجل وداع قصير
وضعت المفتاح الدافئ في جيبي. ها قد رحلتُ.

روعة هذا الجبل أبردت جسدك
أعرف الأشجار واحدة واحدة
والمخابئ بمناديلها البيضاء المخبأة
مسحت عرقي، تخيلت الكزبرة،
أسرني شوك السماق،
جذبتني رائحة الزعتر،
سحرني جمال الغزال
ابتكرت ألحانا لتغريد العصافير
صنعت دليلاً لدرب الأودية المحفوفة بالمخاطر
من أجلك، تغلبت على خوفي من هيبة هذا الجبل
و أتيت.

ظاناً أنَّ لا نهاية هذا السهل هي جلدك

أعرف الأعشاب ورقة ورقة،

النباتات، و الحشرات، عبرت من زمن أزهار برتقال

حملت استعارة غصن الزيتون في حقيبتي

ورأيت خيانة الأفعى في أعشاشي

و شعرت برائحة أشجار اللوز، و نمت تحتها

عجنت طين النجوم و مزمزت شفتي بالتراب المشقق

أرتديت مناخك ومشطت القمح بأصابعي

ظاناً أن لا أبدية هذا السهل في جلدك،

و لقد اجتزتة و جئت.

طريق الحضارات كلها الذي يقود اليك

كان مكانك، تجولت ظانا الشواطئ ساقيك وذراعيك

عبرت همسك، المضاء بالشمس

و جئت، مقطوع الأنفاس، إلى لَيلكِ

آه أيها البحر الذي جئت لي

أحل لغزك هنا،

ها أنت هنا،

أخيراً.

مكان للشوق

I

تعرف كيف تكون باحة كنيسة قديمة

وتعرف الزمن الذي يمضي في بوصلة مكسورة سُرق خزفها.

تعرف كيف تؤخذ النفس في باحة كتلك

وتعرف الخبز العفن للأيام التي لم أرك فيها، وأنتظر.

في سفينة شراعية حربية مثقوبة، تعرف أن وجهك قطعة يابسة

غابة، خليج صغير، مكان للقاء.

وتعرف أنه غير موجود. وتعرف كيف الباحة القديمة

وما عشناه نحن، وتقف عيناي عند فصل الواحة.

تعرف أن عينيك عميقتان عبر الزجاج المكسور

ولانهاية لهما، وآه يا مساء الأربعاء المنتظر.

فهمت أنك المكان الذي ضاع بيدي

وأنك العمر القصير ليدي على بشرتك اللانهائية.

صوتك الذي لا ينادي مع هدير المساء والهواتف

تعرف كيفية هو عدم معرفة الجهات، تعرف

أن ما وراء عيني القط هو صحراء...

سوناتا II

في امتداد الصحراء

نبتة منتشرة

تحب التمسك بالبحر

وهو مزدحم ومتمرد

وفي المدن المكسّرة والناعمة

لا يُستطاع الوصول إليك

أقول إنه شتاء ينظر إلى هاوية.

يبقى الحلم في سفر الليل

تحت رماد نار متنقلة

وألمك يتعرف إلى شفتيك ولا يلمسهما

من أجل أن أقول لك مرة أخرى أحبك

أقول بيأس شهوتك المحاصرة.

المستيقظ وحيداً صباحاً بهمس الليل

والسائل والمتسائل عن الاحتمالات كلها

والمتدفق ظله من ممر مشقوق

من (قزل تبة) إلى (يدي تبة)

وبعصفور ميت أكلت عينيه

أقول إنه سوق متنقل ينتشر

وحده.

متين فندقجي

ولد في مدينة ماردين عام ١٩٦١. وبعد أن أنهى تعليمه الأول والمتوسط في ماردين، هاجر مع أسرته إلى أنقرة. درس الثانوية هناك، عمل موظفاً في البداية، ثم مترجماً في شركة تجارية، ثم خرج مبكراً إلى التقاعد وتفرغ للكتابة والترجمة.

مقيم في اسطنبول.

بدأ كتابة الشعر عام ١٩٨٠. وبالتوازي مع هذا بدأ بترجمة الشعر العربي، لتقديمه للقارئ التركي. ونشر أشعاره وترجماته الشعرية في كثير من دور النشر والمجلات الأدبية الكبرى. أكثر الشعراء العرب الذين اهتم بهم هم: أدونيس، محمود درويش، نزار قباني، نازك الملائكة.

لديه خمس مجموعات شعرية هي: "خرابا- ١٩٩٢"، "قلبي تحت الماء- ١٩٩٦" "مسافة القرنفل- ٢٠٠١"، "منسي- ٢٠٠٤"، "سترة من صحراء- ٢٠٠٦"..

ساهم متين فندقي بقوة في تقديم المشهد الشعري العربي للناطقين بالتركية، من خلال ترجمته للعديد من المجموعات الشعرية من العربية إلى التركية، منها: "أدونيس- (ثلاث مجموعات)، محمود درويش (أربع مجموعات شعرية)، "نزار قباني". نازك الملائكة

كما ترجم أعمالاً لعدد مختار من شعراء جيل الثمانينيات العرب، مثل المصري احمد الشهاوي والمغربية عائشة بصري والفلسطيني غسان زقطان، وأعد كتاباً بعنوان: "مختارات من الشعر العربي".

"جان جينيه" العاشق الأسير للتمرد وأقصى مداه

إدريس علوش

"أرجو أن لا يتغير العالم لكي يمكنني أن أقف دائما ضده" ،هو الشعار الذي اختاره "جان جينيه"، اختاره عن وعي- وعي نقدي- ليجابه به المستقبل ويتحدى ماضيه الصعب والمرير، ماضيه الأليم الذي قاده إلى السجون وهو لم يتجاوز بعد سن السادسة عشر،وفي السجن الذي دخله أكثر من مرة، استوعب شراسة درس الحياة، وعاش فيه حيوات متعددة،وتمرد على المجتمع وضوابطه مادام هذا الأخير لم يأخذ بيده ،ولم يمنحه أي نوع من الحنان عدا حنان أمه التي سيدين لها به ما تبقى له من عمره،لم يعرف "جان جينيه" ما الحنان الأبوي، أو حتى المجتمعي..؟

قوة "جان جينيه" كانت تكمن في قوة ما أبدعه من نصوص وكتب وأدبيات، ولأن الكتابة كانت هي الوسيلة الوحيدة لاثبات الذات والتعبير عن رفضه لسلبية المجتمع الذي رفضه في طفولته وبداية مراهقته،عمل "جان جينيه" كل ما في وسعه ليتقن لغته الفرنسية وامتلاك ناصيتها القصوى، وبالمثابرة نجح وبامتياز في ذلك لدرجة أنه تفوق على رموزها الكبار ومثقفيها، وهذا ما جعل "جان كوكتو" و"جان بول سارتر" و"أندري بروتون" رائد السوريالية الفرنسية وكتاباً آخرين في صدارة المدافعين عنه وعن أدبه وإبداعه الذي لا يضاهى سواء أكان مسرحا أو سردا أو شعرا،ولأجل ذلك ،أي لأجل العمق النصيِّ القلق، واستثنائية الشكل والأسلوب المتضمنة في كتب هذا الأخير،

كتب عنه "جان بول سارتر" كتابا ضخما عنونه ب"القديس جان جينيه"، رغم أن "جان جينيه" نفسه لم يكترث ولم يأبه كثيرا لهذا الكتاب رغم أهميته.

وعن اللغة الفرنسية ذاتها يقول "جان جينيه" التي هي بمحصلة القضايا لغة سيادة وسلطة الدولة التي أنجبته وتركته على رصيف محك الحياة وقساوتها:"كان علي أن أفسد و أقود هذه اللغة إلى الإنحراف وأسخر منها".ويضيف ليؤكد نصره وانتصاره

"انتصاري لفظي وأنا مدين به إلى فخامة التعبير".

*

ولد جان جينيه في العاشر من كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩١٠ في الساعة ١٩,٤٥ في مشفى التوليد المعروف باسم"تارينيه"،٨٩ شارع أساس، في باريس، أمه" كامي غابرييل جينيه"، في الحادية والعشرين من العمر، عازبة، وصرحت بأنها تمارس مهنة "مربية"،أما والده فمجهول.هذا ما كتبه "ألبير ديشي" في سيرة حياة "جان جينيه" وهي سيرة مكثفة بالأحداث والتراكم والدلالات،ويضيف "ألبير ديتشي":"بدأ سرقاته الصغيرة، مع أنه كان عضوا في فرقة المنشدين في الكنيسة، بالإضافة إلى قيامه على خدمة المذبح أثناء القداس.كان يسرق الكتب والأقلام والحلوى..وفي سنة ١٩٤١ طارده خياط في الشارع ،كان قد سرق منه قطعة قماش من الحرير، وعند وصوله إلى كنيسة "نوتردام" في باريس قبض عليه صاحب مكتبة كان "جان جينيه" قد اختلس منها مجموعة أعمال "بروست"، وحكم عليه بثلاثة أشهر ويوم واحد".

ولأنه سرق الطبعة النادرة لديوان"فرلين"،"أعياد مستهترة "حكم عليه بالسجن المؤبد إلا أن"جان كوكتو" سيتزعم حملة عريضة ضد هذا الحكم المستبد، وسينجح في مسعاه، وينقذه من ذاك المصير القاسي. "جان كوكتو" كان معجبا بكتابات "جان جينيه" وأول ما أعجب به قصيدة هذا الأخير "المحكوم بالإعدام" ،التي كتبها وهو نزيل أحد السجون الفرنسية، وله يعود الفضل في نشر أول كتب "جان جينيه".

الكاتب السوري مالك سليمان في إعداده لكتاب "جان جينيه"،"شعرية التمرد"،الصادر عن دار كنعان بدمشق ،سنة ١٩٩٨ يقول:

"أن تقترب من "جان جينيه" يعني ،ببساطة،أن تضيع إحداثياتك الشخصية، وتغتسل من الأدران

المتراكمة عبر قرون من التقنين والتحنيط والمفاهيم التقليدية التي تلجم الحياة،وتمنع تفتح الوعي. أن تقترب من "جان جينيه" يعني أن تسير على سلك رفيع مشدود.وكلما اقتربت منه أكثر استدق السلك وازداد توترا وخطورة. وفي الطريق إليه تفقد اتجاهاتك المألوفة ولا تدركه إلا وأنت عار ومبعثر.وهذا ما حدث للكثيرين الذين اغوتهم رمال "جان جينيه" المتحركة التي تمور في عوالمه المختلفة والمثيرة: فمن لاعب السيرك الشاب عبد الله الذي انتهت مغامرته مع "جان جينيه" بالانتحار، إلى المغربي محمد القطراني الذي اختل عالمه مع رحيل جان جينيه وتعرض عقله لعطب دائم وبقي حارسا مهووسا لقبر "جان جينيه" في العرائش ،إلى الروائي الأمريكي "إدموند وايت" الذي اعترف أن كتابته لسيرة حياة "جان جينيه" قد حولته إلى متشرد يهيم في العالم وصولا إلى دمشق والعرائش بحثا عن طيف جان جينيه".

محمد شكري الذي كتب كتابا أسماه "جان جينيه في طنجة" يروي أن الكثيرين من أصدقائه حذروه من الوقوع في فخاخ اللعنة التي تعتري وتصيب "جان جينيه"، دون أن تستثني محيط مريديه، إلا أن محمد شكري استهوته المغامرة، وألقى عنوة بظلاله غير آبهٍ بوصايا الآخرين ليحتكم إلى روح تجربته للتعرف على هذا الكاتب الكبير،وعن هذه التجربة يقول محمد شكري:

"كنت في مقهى "سنترال" مع "جيرار بيتي"، فجأة قال: أنظر ها هو ذا "جان جينيه". كان يمشي ببطء يداه في جيبي سرواله، وملابسه مهملة وسخة، ينظر باستمرار نحو سطيحة مقهى "سنترال". توقف، التفت إلى مقهى "فوينتس" ثم اتجه إلى مقهى "طنجة" قلت ل" جيرار": أريد أن أعرفه. قال بانفعال: من الأحسن ألا تفعل، إنه يتضايق من معرفة الناس بسهولة. الانسجام معه صعب. هكذا سمعت عنه.

أنا نفسي يقول محمد شكري كنت قد سمعت عنه أشياء كثيرة. كان قد قال لي مسؤول في المركز الثقافي: "أن من يقترب من جان جينيه عليه أن يتوقع إما صفعة أو قبلة على وجهه".

محمد شكري نجح في نسج علاقة مع "جان جينيه" رغم صعوبة مزاج هذا الأخير الذي كان ينأى بنفسه عن التواصل مع المثقفين، والكتاب والمبدعين إلا في حدود ضيقة، وقد كانت له فرص عديدة في التواصل مع هذا الأخير، وهذا ما حفزه لكتابة كتاب "جان جينيه في طنجة".

جان جينيه الذي اختار أن يعيش جانبا من حياته في العرائش باحثا عن سكينة تبعده عن جو

المشاحنات الثقافية ومتاهات الكتّاب ورهانهم على تناقضات المرحلة، قريبا من صديقه محمد القطراني، غير منتبه وبالمرة لمجده الأدبي وبالصورة التي رسمتها الثقافة العالمية عن شخصه.

في رسالته ل"أندري جيد" سنة ١٩٣٣، والتي نشرت سنة ١٩٣٥، يكتب جان جينيه-مقطعاً من رسالة-:"إن تجربتي القليلة تدفعني إلى الاعتقاد بوجود تأثير يغلب على الثقافة الحالية لنوع من الأدب-من أين جاء؟ أريد أن أسميه"أدب اللاوعي"،مع أنني لا أقيم مع عالم المثقفين إلا أدنى العلاقات،أعتقد أن الثقافة موجهة باتجاه ما" واصفا بهذا رأيه في الثقافة وعلاقته بالمثقفين.

في موزاة ذلك عاش "جان جينيه" تحت ظلال الحركات الثورية والمتمردة مع "الفهود السود"، ومع الفلسطينيين الذين ناصر عدالة قضيتهم ،ومع العمال المغاربة المهاجرين في فرنسا الذين ناضل إلى جانبهم من أجل انتزاع حقوقهم المشروعة.

سافر "جان جينيه" أول مرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية في آب/أغسطس سنة ١٩٦٨، ساعتها خاطر ودخل التراب الأمريكي بلا تأشيرة، وهو يدرك خطورة هذا الموقف وما يترتب عنه من الناحية القانونية من زجر، حيث حضر مؤتمر الحزب الديمقراطي في "شيكاغو" التي قال عنها: "بدت لي شيكاغو، عندما كنت أراها من أوروبا، مدينة الحكايات العجيبة والأخطار الشديدة بسبب العصابات الاجرامية فيها.وعندما ذهبت إليها وجدتها خطرة جدا بسبب رجال الشرطة فيها،ببزاتهم الزرقاء الفاتحة الشبيهة بتلك التي ترتديها راقصات "كازينو باريس". وفي شيكاغو شارك مع "وليام بوروز" و "الان غينزبرغ" في التظاهرات العنيفة التي قام بها "الهيبيون" والفهود السود" ضد الحرب في فيتنام".

وعن العنف والعنف المضاد يقول "جان جينيه": "عندما يتعلق الأمر بالعنف، يجب علينا التمييز والاختيار. ولذلك، أنا ضد العنف الذي يمارسه الأمريكيون في فيتنام،ولكنني مع العنف عندما يمارسه الفيتناميون ضد الأمريكيين.كما أنني ضد عنف رجال الشرطة ومع عنف السود في شيكاغو".

في سنة ١٩٢٨ التحق "جان جينيه" بالشام إبان الإنتداب الفرنسي في إطار الخدمة العسكرية الإجبارية، وحاول أن يتعلم اللغة العربية، وذاكرته ظلت محملة بما عايشه هناك من تفاصيل في نهاية عشرينات القرن الماضي. وعاد إليها ولأجل أسباب مغايرة -هذه المرة- ومختلفة وهي مناصرة عدالة القضية الفلسطينية والتعرف على الحراك الثوري الذي يقوده فدائيو الفصائل الفلسطينية

وكان ذلك سنة ١٩٧٠، وحدث أن تسلل إلى داخل الأراضي الفلسطينية برفقة مجموعة من الفدائيين لم يفشِ السر لأحد وإلى غاية موته، لأي فصيل من مكونات الثورة الفلسطينية كانوا ينتمون، وفي سنة ١٩٨٢ كتب نصه الشهير أربع ساعات في شاتيلا وهو شهادة حية عن همجية ما اقترفه الكيان الصهيوني ضد الشعب الفلسطيني وعن الفلسطينيين واستنادا الى النص ذاته يقول "جان جينيه":

"بالنسبة لي، أن تكون كلمة "فلسطينيون" موضوعة في العنوان، أو في صلب مقالة، أو على منشور سري فانها تستحضر في ذهني مباشرة الفدائيين في مكان معين هو :الأردن، وخلال فترة يمكن تحديدها بسهولة، تشرين ثاني /نوفمبر- كانون الاول/ديسمبر من العام ١٩٧٠، وكانون ثاني / يناير، وشباط/فبراير، وآذار/مارس، ونيسان/أبريل من العام١٩٧١. ففي هذه الفترة وفي ذلك المكان، عرفت الثورة الفلسطينية". وهو هنا يتحدث عن المد الثوري الذي شاهدته الثورة الفلسطينية ، والعمليات الشهيرة التي قامت بها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة وديع حداد وجورج حبش.

توفي جان جينيه في العاشر من نيسان/ أبريل سنة ١٩٨٦ في غرفة صغيرة في أحد الفنادق قرب ميدان ايطاليا،١٩ شارع "ستيفن بيشوت" في باريس. ودفن في المقبرة الاسبانية القديمة بالعرائش، يوم ١١ نيسان/أبريل من نفس السنة .

وبوفاته تتوقف رحلة كاتب عظيم لم يكن يشبه الكتاب الآخرين في شيء، فهو كاتب استثنائي فيما أبدعه من نصوص، وما راكمه من حيوات مفعمة بالمغامرة والمخاطرة: كل رأسماله ليعلن للعالم :"كم أنا مختلف".

سميح القاسم: شاعر المقاومة في الزمن الجميل

كريم مروة

إنه سميح القاسم، الاسم العلم، آخر شعراء المقاومة في فلسطين من الرعيل الأول. أولئك الذين حملوا في شعرهم آلام ومآسي الشعب الفلسطيني، وحملوا أحلامه في الحرية التي لا شفاء منها ولا بديل عنها.

غادر سميح القاسم الحياة بعد ثلاثة أعوام من المرض والمعاناة ومن الكفاح من أجل الحياة. وخسر العالم العربي وخسرت فلسطين في غيابه علماً كبيراً من أعلام الشعر العربي الحديث. وخسرت أنا صديقاً من زمن كانت قد بدأت تتكوّن فيه علاقة من نوع فريد بين شعبين عربيين شقيقين هما الشعب اللبناني والشعب الفلسطيني في كفاح توحدت فيه، في الصواب وفي الخطأ، مطامحهما في الحرية والتقدم. واحتلت الثقافة في ميادينها المختلفة في هذا الكفاح الوطني التحرري المشترك دوراً غير مسبوق.

لقد اختار سميح القاسم منذ شبابه الباكر برفقة صديق عمره محمود درويش أن يكون شاعر قضية وشاعر إنسان وشاعر هوية وشاعر هوى وحب وجمال. لكن اختياره البقاء داخل أسوار الوطن المغتصب لم يكن قسرياً، بل كان طوعياً بكل المعاني. كان قراراً صعباً، لكنه كان قراراً صائباً. كان بمقدوره أن يغادر سجنه الطوعي في الاتجاه الذي سلكه في ظروف صعبة الملايين من أبناء شعبه إلى أماكن الشتات المتعددة مناطقها في العالم. غير أنه فضّل البقاء في المنفى داخل الوطن إلى جانب من بقي من شعبه على الذهاب بعيداً في المنافي التي لا حدود لها. وخاطب من داخل المنفى الذي كان فيه وطنه المغتصب حين قال بأعلى الصوت:

لا وطن أنت، ولا بيت، ولا حبيبة

أما فهمت بعد؟

صلية نار، صرخة، زنزانة

لا وطن أنت

ولا بيت

ولا حبيبة

يا حارس الجبّانة

حزن

وهور

وسكوب

وسهرة صاخبة وفرحة

وجثة ونور

كل الذي ورثت من أمس لبعد الغد

أما فهمت بعد؟

لا وطن أنت، ولا بيت، ولا حبيبة

مجزرة دهرية تمتد

ورحلة في الوجد

فابكِ على الحبيبة

ابكِ على الحبيبة

لكن رثاءه الوجودي هذا للوطن المغتصب ترافق مع تمرّد وثورة أعطاهما صفة ودور ووظيفة المقاومة حتى النصر، النصر الذي ما زال في ساحة الانتظار الأبدي يحبو وسط الآلام والأوهام نحو غد مشرق آت لا محالة.

منتصب القامة أمشي

مرفوع الهامة أمشي

في كفي قصفة زيتون

وعلى كتفي نعشي

وأنا أمشي وأنا أمشي وأنا أمشي

كنت منذ مطالع ستينات القرن الماضي أتابع بشغف وبتقدير كبير من خلال الصحافة العربية، لا سيّما منها الفلسطينية التي كانت تصلني في مقر عملي في فيينا في القيادة اليومية لمجلس السلم العالمي، ما كان قد ابتدعه سميح القاسم مع رفاقه الشعراء أبو سلمى وتوفيق زياد ومعين بسيسو وكمال ناصر ومحمود درويش من شعر حديث أطلق عليه ووثقه بإتقان الروائي الشهيد غسان كنفاني في كتابه الشهير "أدب المقاومة". وكان ذلك الشعر بامتياز شعراً فلسطينياً مقاوماً. وكان الشعراء الذين كان سميح القاسم واحداً منهم هم أبطال ذلك الشعر المقاوم. وكان لذلك الشعر دور بالغ التأثير في كفاح الشعب الفلسطيني من أجل الحرية، لا سيّما في المرحلة التي انطلقت فيها الثورة الفلسطينية الجديدة في مطلع عام ١٩٦٥. وسرعان ما انضم إلى هذه الكوكبة من الشعراء في الاتجاه ذاته عدد من الشعراء الفلسطينيين وعدد من الشعراء اللبنانيين كان أبرزهم شعراء الجنوب .

في مطالع السبعينات تعرّفت إلى سميح بعد أن كنا قد أصبحنا صديقين بالمراسلة ورفيقين في الهمّ الوطني الثوري وفي اعتبار المقاومة، كل منا على طريقته وبنوع سلاحه الثقافي، طريقنا إلى الحرية. اكتشفت فيه آنذاك عن قرب ذلك النموذج الرائع للمثقف الذي كان يجمع في حياته بين سحر الكلمة التي يمتاز باستخدامها الشعراء في كل العصور وبين شخصية المناضل اليساري المؤمن بأن مستقبل بلاده في الحرية والتقدم والعدالة هو جزء لا يتجزأ من مستقبل البشرية برمّتها.

قرأت كل دواوين سميح القاسم أو هكذا يخيّل إليَّ. وقرأت كتاباته النثرية التي كان ينشرها في جريدة "الإتحاد" وفي مجلة "الجديد" وفي مجلات عربية أخرى. وقرأت ما كنا قد نشرناه له في مجلة "الطريق" من قصائد ومن مقالات وأحاديث. ورغم أنني لست ممن ينتمون إلى طائفة النقاد، فإنني كقارئ شغوف بالشعر منذ مطالع شبابي أشهد بأن سميح القاسم كان واحداً من رموز حركة الشعر الحديث، بأسلوبه هو بالطبع، أسوة بسواه من الشعراء، وبطريقته هو في اختيار

مواضيع قصائده ومناسباتها ووجهته فيها. وكان يحتل ذلك الموقع في معرفتي به بصفته شاعراً صاحب رسالة ومناضلاً ثورياً ينتمي إلى حركة اليسار.

وإذا كان من غير الصواب في هذه اللحظة بالذات، لحظة وداعه، التوسع في الكلام عن سميح القاسم في الاتجاهات التي سلكها، فإنني لا أستطيع إلا أن أشير، مجرد إشارة، إلى تلك التعرّجات التي رافقته في العقود الثلاثة الأخيرة من حياته. وهو ما عبّرت عنه بعض كتاباته وبعض مواقفه وبعض قصائده. لكن سميح لم يكن الوحيد فيما جرى له من تعرجات في حياته. إذ سبقه إلى ذلك أحد أساتذته الكبار الأديب والمناضل اليساري العريق الروائي إميل حبيبي. وكعادتي في علاقاتي مع أهل الثقافة من رفاقي في الموقع الفكري والسياسي ومع الآخرين من اتجاهات فكرية وسياسية مختلفة، فقد بقيت أميناً وحريصاً على العلاقة ذاتها منذ نصف قرن مع سميح ومع الآخرين.

وجهة نظري في هذا الموضوع تتلخص بأن مثل هذه الحالات هي طبيعية إذا ما أخذنا في الاعتبار ما يمكن أن يواجه المثقف على وجه التحديد من أحداث وتحوّلات تترك تأثيراتها عليه في اتجاهات مختلفة. فمنهم من يبقى ثابتاً في موقعه وموقفه ومنهم من يدخل في تعرّجات. وعلينا أن نحترم أوضاع وخيارات أولئك المثقفين. وقد واجهتني مثل هذه الحالات مع إميل حبيبي قبل سميح القاسم في فلسطين، وواجهتني مع آخرين من مثقفين كبار عرب وأجانب. وبقيت أميناً وثابتاً في علاقتي مع الجميع، ودخلت معهم جميعهم من موقع الصداقة في سجالات وخلافات واختلافات.

قبل عامين سألت أحد الأصدقاء الفلسطينيين عن سميح القاسم، فأخبرني أنه يعاني من مرض خبيث. فأحزنني ذلك. واغتنمت فرصة وجودي في القاهرة وفي عمان للاتصال به. وتحدثنا في أمور حرصت ألا يكون المرض واحداً منها. وكان آخر حديث بيننا في العام الماضي عندما كنت في عمّان. سألته متجاهلاً وضعه الصحي عن قصد عمّا إذا كان بإمكانه ملاقاتي في عمّان. فأجابني بحسرة ومرارة وبحب وشوق للللقاء بيننا: "هل تتصوّر يا كريم أنني أنا القاعد في منزلي بانتظار آخر أيامي سأتمكن من ملاقاتك في عمّان؟". طيّبت خاطره وحزنت. وبدأت أكافح ضد ذلك الزمن الذي سيعلن مجيء اللحظة التي ستفجعنا برحيله. وها هي قد جاءت.

سيظل سميح القاسم بعد رحيله، إلى جانب من رحلوا قبله من الرواد الكبار في حركة الحداثة في الشعر وفي الرواية وفي كل ميادين الثقافة، سيظل مع هؤلاء في تراثه وتراثهم نموذجاً رائعاً للدمج العقلاني بين دور المثقف صاحب الرسالة ودور المناضل الثوري من أجل التغيير.

قراءة في نثر سميح القاسم

يحيى يخلف

الحديث عن سميح القاسم حديث عن مراحل تاريخية مرت بها القضية الفلسطينية على مدى ما يقارب من سبعة عقود، أي منذ النكبة عام ١٩٤٨ حتى تاريخ رحيله، فقد رافق عطاؤه الشعري والنثري كل المحطات التي مرت بها القضية، وعبّر من خلال أعماله عن تحولاتها وتجلياتها.

تاريخ حافل بأحداث تراجيدية رافقت النكبة والكارثة، أبرزها اقتلاع الشعب الفلسطيني ونفيُه وتحوله إلى طوابير لاجئين في دول الشتات، وبقاء أقلية فلسطينية تحت حكم الدولة الصهيونية. هذه الأقلية التي تعرضت لأقسى أشكال القمع والتنكيل، والتي واجهت ذلك بالصمود والتحدي، ومن صفوفها خرجت نخب سياسية وثقافية واجتماعية ناضلت على مدى عقود من أجل حقوقها وهويتها في مواجهة القوانين العسكرية والحكم العسكري، ومواجهة التمييز والعنصرية، ومواجهة مصادرة الأراضي، ومن ثم شكلت حركة وطنية فلسطينية عربية ناضلت من أجل الحقوق والمساواة والسلام، ومن صفوف هذه الأقلية، برز أدباء وشعراء ومبدعون في مجالات الفنون، ومن أبرزهم الشاعر والقاص والمبدع سميح القاسم، فبالإضافة إلى غَلَبة شهرته كشاعر، فقد كان ناثرا، ومن نثره روايتان قصيرتان هما: إلى الجحيم أيها الليلك، والصورة الأخيرة في الألبوم، وكذلك سيرةٌ ذاتية عنوانها: إنها مجرّد منفضة.

لا تقِل عذوبة نثره وبلاغتُه عن عذوبة شعره وبلاغته، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان اهتمام القراء والنقاد بشعره أكثر مما كان بنثره، لذا، رغبت هنا في أن ألقي الضوء على هذا النثر، أو بالأحرى على هذا السرد الجميل الذي يدعو الى الإعجاب، ويغري بالتأمل.

سميح القاسم من جيل النكبة، فقد وطنه وهو في سن العاشرة، حفرت المأساة عميقا في مخزون ذاكرة طفولته حتى إن أحداثها وحكايا الإنسان -حنينَه وأنينَه- رافقته في مسيرته الإبداعية، وكتب عن شخصيات أوردها في مذكراته وأعاد إحياءها، ومنها الطفلة التي صادقها في طفولته وعقد معها صداقة مفعمة بالبراءة، ثم رحلت مع أسرتها الى المنافي وهي تلبس ثوبا بلون الليلك، وصار الليلك بالنسبة إليه يرمز للغربة والرحيل والاقتلاع والنفي، وأوحت الطفلة له بروايته القصيرة "الى الجحيم أيها الليلك". كما أن الفتى الكسيح الذي تخلى عنه أهله لأنه من الأفواه اللامجدية، ولانه لا يتقن المشي معهم وهم في طريقهم الى المنفى؛ أعاده الى الرواية سليما معافى بثياب فدائي، وظل يغمس ريشته بمداد مأساة شعبه وكبوته ونهوضه، وأنضجت النكبة، كحدث ومظلمة، وعيه الوطني والثقافي، لذا عندما تمكّن ونبغ، اختار المتراس منصة، والميدان موقعا، والتصدي والصمود نهجا.

* * *

عاش زمن النكبة تحت الحكم العسكري، وذاق منذ شبابه المبكر مرارة العسف والقوانين العسكرية الجائرة، فتعرض مرات عديدة للملاحقة والإقامة الجبرية والاعتقال والطرد من الوظيفة والحصار المفروض على ابناء شعبه، فقاوم بالكلمة كما قاوم في الميدان، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر رفضُه ومقاومته لمحاولة تجنيده للخدمة العسكرية في جيش الاحتلال، فقد رفض التجنيد، وأسس مجموعة شبابية من الشباب الدروز الأحرار لرفض التجنيد، ومن ثم تمأسست وصار لها شأن وتحمل الآن اسم: لجنة المبادرة الدرزية.

وعودة للحديث عن نثره، نختار كتابه: إنها مجرد منفضة، ونتوقف عند هذه الوثيقة المهمة لسيرته الذاتية، التي اعتبرها مرجعا ومصدرا لسيرته وشهادة صادقة على تاريخ لا يستطيع الدارس لأدب سميح وشعره وأدب وشعر الحركة الثقافية الفلسطينية في الداخل أن يتجاهله كمصدر أساس من مصادر دراسته أو بحثه.

سيرته الذاتية التي صدر الجزء ما قبل الأخير منها في العام ٢٠١١ هي سجل لحياته الحافلة، هي نص إبداعي، وسرد خاص وسرد عام، سردان يلتقيان ولا ينفصلان، وإضاءةٌ على قصائده والظروف التي كتبت فيها، وإضاءة أيضا على بعض شخوص روايتيه: إلى الجحيم أيها الليلك، والصورة الأخيرة في الألبوم.

لم ينفصل الإبداع عن بيئته ومحيطه وما يمر به شعبه من محن، ففي سيرته الذاتية هذه يقول:

(أنت لا تؤمن بفصل الإبداع عن الحياة، لا تؤمن بتجزئة التجربة، أنت تؤمن بعضوية العلاقة بين القصيدة والبيئة، الخاص والعام، الذاتي والاجتماعي، ولن تكون كتابتك عن ذاتك أقرب إلى الصدق ما لم تكن أقرب الى الكون والبشرية).

ويتساءل بعد ذلك: (من أين تبدأ هذه المذكرات: قد تكون قصيدتك الأولى التي كتبتها بين عاميك الثالث عشر والرابع عشر بداية جيدة، وقد تكون محاولة اغتيالك وأنت طفل يبكي في قطار مع أفراد اسرته بداية أفضل، وقد تكون محنة طفولتك في العام ١٩٤٨- عام النكبة، الأساسَ المتين لسيرتك، ولماذا لا تبدأ بشجرة العائلة التي وثّقها ابن عمك الراحل الدكتور أديب فريد قاسم محمد الحسين؟ وعلى فكرة، لماذا لا تبدأ بتجربة الاعتقال الأولى عام ١٩٥٨ أو بالمجموعة الشعرية الأولى (مواكب الشمس) التي صدرت في العام نفسه.. إلخ).

سنقرأ في هذه المذكرات تفاصيلَ حيّة عن تجليات تراجيديا عاشتها تلك الأقلية تكمل الوجه الآخر لمأساة اللجوء والشتات خارج الوطن. وقد بقيت مأساة الأقلية مجهولة بسبب التعتيم الناجم عن عزلتها وانقطاع تواصلها مع محيطها القومي، غاب كثير من تفاصيل المعاناة، وتفاصيل بطولة الصمود والتحدي وما رافقها من إبداع المبدعين من الشعراء وكتاب القصة والمسرح.. ظل هذا التعتيم والتجاهل إلى أن ألقى الضوء عليها غسان كنفاني في كتابه (أدب المقاومة في فلسطين المحتلة) الذي نشر عام ١٩٦٦، فكانت المفاجأة المدوية، إذ اكتشفت الأمة العربية جزءا أصيلا من الشعب الفلسطيني ومبدعيه كان مغيّبا، من شعب تجذّر في أرضه وخاض صراع البقاء، وصنع أدبا وثقافة وحركة وطنية دون أن تلحظ ذلك الشعوب العربية ونخبها، ودون أن يسلط عليها الضوء.

قام غسان كنفاني بمغامرة وطنية جسورة، وفي ذلك يقول محمود درويش: (بقينا مجهولين إلى أن قام غسان كنفاني بعمليته الفدائية الشهيرة: الإعلان عن وجود شعر في الأرض المحتلة داخل إسرائيل، فانقلبت العلاقة داخل الأرض المحتلة وخارجها).

ويقول أيضا: (كان اكتشاف العالم العربي أنّ العرب في فلسطين المحتلة يتكلمون اللغة العربية، ويحبون بلادهم، ويكرهون الظلم؛ اكتشافا مذهلا.. مذهلا حتى الخزي).

وبصدور كتاب غسان كنفاني (أدب المقاومة في فلسطين المحتلة) عام ١٩٦٦، وكتابه الثاني (الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال) عام ١٩٦٨، انتشر مصطلح (أدب المقاومة) كظاهرة ثقافية

فلسطينية، وظاهرة في المشهد الثقافي العربي.

ويعود الفضل لكنفاني في التعريف بالشعراء محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زياد، وراشد حسين، وحنّا أبو حنّا، وسالم جبران، وسواهم، وكذلك على كتاب القصة والرواية، ومنهم إميل حبيبي، وتوفيق فيّاض.

وقد أعقب هذا الاكتشاف احتفاءٌ عربي عبّر عن حب جارف لهذا الأدب، أتاح نشره وتعميمه ومكّن من كسر العزلة، وأوجد الحافز للتجويد والتطوير لدى المبدعين، والأهم، ربط شكلا من التواصل مع المحيط القومي.

ومن هنا، تكمن أهمية ما سجله سميح القاسم في مذكراته أو سيرته الذاتية عن مرحلة أعقبت النكبة واكتنفها عزلة وتعتيم، واتسمت بممارسات قمعية إسرائيلية تحت قوانين عسكرية أثخنت الضحية بالجراح، جرت في العتمة دون وجود إعلام وكاميرا وفضائيات ووسائل تواصل مثلما هو الحال في هذه الأيام.

سنجد تفاصيل حزينة ومذهلة عن رعشة الإنسان في زمن الحرب عام ٤٨ عشية النكبة، عندما كانت العصابات الصهيونية ترتكب المجازر بحق المدنيين العزل في المدن والقرى، وتدفع الناس في أجواء الصدمة والرعب إلى الهرب من الموت والنزوح من ديارهم الى دول الجوار، وكيف عاشت عائلته في تلك الأجواء بمساحة التردد بين البقاء أو الفرار.

وحول ذلك يقول: (ترددت في بلدنا –الرامة– أنباء عن مجزرة دير ياسين، وأخرى عن فظائع أخرى كثيرة، وتدفق على الرامة عدد من اللاجئين، وقطعت معظم الطرق الرئيسة في البلاد).

ويقول: (تذكر أنّ طائرة يهودية أغارت على قريتك وألقت القنابل على منزل قريب فهدمته، وساد الهرج والمرج، والزعيقُ الهستيري، وتراكض الناس للاحتماء من قنابل اليهود.. صبيحة اليوم التالي، قرر أهل الرامة إخلاء القرية، قلة منهم غادرت البلاد، لكن الأغلبية الساحقة قررت اللجوء إلى كروم الزيتون).

ويضيف: (أصبح الخطر الداهم أكثر إلحاحا، جاء عمّك علي من دمشق محاولا إقناع العائلة بالرحيل إلى هناك، وترددت العائلة في الأمر، لكن الذي حسم الموقف لصالح البقاء في الوطن هو المرحوم الشيخ حسين علي أسعد الحسين الذي قرر بلا هوادة: الموت في الوطن ولا الحياةُ في الغربة، لا نغادر

هذه الأرض الاّ إلى الدنيا الآخرة).

هكذا صمدت قرية الرامة وبقيت بسكانها العرب من دروز ومسيحيين قرية عربية جليلية، وشوكةً في حلق الاحتلال كغيرها من القرى والمدن التي صمدت فيها الأقلية العربية، وبعد سنوات ثلاث، ورغم القمع والتنكيل، أطلقت هذه القرية ثورة عرفت بانتفاضة الزيتون عندما تصدى أهلها لقوات الجيش والشرطة الإسرائيلية التي اقتحمت القرية لمصادرة غلة موسم الزيت والزيتون، ووقع جرحى واعتقالات لأبناء البلدة من مسيحيين ودروز، فقدم أهل الرامة نموذجا لوحدتهم، وأطلقوا صيحة مدوية عن بطولة البقاء.

ولا يتردد سميح القاسم القومي العربي الذي ينتمي للطائفة الدرزية عن سرد تاريخ كفاح عائلته التي تعيش في الرامة والقرى المجاورة لها، وتعود جذورها إلى جدها الأول خير محمد الحسين الذي تقول أوراق العائلة إنّه كان من فرسان الموحدين الذين أبلوا بلاء حسنا تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين.

كما يتحدث عن تاريخ رجالاتها في الحقبة العثمانية وحقبة الانتداب البريطاني، ويخلص إلى وضعها في حقبة الاحتلال الاسرائيلي، حيث حاولت السلطات الاسرائيلية عزل الطائفة الدرزية وضمها الى الأقليات الصغيرة كالبدو والكاثوليك والشركس، بهدف زرع التفرقة الطائفية، وفرض الخدمة العسكرية الإلزامية عليها وعلى تلك الطوائف، ما دفعه الى تشكيل تجمع شبابي لرفض الخدمة العسكرية ومقاومتها.

وفيما يتصل بميوله الأدبية المبكرة وهو في المدرسة الابتدائية، يذكر في مذكراته أن ذلك بدأ بانخراطه في جوقة الإنشاد التي أسسها المعلم سليم الذي علّمهم أناشيد وطنية منها (موطني) و(بلاد العرب أوطاني) وغيرهما، ثم انضم إلى الفرقة المسرحية، وعنما كان في الصف السابع، كتب في درس الإنشاء نصا وردت فيه مقاطع شعرية من تأليفه موزونة ومقفاة، ويومها أعلن معلم اللغة العربية إلياس الحزوري عن وجود شاعر في الصف هو الطالب سميح القاسم. ليلتها قرر أن يكتب قصيدة أخرى ولكنه لم يفلح، وأخبر في اليوم التالي معلمه عما حدث له، فداعب المعلم شعره وقال له: لا تذهب إلى القصيدة يا بني، دعها هي تأتي إليك، وستأتي.. لا تقلق.

وسيخبرنا سميح بعد ذلك أن كلمة معلم اللغة العربية هذه كانت الدرس الأول في النقد الأدبي

الذي تعلّمه في طفولته وطفولة قصيدته، وكانت عبرة له طيلة حياته اللاحقة.

وبدأ مشوار سميح بالتردد على النوادي التي تقيم أمسيات وندوات شعرية، وفي الوقت نفسه يكتب محاولاته الأولى في الغزل الموجه للصبايا، والهجاء الموجه لطلبة ومعلمين، ويقول إنّ الأستاذ المحبب لديه ألقى القبض عليه متلبسا بالغزل والهجاء فقال له: يا بني، لديك موهبة ممتازة، فلا تضيّعها على هكذا مواضيع.

بعد تخرجه من المدرسة الثانوية، التحق بسلك التعليم معلما في المدارس الابتدائية، وفي هذه المرحلة، نضج وعيه السياسي والثقافي، فبدأ ينشر القصائد الوطنية التي تدعو إلى الصمود والحفاظ على الهوية، وينتقل من قرية لأخرى، وتم إيقافه عندما دعي للمشاركة في مهرجان شعري أقيم في بلدة كفر ياسيف عام ١٩٥٨، وأُبعد إلى بلدة دالية الكرمل، وبسبب مواقفه الوطنية، فصلته سلطات الاحتلال من وظيفته تزامنا مع صدور ديوانه الثاني (أغاني الدروب).

عانى سميح من البطاله فترة طويلة، وفي تلك الأيام، كتب قصيدته المشهورة (خطاب من سوق البطالة) التي عرفت فيما بعد باسم (سأقاوم):

ربما تسلبني آخر شبر من ترابي

ربما تطعم للسجن شبابي

ربما تسطو على ميراث جدي

من أثاث وأوان وخوابي

ربما تحرق أشعاري وكتبي

ربما تطعم لحمي للكلاب

يا عدو الشمس.. لكن لن أساوم

وإلى آخر نبض في عروقي سأقاوم

وبعد ذلك عمل في الصحافة، عمل في صحيفة (الغد) التابعة لشبيبة الحزب الشيوعي، ثم في صحيفة (هذا العالم) التابعة للصحافي المناصر للعرب (أوري أفنيري)، ثم التحق للعمل في صحف الحزب الشيوعي عندما دعاه توفيق طوبى أحد قيادات الحزب ومن كبار الشخصيات الوطنية في الوسط

العربي، للعمل في صحيفة (الاتحاد) دون إلزامه بالالتحاق بعضوية الحزب، وشغل بعد ذلك رئاسة تحرير مجلة (الجديد) الثقافية التي لعبت دورا كبيرا في إثراء الحياة الثقافية، وقد شارك معه في تحريرها: محمود درويش، وصليبا خميس، وتوفيق زيّاد.

لقد انتمى سميح بعد ذلك لعضوية الحزب الشيوعي وللجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة التابعة له، وترشح على قوائمه لعضوية المجلس المحلي في بلدة الرامة، إلاّ أنّه اختلف فيما بعد مع بعض القيادات التي لم تتفهم أفكاره ومواقفه القومية، وآراءه بعد حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣، واتهم بالتعصب القومي والشوفينية، ما دفعه إلى الانسحاب من الحزب، وعلى الرغم من ذلك، فقد قيّم الحزب في مذكراته تقييما نزيها، وفي ذلك يقول: (صحيح أنك اختلفت مع أفراد من قيادة الحزب، لكنك رفضت جميع الإغراءات لتحويلك عدوّا لهذا الحزب.. صحيح أنك اختلفت مع بعض قيادات الحزب، لكنك تعرف برنامج هذا الحزب الذي كان أول إطار سياسي بعد النكبة يرفع شعار حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني، وحمى اللغة العربية والروح العربية من دعاوى مسح الذاكرة وإلغاء الهوية وطمس الوجود القومي والوطني والإنساني).

* * *

من المحطات المهمة في مسيرة سميح القاسم في أواخر الستينات من القرن الماضي مشاركته ومحمود درويش ضمن وفد من شبيبة الحزب الشيوعي في مؤتمر الشباب العالمي الذي انعقد في صوفيا عام ١٩٦٨، وعلى الرغم من النقد الذي وجهه بعض (القومجيين) لهذه المشاركة، إلاّ أن الكثير من الوفود والشخصيات المشاركة رحبت بهما، كما التقيا بالشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يغادر فيها سميح البلاد، والمرة الأولى التي يخرج فيها إلى العالم، وفيما بعد، أتيح له أن يسافر إلى مختلف دول العالم ويتزود برؤى جديدة، ويلتقي أدباء وشعراء من العالم العربي ومختلف الدول.

لقد أحب السفر والتواصل الثقافي ونشر أشعاره في عمق الضمير والوجدان القومي والإنساني، فكان بمثابة سفير للقضية الفلسطينية بقدم أوراق اعتماده للضمير الإنساني والأخلاقيات العالمية.

* * *

ولعلّ أبرز ما يميّز هذه المذكرات التي حواها كتاب (إنها مجرد منفضة) الرشاقة، وخفة الظل،

والمتعة الفنية. ومن يعرف سميح القاسم، يعرف أن ذلك ميزة من ميزات شخصيته. والكتاب مليء بطُرف وتعليقات تمنح النص المزيد من المتعة والعذوبة، ونستطيع هنا أن نذكر مثالا أو مثالين عن سرعة البديهة عنده من النص التالي: (بعد قرابة الشهر تقريبا على ميلاد ابنك البكر –وطن محمد- كان عليك أن تلقي محاضرة في الولايات المتحدة عن العرب في إسرائيل، في إطار مؤتمر الخريجين الجامعيين العرب الأميركيين. جاء في محاضرتك المكتوبة: عدد العرب في إسرائيل اليوم هو نصف مليون. ثم استدركت وقلت: آسف.. عدد العرب نصف مليون وواحد، فقد ولد ابني محمد أيضا. وضحك الجمهور اللبيب وصفق طويلا).

ولا بأس من أن نقتبس مثالا آخر في هذا السياق، إذ يقول: (ذات يوم، رافقك ابن عمك وجارك وصديقك د. نبيه القاسم لتهنئة الكاتب اليساري الإسرائيلي عاموس كينان لتهنئته بمولد طفلته البكر.

سألت عاموس كينان: وما الاسم الذي منحتموه للمولودة السعيدة؟

فردّ عاموس: أنت تعلم أنني طيلة حياتي وأنا أناضل من أجل السلام، لذلك أطلقت على طفلتي الأولى هذه اسم: شلوم تسيون.

فوجئت بالشطر الثاني من هذا الاسم المركّب -شلوم تسيون تعني سلام صهيون- شعرت بالتواء في أعماقك، فقلت وعيناك تطيران عبر النافذة: أنا سأتزوج قريبا يا عاموس، وسأنجب ولدا أسمّيه وطن محمد وفهم عاموس كلامي).

لقد مزج السخرية بالجد، كان ردا بليغا على كاتب يساري يدّعي مناصرة العرب، ويدّعي أنه يقف إلى جانب السلام، ولم يكن رد سميح مجرد كلام عابر، وإنما أكد ما يعنيه عندما سمّى ابنه البكر فعلا (وطن محمد) أي وطن العرب.

وهنا لا أريد أن أطيل في استعراض سيرته ومواقفه وعلاقاته التي نسجها مع كبار الأدباء العرب ومع شخصيات وزعماء، وما قدمه من إضاءات وإبداع في مذكراته، وحسبي أنني ألقيت الضوء على مراحل مبكرة من حياته الحافلة، وعلى شيء من مواقفه التي تطابقت مع ممارساته، إذ قرن القول بالعمل، والتنظير بالممارسة.. وما ذكرته لا بد أن يغري المستمع باقتناء وقراءة هذه السيرة التي عنونها بـ: إنها مجرد منفضة.

ولعل سائلاً يسأل عن دلالة ومغزى العنوان، ولماذا لم يختر عنوانا شاعريا مثلما فعل بابلو نيرودا مثلا عندما عنون سيرته بـ (أشهد أنني قد عشت).

لن نذهب في تخمينات واجتهادات، فقد شرح لنا دلالة العنوان في نهاية السيرة إذ قال (ما الجسد إلاّ منفضة لرماد نار الشعر، وما نار الشعر إلاّ منفضة لرماد نار الحياة، وما الحياة الدنيا إلاّ منفضة لرماد نار الجسد)، ومن الطبيعي أن يعنون شاعر فلسطيني عاش أعوامه السبعين تحت سقف النار بمثل هذا العنوان الواقعي، ولم يعش تحت رفاهية ورغد العيش كما بابلو نيرودا الذي كانت نهايته على كل حال بطولية.

مراجعات

أثقل من رضوى

مقاطع من سيرة ذاتية لرضوى عاشور

عبد الفتاح القلقيلي

قبل ثمان وخمسين عاما كنتُ مدرسا في مدرسة الشوبك الثانوية في محافظة معان الأردنية، وزار البلدة رجل مسن يعمل سمكريا (مصلح بوابير الكاز)، وكان أرمنيا، وتصادف أن نزل الثلج بغزارة فاستضفت السمكري في بيتي لمدة اسبوع.

ومما تعلمته من حكمة ذلك الرجل في حينه قوله: أعلم يا بني انك تكره طاولات المشروب والقمار ومن عليها، ولكن لطاولات المشروب والقمار فضل بانها تكشف حقيقة من عليها. فالإنسان على الطاولات العادية يبدو كما يشاءُ أن يبدو، أي لا يكون على طبيعته وحقيقته، أما عندما يسكر أو يخسر يبدو على حقيقته.

وبعد ثمان وخمسين عاما اقرأ كتاب رضوى عاشور الحالي بعنوان "اثقل من رضوى" فانادي على ذلك السمكري لاقول: يا عماه!!! وعلى سرير المرض لا يكون الإنسان إلا نفسه. فقد كتبت رضوى عاشور كتابها هذا وهي بين أسرّة مرضها الأخير فتجلّت عظمتها. فمن يقرأ هذا الكتاب ولم يسبق له ان تعرف على رضوى عاشور سيدرك أن جيل رضوى هو الوريث الشرعي للرائدات اللواتي عبّدن الطريق لبناتهن وحفيداتهن بعسر بالغ. وكان امتياز رضوى عاشور هو أنها لم تتفرغ لمطارحات وسجالات عقيمة حول الجندر، أو استحقاق الأنوثة في عالم عربي بتريركي تحكمه ديكتاتورية الذكورة وطغيان ثقافتها، واختارت أن تكتب وتواصل مشروعها بتناغم مع الذات.

فنادرا ما تحتشد خمس صفات وبجدارة في رجل أو امرأة، لكنها احتشدت بجدلية فذّة في رضوى عاشور: الروائية، والأكاديمية، والناقدة، والناشطة السياسية، والإنسانة. وما انفكت تقول: ما الخطأ في أن يتعلق الغريق بلوح خشب أو عود أو قشة؟! ما الجرم في أن يصنع لنفسه قنديلا مزججا وملونا لكي يتحمل عتمة أيامه؟! ما الخطيئة في أن يتطلع إلى يوم جديد آملا ومستبشرا؟!

كان الدكتور عبد الوهاب (جد رضوى عاشور لامها) مغرما باسماء الجبال العظيمة، وقد وافقه على ذلك المحامي مصطفى عاشور (ابو رضوى عاشور) فسمى ابنه الاول "طارق" تيمنا بـ"جبل طارق" الذي يقف شامخا مشرفا على مضيق يربط العالمين القديمين. وسمّى ابنته الوحيدة "رضوى" تيمنا باسم "جبل رضوى". وجبل رضوى ذو مكانة خاصة، ولمن لا يعرفه نقول:

"جبل رضوى هو جبل يقع في قرية تسمى رخو تابعة لمحافظة ينبع بمنطقة المدينة المنورة. يتميز هذا الجبل بارتفاعه وجماله وشهرته على مر التاريخ. وينمو فيه الهيل والزعتر البري.

وتذكر كتب تاريخ الادب أبيات شعر مشهورة في هذا الجبل. من هذه الأبيات قول حسان بن ثابت :

لنا حاضر فعم وبادٍ كأنه ... شماريخ رضوى عزة وتكرما

وقال المتنبي في الرثاء :

ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى ... رضوى على ايدي الرجال تسير

وكان العرب القدماء تقول عن الامر اذا استعظمته: "أثقل من رضوى"

وانا هنا لا ادري بدقة ما الذي اراد الجد (الدكتور عبد الوهاب) والاب (المحامي مصطفى عاشور) ان يوحيا بهذا الاسم؟ هل كانا يتوسمان يوم ٢٦ ايار/مايو١٩٤٦ (يوم مولدها في القاهرة) انه سيكون لرضوى "شماريخ عز وتكرّم" كما قال حسان بن ثابت، ام كانا يتوقعان ان يكون لها ثقل جبل رضوى؟

ليت الجد والاب يعلمان انه كان لها "شماريخ عز وتكرم، كما ليتهما يعلمان انه ربما تمتم زوجها الشاعر "مريد البرغوثي"، وابنها الشاعر "تميم البرغوثي"، ربما تمتما معا في القاهرة ايضا يوم ٣٠ تشرين ثاني/نوفمبر٢٠١٤ (يوم وفاتها) بيت المتنبي الذي يقول:

ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى ... رضوى على ايدي الرجال تسير

خاصة انها اسمت كتابها الاخير "أثقل من رضوى"، وقد كان مقاطع من سيرتها الذاتية.

كانت رضوى لا تهتم بذاتها الا بمقدار ما يحتاج نضالها في ميادين الابداع كافة، وميادين الحراك الوطني والقومي في مقاومة اعداء الامة والحرية سواء الخارجيين منهم او الداخليين.

وابدأ بعرض موجز لسيرتها الذاتية:

رضوى عاشور (٢٦ مايو ١٩٤٦ - ٣٠ نوفمبر ٢٠١٤) كانت قاصة وروائية وناقدة أدبية وأستاذة جامعية مصرية. تميز مشروعها الأدبي، في شقه الإبداعي، بتيمات التحرر الوطني والإنساني، إضافة للرواية التاريخية. تراوحت أعمالها النقدية، المنشورة بالعربية والإنجليزية، بين الإنتاج النظري والأعمال المرتبطة بتجارب أدبية معينة. تمت ترجمة بعض أعمالها الإبداعية إلى الإنجليزية والإسبانية والإيطالية والإندونيسية..

درست اللغة الإنجليزية في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وبعد حصولها على شهادة الماجستير في الأدب المقارن، من نفس الجامعة، انتقلت إلى الولايات المتحدة حيث نالت شهادة الدكتوراه من جامعة ماساتشوستس، بأطروحة حول الأدب الإفريقي الأمريكي.

في ١٩٧٧، نشرت رضوى عاشور أول أعمالها النقدية، الطريق إلى الخيمة الأخرى، حول التجربة الأدبية لغسان كنفاني. وفي ١٩٧٨، صدر لها بالإنجليزية كتاب جبران وبليك، وهي الدراسة النقدية، التي شكلت أطروحتها لنيل شهادة الماجستير سنة ١٩٧٢.

في نوفمبر ١٩٧٩، وتحت حكم الرئيس أنور السادات، تم منع زوجها الفلسطيني مريد البرغوثي من الإقامة في مصر، مما أدى لتشتيت أسرتها.

في ١٩٨٠، صدر لها آخر عمل نقدي، قبل أن تلج مجالي الرواية والقصة، والمعنون بالتابع ينهض، حول التجارب الأدبية لغرب إفريقيا. ستتميز تجربتها إلى غاية ٢٠٠١، بحصرية الأعمال الإبداعية، القصصية والروائية، وكانت أولاها أيام طالبة مصرية في أمريكا (١٩٨٣)، والتي أتبعتها بإصدار ثلاث روايات (حجر دافئ، خديجة وسوسن وسراج) والمجموعة القصصية رأيت النخل، سنة ١٩٨٩. توجت هذه المرحلة بإصدارها لروايتها التاريخية ثلاثية غرناطة، سنة ١٩٩٤، والتي حازت، بفضلها، جائزة أفضل كتاب لسنة ١٩٩٤ على هامش معرض القاهرة الدولي للكتاب.

اشتغلت، بين ١٩٩٠ و١٩٩٣ كرئيسة لقسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب بجامعة عين شمس، وظلت حتى ٢٠١٣ تزاول وظيفة التدريس الجامعي والإشراف على الأبحاث والأطروحات المرتبطة بدرجتي الدكتوراه والماجستير.

مع بداية الألفية الثالثة، ستعود عاشور لمجال النقد الأدبي، حيث أصدرت مجموعة من الأعمال تتناول مجال النقد التطبيقي، وساهمت في موسوعة الكاتبة العربية (٢٠٠٤)، وأشرفت على ترجمة الجزء التاسع من موسوعة كامبريدج في النقد الأدبي (٢٠٠٥)

نشرت بين ١٩٩٩ و٢٠١٢ أربع روايات ومجموعة قصصية واحدة، من أهمها رواية الطنطورية (٢٠١١) ومجموعة تقارير السيدة راء القصصية.

في ٢٠٠٧، تُوجت بجائزة قسطنطين كفافيس الدولية للأدب في اليونان، وأصدرت سنة ٢٠٠٨، ترجمة إلى الإنجليزية لمختارات شعرية لمريد البرغوتي بعنوان "منتصف الليل وقصائد أخرى".

رضوى عاشور عضو فاعل في العديد من المؤسسات الجمعوية ، منها: لجنة الدفاع عن الثقافة القومية، واللجنة الوطنية لمقاومة الصهيونية في الجامعات المصرية، ومجموعة ٩ مارس لاستقلال الجامعات، إضافة إلى عضويتها في مجموعة من اللجان التحكيمية المرتبطة بالمجالين الثقافي والأكاديمي كلجنة جائزة الدولة التشجيعية، ولجنة التفرغ بالمجلس الأعلى للثقافة، ولجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة.

شاركت رضوى عاشور في العديد من المؤتمرات وساهمت في لقاءات أكاديمية عبر العالم العربي (بيروت وصيدا ودمشق وعمان والدوحة والبحرين وتونس والقيروان والدار البيضاء)، وخارجه (في جامعات غرناطة وبرشلونة وسرقسطة في إسبانيا، وهارفرد وكولومبيا في الولايات المتحدة، وكمبريدج وإسكس في إنجلترا، ومعهد العالم العربي في باريس، والمكتبة المركزية في لاهاي، ومعرض فرانكفورت الدولي للكتاب وغيرها).

واخيرا رأت انه عليها ان تكتب سيرتها الذاتية وذلك في اواخر عام ٢٠١٠ حيث بلغت الرابعة والستين من عمرها، وتوفي اخوها الاكبر (طارق) في السادس من سبتمبر ٢٠١٠، وبعد خمسة اسابيع لحقت به امها (ص٨).

وها انذا اقدم قراءة لهذا الكتاب المميز بين السير الذاتية التي قراتها كما اشرت في بداية هذه

القراءة، والذي تقول عنه رضوى " انه يجمع بين السيرة والمذكرات" (ص٢٧١).

تقول رضوى "عندما كنتُ في سن المراهقة كان لقاء شاعر او كاتبة، او مجرد رؤية احد من الكتاب لمحا في الشارع من بعيد معجزة من نوع ما اقف امامها مشدوهة (ص٣٢٥) وكأن الله اغرقها بهذه النعمة فتزوجت شاعرا فلسطينيا من اهم الشعراء العرب هو مريد البرغوثي، كما صارت هي نفسها من اهم الكاتبات العربيات، ثم انجبت الشاعر تميم البرغوثي.

من اهم مميزات رضوى عاشور هو تعاليها على جراحها وآلامها، تذكر رضوى في صفحة ١١١ انها بعد عمليتها الخطيرة في الرأس غادرت المستشفى في واشنطن مع مريد وتميم يوم الثالث والعشرين من مايو/ايار ٢٠١١، وفي مساء يوم ٢٦ ايار/مايو ٢٠١١، ورغم انه عيد ميلادها، ورغم وضعها الصحي الخطير جدا، ذهبت الى ميدان التحرير في القاهرة، وستقول لنفسها "ها انت في نهاية المطاف وصلت الميدان الذي كان يُفترض ان تكوني فيه ولم تتمكني" (ص١١٥).

الكاتب المبدع يستطيع ان يَخرج خارج ذاته، يرسم الفرح رغم حزنه، وينحرط في النضال العام رغم آلامه الشخصية. ففي يوم الخميس الرابع من نوفمبر ٢٠١٠، ولم يمض على رحيل ام رضوى سوى ثلاثة اسابيع، خرجت رضوى بثوبها الاسود الى باحة قصر الزعفران (مقر رئاسة جامعة عين شمس) لتشترك مع زملائها بحملة "حرية الجامعة"، ومنع الأجهزة الأمنية من أن تمارس نشاطها ضد الطلبة (ص١٠).

وتصادف أن تكون بين أيدي جراحين يُعملون مشارطهم في رأسها في واشنطن، وتونس تشتعل بعد أن أحرق البوعزيزي نفسه، فتتعاطف مع ثورة الياسمين في تونس (ص٤٨).

وتصادف أيضا أن كانت عملية استئصال الورم من داخل رأسها مع جزء من عظم الجمجمة يوم ٢٦ يناير ٢٠١١، فكان أول مانطقت به بمجرد أن فاقت من البنج (كما أُبلغ مريد فيما بعد) هو "هل ضربوا العيال؟!".

ومن طرائف هذه السيرة أن رضوى لم تتعاطف فقط مع الشباب المصريين المعتصمين في ميدان التحرير بل تعاطفت أيضا مع القراء الذين سيقرأون كتابها هذا، وتخاف عليهم من النكد وهم يقرأون معاناتها وآلامها الشخصية والعامة فتقرر أن تجعل الفصل الثامن من كتابها فصلا هزليا لتعود بعد ذلك لتدخل في تفاصيل عملياتها الجراحية الثلاث في رأسها. وأخيرا تفتتح الفصل الحادي

والثلاثين بالاعتذار للقراء عن عرض آلامها عليهم، وتقترح عليهم أن يقفزوا عن هذا الفصل والذي يليه لما يحتويان من مآسي، والذهاب مباشرة الى فصل الختام ليشاركوا عائلة رضوى الممتدة باللقاء اللطيف بين افرادها على مائدة عامرة بالطيبات (ص٣٦٧).

صدر الكتاب عن دار الشروق المصرية في طبعته الاولى عام ٢٠١٣

ومن مسوّغات تميز هذا الكتاب والكاتبة رشاقة لغته ونعومتها، ودقة صوره خاصة وانه كُتب في أحلك ظروف حياتها حيث بدأت به عام ٢٠١١، وانهته يوم التاسع من مايو/أيار ٢٠١٣ (ص٣٩٣). ومن نواقصه أنها تجنبت أن تُطلع القراء على قصة لقائها مع مريد.

أوراق المؤسسة

فعاليات مؤسسة ياسر عرفات لاحياء

الذكرى السنوية العاشرة لاستشهاد الرئيس

فعاليات مؤسسة ياسر عرفات لاحياء الذكرى السنوية العاشرة لاستشهاد الرئيس

٣-٢٠١٤/١١/١٦

مقدمة

ارتأت مؤسسة ياسر عرفات أن تكون فعاليات أحياء ذكرى استشهاد القائد المؤسس ياسر عرفات مختلفة عن السنوات الماضية كونها السنة العاشرة أي مرور عقد من الزمن على الحدث الذي انهى حقبة مهمة من تاريخ النضال الفلسطيني من أجل التحرر الوطني وتأسيس دولة فلسطينية مستقلة وعاصمتها القدس.

وامتازت فعاليات هذا العام تنوعا من حيث الترتيب والانتاج الفني والانشطة بالاضافة إلى تنوع اهتمامات الجمهور وفئاته العمرية وفتح المجال امام قطاعات مختلفة للمشاركة بالانشطة وبالتالي تم استقطاب جمهور لم يكن يشارك في السنوات الماضية كون أن احياء الذكرى كان يرتكز فقط على الحفل الثقافي السنوي.

وما ميز هذا العام ايضا اشراك عدد من الشباب من قطاعات مختلفة في التحضير للفعاليات تحديدا المهرجان الجماهيري الذي كان منويا عقده من قبل مؤسسة ياسر عرفات تحديدا اقليم فتح في كل من رام الله والقدس، وحركة الشبيبة الطلابية والحراك الشبابي الفتحاوي . وهدف هذا التحرك لاشعار الشباب الفتحاوي تحديدا بشراكتهم الفعلية بياسر عرفات وملكيتهم لاحياء ذكراه ليكونوا

شركاء دائمين للمؤسسة التي تحمل اسم القائد الذي حمل الهم الفلسطيني والقضية وعبر بها إلى العالم.

اما فيما يتعلق بالجانب الاعلامي لفعاليات احياء الذكرى العاشرة لاستشهاد القائد المؤسس ياسر عرفات، فقد عقد اجتماع يوم الاحد ٢٠١٤/٩/١٤ بين رئيس قسم الاعلام و مسؤولة البرامج و الانشطة في المؤسسة من جهة و ممثلين عن وسائل الاعلام المختلفة من جهة اخرى، بحثت فيه آليات التعاون مع المؤسسة في تغطية فعاليات إحياء الذكرى العاشرة. وتم التفاهم على نقاط عديدة اهمها بث الاعلانات الاذاعية عبر اثير الاذاعات المحلية و بث اعلانات المؤسسة التلفزيونية على فضائيات معا و عودة وفلسطين وفلسطين مباشر، وإتاحة الفرصة لصحافي من كل وسيلة اعلام يهتم لمتابعة فعاليات احياء الذكرى العاشرة، عبر موجة مفتوحة على اثير الاذاعات المحلية في يوم ٢٠١٤/١١/١١.

وتجدر الاشارة إلى أنه في كل يوم من ايام الفعاليات وضمن البرامج الصباحية للإذاعات المحلية كانت هناك استضافات لممثلين عن المؤسسة أو فنانين و شعراء من المشاركين في الفعاليات للحديث عن كل فعالية في يومها ، كما تم التنسيق لمقابلات خاصة مع د. ناصر القدوة، رئيس مجلس الإدارة و د.احمد صبح، مدير عام المؤسسة ضمن برامج اذاعية للحديث عن المؤسسة و فعالياتها.

ومن جانب آخر ركز قسم الاعلام في المؤسسة على استغلال الصفحة الخاصة بالمؤسسة على موقع فيسبوك للترويج للفعاليات و نشر اخبارها كما تم تأسيس صفحات للمؤسسة على مواقع التواصل الاجتماعي الاخرى مثل :

Youtube, Google+ , Twitter، اذ تم استغلال كافة الخدمات التي تتيحها هذه المواقع سواء كانت هذه الخدمات مدفوعة أم مجانية من اجل الوصول إلى أكبر عدد من المتابعين لفعاليات المؤسسة. وايضا تم نشر رابط الكتروني للبث المباشر على صفحات المؤسسة على مواقع التواصل

الاجتماعي و بعض المواقع الالكترونية المحلية ليتمكن اي شخص من متابعة الفعاليات بأي مكان يتواجد فيه عبر الهاتف المحمول او جهاز الكمبيوتر. وتم ارفاق رابط آخر يحتوي على برنامج الفعاليات بالتفصيل.

في كل يوم من ايام الفعاليات كانت توضع دعوة باسم المؤسسة لحضور الفعالية التي تقام في ذلك اليوم على الشريط الاخباري لتلفزيون فلسطين.

وقد اعلن يوم الأحد ٢٠١٤/١٠/١٢ عن برنامج الفعاليات العام في مؤتمر صحافي تحدث به د. ناصر القدوة رئيس مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات لإطلاق الفعاليات بحضور عدد من المؤسسات الاعلامية الرسمية والخاصة على النحو التالي:

انطلاق فعاليات احياء الذكرى العاشرة لاستشهاد القائد المؤسس يوم ٢٠١٤/١١/٣ حتى يوم ٢٠١٤/١١/١٦ كالتالي:

الوقفة الشعرية

في قاعة د. فتحي عرفات في مقر الهلال الاحمر الفلسطيني وفي يوم الاثنين ٢٠١٤/١١/٣ القى شعراء فلسطينيون قصائد لياسر عرفات وفلسطين. وقد افتتح الوقفة السيد يحيى يخلف، رئيس لجنة الدراسات والابحاث في مؤسسة ياسر عرفات، ومن ثم القى كل من أحمد دحبور، نزيه حسون، عبد الناصر صالح، محمد شريم، خالد جمعة، ماجد ابو غوش ابياتا شعرية بهذه المناسبة وحضرها جمهور غفير.

التغطية الإعلامية

تم بث الوقفة على الهواء عبر فضائية فلسطين مباشر، كما تم تغطيتها في الصحف المحلية و المواقع الاخبارية المحلية و العربية.

ياسر عرفات في القدس

أعلنت مؤسسة ياسر عرفات عن عقد فعالية في البلدة القديمة – القدس يوم الثلاثاء ٢٠١٤/١١/٤ من الساعة ١٢ ظهرا وحتى ٢:٠٠ بعد الظهر. وكانت الفعالية عبارة عن لوحة ثقافية فنية تبدأ براوٍ يلبس لباس ياسر عرفات ويروي الرواية ويتنقل في ازقة القدس وكانت هناك لوحات فنية استعراضية وموسيقى وانتهت الفعالية بالزاوية الفخرية.

أشبال وزهرات في ذكراك

احياء ذكرى ياسر عرفات يجب ان تنتقل إلى الاجيال الجديدة ومن لم يعاصروا حياة الرئيس الشهيد. الاشبال والزهرات جزء لا يتجزأ من تطلع ياسر عرفات نحو المستقبل تناوله في معظم خطاباته ارتات مؤسسة ياسر عرفات ان تشرك الأطفال في احياء الذكرى العاشرة لاستشهاد القائد المؤسس. وبالتنسيق والتعاون مع وزارة التربية والتعليم واكاديمية بلاتر واقليم رام الله والبيرة شارك ٣٥٠ طفلاً وطفلة في الفعالية يوم ٢٠١٤/١١/١٥ والتي كان برنامجها التالي:

١- كورال أبرياء حول اطفال غزة لفادي الغول

٢- مسرحية نص نصيص – فادي الغول بمشاركة الاطفال الحضور

٣- عرض لروني روك

٤- فقرة رسم

وقد حضر الاطفال من اربع مدارس حسب تنسيق وزارة التربية والتعليم

١- مدرسة أمين الحسيني

٢- مدرسة هواري بو مدين

٣- مدرسة عين مصباح

٤- مدرسة بنات البيرة

إضافة إلى طلاب وطالبات اكاديمية بلاتر من عدد من مدارس الضفة الغربية ومدارس الوكالة من

مخيم الجلزون.

وقد تم التعريف بالمؤسسة واحياء ياسر عرفات في ذاكرة الاطفال من الجيل الجديد. وبالرغم من العدد الكبير للأطفال المشاركين انجز البرنامج كما كان مقررا وكان التفاعل كبيراً ، وشارك الاطفال بمبادرة منهم ببعض الفقرات منها الغناء الوطني ومنها التمثيل، وتم تغطية النشاطات في القنوات التلفزية والصحافة.

"عرفات" فيلم وثائقي

يوم ٢٠١٥/١١/٥ قامت المؤسسة بالتعاون مع متحف محمود درويش بعرض الفيلم الوثائقي "عرفات" للكاتبة سحر بعاصيري وهو فيلم يحاكي رواية الثورة الفلسطينية من خلال ياسر عرفات. وهو من تسعين دقيقة عرض في متحف محمود درويش وحضره جمهور كبيروعدد كبير من الشخصيات القيادية والسياسية ومخرجون وناشطون/ات شباب، وكان التفاعل مع الفيلم كبيراً ومؤثراً.

التغطية الإعلامية

فلسطين مباشر قامت ببث الفيلم بالتزامن مع عرضه في متحف محمود درويش، كل من فضائية العربية و فلسطين و عودة حضرت وصورت تقارير.

ونحلم وطن

عرض غنائي من انتاج مؤسسة ياسر عرفات، كلمات الشاعر غسان زقطان وتلحين الفنان عودة ترجمان تم عرضه على مسرح جامعة القدس "أبو ديس" – بوابة القدس يوم الخميس ٢٠١٤/١١/٦ بمشاركة أربعة فنانين فلسطينيين عمار حسن، سناء موسى، دلال ابو امنة، وجميل السايح. وقد حضر العرض عدد من الشخصيات القيادية والقى د. رامي الحمد الله رئيس الوزراء كلمة بالمناسبة ود. ناصر القدوة كلمة مؤسسة ياسر عرفات.

وقد كان العرض على مستوى عال من حيث الكلمات والالحان والتقنيات التي تشمل المسرح والاضاءة والصوت والشاشات بتنفيذ من شركة الجيطان وتم نقل "ونحلم وطن" مباشر على تلفزيون فلسطين والجزيرة.

"معا وسويا" في الناصرة

عملت مؤسسة ياسر عرفات مع أهلنا في الاراضي المحتلة عام ١٩٤٨ على احياء هذه المناسبة. وإقامة الفعالية في مدينة الناصرة بالتعاون مع مؤستي محمود درويش وتوفيق زياد يوم الجمعة ٢٠١٤/١١/٧ الساعة الثامنة مساء في قاعة مدرسة راهبات مار يوسف.

وقدمت في بداية الحفل كلمة لمؤسستي توفيق زياد ومحمود درويش القاها الاستاذ المحامي جواد بولس وكلمة لمؤسسة ياسر عرفات القاها د. ناصر القدوة رئيس مجلس الإدارة. ومن ثم عرض ثقافي فني للفنانة تيريز سليمان، الراوي عامر حليحل، وصلة لسعيد سلامة ووصلة غناء ودبكة لفرقة موال النصراوية. وحضر الحفل عدد كبير من جمهور الارض المحتلة.

وأقيم معرض محطات في دارة الفنون في الناصرة حتى ٢٠١٤/١٢/٢٩وهو معرض صور لمحطات حياة القائد المؤسس ياسر عرفات يرصد أهم المحطات من حياة ياسر عرفات. ولأول مرة يقام مثل هذا النشاط في الناصرة منذ استشهاد ياسر عرفات.

افتتاح مسجد ياسر عرفات

افتتح مسجد ياسر عرفات يوم السبت ٨ تشرين الثاني/ نوفمبر في مدينة نابلس بحضور أمين عام الرئاسة الطيب عبد الرحيم ممثلا عن السيد الرئيس محمود عباس و مدير عام المؤسسة د.أحمد صبح و السيد منيب المصري رئيس لجنة الوقفية في المؤسسة الذي شيد المسجد على نفقته الخاصة. وقام الحضور وبضمنهم الشخصيات الاعتبارية والسياسية وممثلين عن فصائل العمل الوطني و السفراء العرب و الاجانب بجولة في مرافق المسجد ، وهي مركز لرعاية المسنين و قاعة السلطان عبد الحميد و المصلى حيث صلى الحضور صلاة العصر تبعها عدد من الكلمات للسيد منيب المصري

وكلمة المؤسسة القاها د.أحمد صبح و كلمة رئيس بلدية نابلس السيد غسان الشكعة و امين سر المجلس الثوري امين مقبول و كلمة معالي وزير الاوقاف و المقدسات الاسلامية يوسف دعيس، و كلمة السيد د.سامي مسلم رئيس مجلس الامناء بجامعة القدس وكلمة للسيد الرئيس محمود عباس القاها السيد الطيب عبد الرحيم أمين عام الرئاسة.

احتفال في فضاء ياسر عرفات بانتهاء الأعمال الانشائية للمتحف وانجاز تجديد الضريح

استلمت مؤسسة ياسر عرفات المباني الانشائية للمتحف بجانب ضريح القائد المؤسس الشهيد ياسر عرفات بالإضافة إلى انتهاء اعمال الترميم في الضريح. وأقيم احتفال يوم ٢٠١٥/١١/٩ بهذه المناسبة تحت رعاية سيادة الرئيس محمود عباس. وقد القى سيادته كلمة حول الشهيد ياسر عرفات كما القى د. ناصر القدوة رئيس مجلس ادارة المؤسسة كلمة حول المتحف واهميته في تخليد الذاكرة الوطنية. وقد حضر الحفل عدد من الشخصيات القيادية من ممثلي الفصائل الفلسطينية في منظمة التحرير واللجنة المركزية لحركة فتح وسفراء الدول الأجنبية والعربية في دولة فلسطين ورؤساء البلديات. وقدم كورال أطفال بلدية نابلس خمس أغانٍ أعدت خصيصا للمناسبة بقيادة الفنان جميل السايح.

الاحتفال الثقافي السنوي "يوم الانجاز"

في نفس الموعد ومن كل عام تقيم مؤسسة ياسر عرفات احتفالها الثقافي السنوي يوم ١١/١٠ احياء لذكرى استشهاد القائد المؤسس ياسر عرفات. ويميز هذا الاحتفال تسليم جائزة ياسر عرفات للانجاز التي كانت هذا العام ٢٠١٤لمجمع الشفاء الطبي في غزة تقديرا لعملهم الدؤوب والمتفاني أثناء العدوان على غزة وتحت اقسى الظروف السياسية والمادية ونقص الأدوية والمعدات. والقى رئيس الوزراء د. رامي الحمد الله كلمة بهذه المناسبة كما القى د. ناصر القدوة كلمة حول المؤسسة وعملها في فلسطين واعلن بأن يوم ١١/١٠ سيكون يوما للانجاز.

وقد قدم الثلاثي جبران عرضا موسيقيا مهما باسم الحصار أعد خصيصا للمناسبة ويحاكي فترة حصار

الرئيس ياسر عرفات في المقاطعة في الفترة ما بين ٢٠٠٢ – ٢٠٠٤. وقد حضر الحفل عدد من الوزراء وشخصيات سياسية وقيادية .

وعلى هامش الحفل تم افتتاح معرض "لنرسم فلسطين...لنرسم عرفات" في القاعة الخارجية لقصر رام الله الثقافي. احتوى المعرض على الرسومات الفائزة لأطفال من محافظات الوطن والذين فازوا بمسابقة تمت خلال العام بالتنسيق مع وزارة التربية والتعليم حول افضل رسم لفلسطين ولياسر عرفات وأعلن عن الفائزين والفائزات بحفل خاص بهيج.

المهرجان الجماهيري في غزة

بعد الأحداث المؤسفة التي حالت دون تنظيم المهرجان المركزي للذكرى العاشرة في غزة كما كان مقررا، أقيم مهرجان شعبي في مقر المقاطعة برام الله بحضور جماهيري مميز وكلمة سياسية جامعة للرئيس محمود عباس. والقى كلمة مؤسسة ياسر عرفات د. ناصر القدوة رئيس مجلس الإدارة. كما ألقى كل من السيد قيس عبد الكريم والنائب محمد بركة كلمتين بهذه المناسبة. وقامت فرقة الامن الوطني الموسيقية بانشاد اغاني الثورة .

احياء الذكرى في عمان – المملكة الأردنية الهاشمية

جهد مشكور وهام وقاعة امتلأت بالجمهور يوم ٢٠١٤/١١/١٣ احياء للذكرى العاشرة لاستشهاد الرئيس ياسر عرفات في عمان – المملكة الاردنية الهاشمية في المركز الثقافي الملكي. وقد القى كلمة المؤسسة د. ممدوح العبادي، نائب رئيس مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات وكلمة السيد رئيس الوزراء الاردني الاسبق دولة السيد فيصل الفايز كما القى السيد عزام الاحمد، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح كلمة نيابة عن الرئيس محمود عباس. وتلى الكلمات نشاط فني وثقافي بالمناسبة.

احياء الذكرى في القاهرة – جمهورية مصر العربية

أقيم في مدينة القاهرة في جمهورية مصر العربية حفل لاحياء الذكرى العاشرة لاستشهاد الرئيس

ياسر عرفات في قاعة الأندلس - مركز الأزهر للمؤتمرات يوم الجمعة الموافق ٢٠١٤/١١/١٤. والقيت كلمة باسم الامين العام للجامعة العربية نبيل العربي القاها نائبه السيد أحمد بن حلي، وكلمة باسم شيخ الأزهر الامام الاكبر د. أحمد الطيب القاها نيابة عنه فضيلة الشيخ محيي الدين عفيفي، امين عام مجمع البحوث الاسلامية، وكلمة د. علي جمعة، مفتي الديار المصرية سابقا. كما ألقى كلمة نيابة عن الرئيس عباس السفير الفلسطيني لدى جمهورية مصر العربية السيد جمال الشوبكي والقى د. ناصر القدوة، رئيس مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات كلمة المؤسسة. واختتم الحفل بفقرة فنية للفنان الفلسطيني عمار حسن.

احياء الذكرى في بيروت – الجمهورية اللبنانية

كان الحضور الجماهيري الابرز بختام فعاليات احياء الذكرى العاشرة لاستشهاد الرئيس ياسر عرفات في لبنان يوم السبت ٢٠١٤/١١/١٦. فقد تجاوز عدد الحضور ١٢ الف نسمة من كافة مخيمات الشتات الفلسطيني في الجمهورية اللبنانية والمواطنين اللبنانيين. وقدم الحفل الإعلامي الأبرز زاهي وهبه والقى د. ناصر القدوة رئيس مجلس إدارة مؤسسة ياسر عرفات كلمة المؤسسة ثم كلمة رئيس الوزراء اللبناني تمام سلام القاها نيابة عنه الوزير محمد المشنوق. وقد القى سعادة السفير اشرف دبور كلمة نيابة عن الرئيس الفلسطيني محمود عباس. وقد شارك بالحفل فرقة الكوفية الفلسطينية، وعرض فيلم من انتاج مؤسسة ياسر عرفات حول القائد الشهيد واختتم الحفل الفنان محمد عساف بفقرة غنائية وطنية.

التغطية الإعلامية للفعاليات في الدول العربية

تم بث العروض على الهواء مباشرة عبر فضائية فلسطين مباشر و تم تغطية هذه المهرجانات عبر الاذاعات المحلية كل في يومها و تم اعداد اخبار عن كل فعالية وارسالها الى الصحف المحلية و المواقع الالكترونية والصحف العربية و تم اعداد تقارير خاصة بالمهرجانات على عدة فضائيات منها فلسطين و العربية و الميادين و الجزيرة.

بعد انتهاء الفعاليات تم استضافة ممثل عن مؤسسة ياسر عرفات في البرنامج الاذاعي "تحديات وانجازات" الذي تقدمه الاعلامية لينا الغولو يبث اسبوعيا على الهواء مباشرة عبر اثير صوت فلسطين و تبثه اذاعات عربية ايضا لمدة ساعة ، ليتحدث عن المؤسسة من حيث التأسيس و الاهداف والية العمل و جائزة ياسر عرفات للانجاز و فعاليات احياء الذكرى العاشرة.

ملاحظة: وزعت المؤسسة ونسقت مع سفارات فلسطين بالخارج معارض من صور وأفلام ومواد إعلامية ساهمت بإحياء الذكرى في العديد من الدول وكذلك مع الجهات المحلية في العديد من المحافظات الفلسطينية.

ملاحظات ختامية

- لقد حققت فعاليات الذكرى العاشرة لاستشهاد القائد المؤسس ياسر عرفات الهدف الرئيسي منها وهو اشراك كافة القطاعات بها وتنوعها وامتدادها بالوطن والخارج مما أعطى بعداً شموليا لهذه الذكرى .

- بالتنسيق مع وزارتي الثقافة والاتصالات جاري العمل على إصدار طابع بريدي تذكاري بمناسبة الذكرى العاشرة لاستشهاد الرئيس ياسر عرفات.